رواية



أحمد ماضي

ابحثوا لنا عن: إمام آخر. . . .

ابحثوا لنا عن:

إمام آخر....

رواية

أحمد ماضي

فانتازيا سياسية

الإهداء

زوجتي الغالية......

شفاكِ ا ......

إنها حالة من حالات المطاردة العبثية للاموجود تلك التي جعلتني أجلس بالساعات على كرسي من القلق والتعب لأكتب هذه الرواية المراوغة..

أيناها تلك الحالة من حالات الألم الـواعر الـذي كـان يجعلني أقفز ملتاعا من فوق هذا الكرسـي، مسـرعا إلـى مخدعك الموجوع، لأطمئن عليكِ وأواسيكِ بكلمـة.. كلمـا ارتفعت آهاتك؟..

كان هناك مرض يفتك بجسمك البطل، ويحاول أن يصل إلى روحك المؤمنة الوثابة..

وكان هناك هم يذبحني..

وخوف يتولاني..

وعندما كانت تتحجر الدموع في عيني، ولا تـأتي لـي طيعة لتغسل ألمي.. أعرف أنها سوف تتقطر شعرا..

وهكذا كانت ساعاتي موزعة بين القص والشعر والدموع والتعب.. تعبي أنا.. لتعبك أنتِ:

تعبتي ليه.. وسايباني مع المِحنه

ما طول العمر يا عمري بنتقاسم دما جروحنا

أشيل الحِمل وياكي.. ونِتِعكّز على روحنا

وليه الداء بيختارك

يِلون بالعذاب دارك

يزيد الهم في وقتك

يموت الفْرح في وقتي

تعبتي

تعبتي

تعبتي

أحمد ماضي

فهرس

الجزء الأول

نصف القاعدة في الارتفاع..

(١)

" السقوط النبيل "

قلت عنه إنه صاحب قلب شاب رفرف على جلساتنا كما يرفرف الطائر الجسور الباحث عن محط مريح في عالمٍ فقد راحته.. وقالوا لي إنه عندما قرأ كلمتي عنه في المجلة هز رأسه بامتنان وأسى.. وقد فهمت على الفور ما هو سر الامتنان.. وما هو سبب الأسى.. فالرجل الذي يلج الشيخوخة كثيرا ما يسعده القول بأنه ما زال يقتني قلبا شابا ويداخله الامتنان لهذا الوصف.. ولكنه عندما يقف في مواجهة نفسه بالمصارحة الخالية من التجمل وإسباغ الأوصاف المريحة يتذكر في أسى أن قلبه – ذلك الشاب كما يقولون – ما حاز هذا الثناء إلا تلطيفًا لواقع عمره الأليم.. وهنا يتذكر كيف مر به عمره هكذا سريعا، وانساب من بين أصابعه كما تنساب الرمال الناعمة.. ثم يعاود النظر إلى ما بين يديه من حصاد ويكتشف أنه لا يكاد يرى إلا هشيما يقلبه بين كفيه.. ثم يتساءل: كيف يرى الآخرون حصادي؟..

لعله ارتاح لما أسبغته عليه من وصف " الطائر الجسـور الباحث عن محطٍ مريح في عالم فقد راحته.. " ولعله وجـد ضالته في هذا الوصف.. فهو بالفعل لا يعدو أن يكـون إلا طائرا جسورا.. وقد كان يكفيه أن يكون طائرا وكفي، ولكنه وجد نفسه يمتلك جسارة الابتعاد عن الوقوف فوق الأشـجار الذليلة التي تقف عليها كل الطيور.. أو الأشـجار المتاحـة لممارسة غواية الوقوف والنوم.. فلقد دفعته جسارته أن يندفع بعيدا عن الأسراب المغيبة بحثًا عـن أشـجاره الخاصـة.. أشجاره العالية.. فهذا هو المحط الذي يريحه.. ولكنه عنـدما وجد نسورا أخرى قد اعتلت تلك القمم راح يواصل الطيران والبحث عن قمة متسائلاً: من له بتلك القمة التي لن يرتضى سواها والنسور الكواسر تتكالب عليها وتحتلها وتدافع عـن مكانها فوق ذراها؟.. ولشد ما يأخذه الأسـى وهـو يحـوم باحثـًا عن مكانه المرموق ليدعو إليه قومه الـذين يجـدهم هناك قد أغفوا واكتفوا بتلك الفروع الوطيئة..

لقد غاب طويلاً في بحثه.. وغاب طويلاً فـي طيرانـه.. وبقدر ما عز عليه العمر الذي يضيع في البحث.. عز عليـه ألا يجد محطه المأمول..

قال لنا وهو يلقي براحته اليمنَى لترقد في استسلام فـوق مؤلفه الضخم: لقد غبت عنكم خمسة عشر عاما هي السنوات التي غرقت فيها بين آلاف المراجع التاريخية لكي أعود لكم برد عادل عن سؤالٍ قلق هو: من نحن؟..

لمحنا في عينيه الإرهاق البادي وتأكد لنا أنه لا يتمتع مثلنا ببعض الاتساع في العيون بعدما تحورت عينـاه شـرطتين اختفى بياضهما.. ولعلنا ربطنا بين ذلك التحول فـي خِلقـة العين وبين آلاف المراجع البحثية التي امتصت سطورها نقاء كان ولا شك موفورا في هاتين العينين.. ولعلنا ونحن عشاق الفكر والأدب الذين نجتمع به وحوله قد داخلنا شعور نحـوه بالحب يوازيه شعور آخر بالغيرة لأن كلاً منا كان يتمنـى – في قرارة نفسه - أن يمتلك هذه القدرة في تسـييس الـنفس والقسوة عليها وتجنيدها في تحقيق هدف ما – أيا كان هـذا الهدف – وأيا كان ما سيصرفه عليه من جهد وانكباب علـى السهر والقراءة، وانصراف عن الدنيا وما فيها من لهو ولعب وترفيه..

كنت أجلس بجواره مما أتاح لي أن أسـتمع إلـى رجـع أنفاسه اللاهثة والمتعبة.. فالتدخين - تِلك العادة التي واكبت

عادته الليلية في الانصراف إلى القراءة - راحت آثاره تعلن عن نفسها في لهاث واضح، وفي التقاط عفـوي وروتينـي لسيجارة تصل من صندوقها إلى فمه، وتشتعل في ثوانٍ دون وعي.. واكتشفنا أن أحمد منصور قد وقع مثلنا نحن الشعراء تحت طائلة الدهشة.. عندما راح يسطر قصـيدته / الكتـاب طوال خمسة عشر عاما.. واكتشفنا أن دهشته كانـت هـي نفسها الدهشة البريئة التي جذبت نيوتن ليبحث عن سر سقوط التفاحة – من شجرتها – إلى أسفل.. وقد كانت دهشة أحمـد منصور التي جذبته هي أن يضع إجابة عن سر سقوط الأمة العربية والأمة الإسلامية – مـن ذروة حضـارتها.. إلـى أسفل..

ورحنا ننتظر الإجابة التي سيدلي بها أحمد منصور عـن سر سقوط أمتنا، عندما لاحت فـي خيالنـا إجابـة نيـوتن العبقرية، عن سر سقوط التفاحة، والتي تضـمنت اكتشـافًا خالدا هو الجاذبية الأرضية..

لقد تنحنح أحمد منصور وقال:

- بالنسبة لنا فالسقوط كان سببه الجاذبية السماوية..

وكأنه كان يتوقع تلك الهمهمة التي صـدرت مـن كـل الحضور فتوقف عن توضيحاته الصـادمة حتـى تتوقـف الهمهمة.. وما إن ران الهدوء على المجلس حتـى واصـل توضيحه الصادم – على حد تعبيره – :

- ومن قال لكم إننا كنا ثمارا كالتفاح فوق شجرة اسـمها الحضارة العربية أو الإسلامية؟.. لم يحدث في التـاريخ أن كنا تفاحا.. لأنه لم يحدث أن كان هناك شجر ليحمـل هـذا التفاح..

سأله أحدنا:

- إذن فنحن لم نسقط.. مادامت لا شـجرة هنـاك.. ولا تفاح..

رد مسرعا:

- تستطيع أن تقول ذلك.. فالسقوط هو أن تنحـدر مـن مرتفع.. ولم يحدث ذات تاريخ أن كنا في ارتفاع.

سأله آخر:

- ألم تواتك مراجعك بشيء عن الحضارة الإسلامية؟..

- وا يا أخي لقد واتتني بالكثير عن الفتوحات الإسلامية التي لا شأن لك بها أيها القبطي.. لقد كنت أنت واحدا من هذه الفتوحات.. فكيف تفخر بالغازي أيها المغزو..؟

تابعه أحدنا بهذا الرأي:

- لقد انصهر الضيف والمضيف وأصبحا شخصا واحدا..

فأجاب أحمد منصور مستنكرا:

- ومن قال إن الضيف هو الذي يحكم المضيف، ويوجهه ويسلب منه كيانه القديم، ليدخله رغم أنفه في كينونة جديدة؟..

باغته سؤال متنمر:

- إذن لم يكن لائقًا بالمصريين أن يدخلوا في الإسلام؟..

وكان رده جاهزا:

- الإسلام دين أطاحت قوته بكل الأديان القديمة في وادي النيل.. ولكنك لم تتمكن من استغلال سماحته في إعلاء حضارتك المصرية..

قال أحدنا مستنكرا:

- حضارة المعابـد الجنائزيـة والتماثيـل والأهرامـات والمدافن..

رد بهدوء:

- لعلك لا تجد ما تفخر به من ماضـيك سـواها الآن.. وهى ليست كما تقول حضارة الحجارة.. ولكنهـا حضـارة العلم والفن والفلك والعمارة.. حضارة العجائب..

عاد صاحب السؤال المتنمر:

- إذن فأنت تعترف الآن أننا كنا ذوي حضارة..

رد بنفس الهدوء:

- أجل.. الحضارة المصرية في وادي النيل.. لقد توقفت وتعطلت مسيرتها بفعل الغزاة..

صاح أحدنا:

- ومن عطلها؟.. لقد سافَرت حتى التحمت نهاياتها ببداية الحضارة الإسلامية..

صمت قليلاً ثم راح يوضح:

- لو اتفقنا على تعريف الحضارة لارتاحت نفوسنا.. هل جاء عمرو بن العاص إلى مصر بمشروع حضاري مـدني

جاهز؟.. أم جاء بدعوة دينية يأمر فيها ا الناس بواسطة رسوله محمد عليه السلام بتوحيد ا والعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي..؟ ما علاقة هذه الدعوة الربانية بمشروع الزراعة على ضفاف النيل؟.. هل تطورت الزراعة على يد عمرو بن العاص وهو القادم من البادية؟.. التاريخ يقول إنها تأخرت إلى حد مزعج.. وهل تطورت ذائقة الادخار لدى المصريين؟.. التاريخ يقول إنها انعدمت وهي التي ارتبطت في نفوس المصريين بفيضان النيل وتحاريقه.. حتى فكرة الجندية التي كانت متألقة في الحاضنة الثقافية لدى المصري القديم كما تشي بذلك جدارياتهم استطاع أن يلمحها الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ويوصى بالجنود المصريين خيرا " لأنهم خير أجناد الأرض ".. ومع هذا فلم تؤخذ بوصية الرسول.. وضاعت فكرة الجندية هي الأخرى مع الزراعة والادخار..

- إذن فأنت تنعي الحضارة المصرية..

= أنا لا أنعاها.. ولكني أبحث عنها.. إنها جثة أوزوريس التي تبعثرت في الوديان.. ونحن إيزيس الباكية..

- ولا تريدنا أن نتمسح بحضارة الإسلام؟..

= للمرء ألا يفخر إلا بما قدمه.. وعباقرة الإسلام ليسـوا كلهم مصريين.. الغرب الذي أخذ منهم أفكـارهم وطورهـا يذكرهم بأسمائهم.. وكانوا جميعا من بقاع غير مصرية..

- هل هذا ما قدمته في كتابك؟..

= أهم ما قدمته في كتابي هو تأريخ القهر الذي تجرعـه المصريون على امتداد حياتهم.. القهـر فـي الـداخل مـن حكامهم.. والقهر المحمول لهم فوق جياد الغزاة.

ثم وقف أحمد منصور متهيئًا للانصراف.. وراح يرنـو إلى الحضور بنظرة خابية.. بها قلـق.. ونبـل.. وتـوتر.. وحنان.. وبصوت حانٍ راح يتدفق في دفء وألم..

يا سادتي.. لقد أخذتني الدهشة وأنا رفيق حسـرتي فـي سيناء عندما رأيـت اليهـود يطـأون أجسـادنا بأحـذيتهم كالحشرات.. وشاهدت انكسار بريق الزمن في عيون أبنـاء الفراعنة الذين استخدموا اليهود – ذات يوم - خُداما لهـم.. وعرفت أن الزمن يدور دورته وأننا في طريقنا أن نتحـول خداما لهم.. وأنهم لو كانوا قد سرقوا ذهب المصريين عنـد خروجهم فسوف يسلبوننا كرامتنا ونفوسنا وأرواحنـا عنـد دخولهم.. واكتشفت أننا نضحك على أنفسنا بأغنيات المجـد

الزائفة.. وأننا لم نتعلم مـن التـاريخ إلا الخضـوع لقهـر الحكام.. وقهر الغزاة.. وآهٍ.. آهٍ من قهر اليهود فيما لو غزوا ديار عقولنا.. ما بالك لو غزوا ديارنـا؟.. أعلـم مقـدما أن حديثي صادم وقاسٍ.. لأننا لم نتعود أن نقر بعيوبنـا.. بـل تعودنا أن نتهم ناصحنا بالكفر فيما لو قـال لنـا إن وقـت المصنع والمعمل له قداسة وقت الصـلاة وقداسـة التعلـق بالمساجد.. يا سادتي.. إنني وا مسـلم يعتـز بإسـلامه.. وأواظب على الصلاة ولكني دائما أتحاشـى السـقوط إلـى أعلى.. السقوط النبيل..

* * * *

(٢)
هيا بنا يا أستاذ..

راق لي أن أراه عن قرب.. تمنيت أن تتاح لـي فرصـة مشاهدته في قاعة المحكمة وهو يدافع عن أصحاب قضـاياه كمحامٍ له سمعته الطيبة وتاريخه المشرف..

وفي مكتبهِ الذي يعج بـالموظفين وأصـحاب القضـايا وسحب دخان السجائر - التي تنبعث من غرفته فتنسحب إلى الصالة لتلحق بسحب مماثلة تنبعث من سـجائر المـوظفين الذين هم على دين ملكهم في الاسـتمتاع المحبـب بـأكواب الشاي ولفافات التبغ – قابلني متهللاً وأسرع بإلقاء تعليماتـه إلى جمع من شباب المحامين بشكل أوحي لهـم أن يحملـوا مسئوليتهم خلال تلك المدة التي سيتفرغ فيها لمجالستي..

واجهته بسؤال مباغت:

- الأستاذ أحمد منصور المحامي.. ماذا تريد؟..

أطرق لحظات طويلة.. وكأنه يفكر فـي الإجابـة.. ولا أعتقد أنه كان يفكر في الهروب من سؤالٍ يحمل كـل هـذه

البساطة.. وعندما رفع وجهه مصوبا نظره؟إلي مـدققًا فـي ملامحي جاءني صوته متحشرجا.

- كنت في الماضي أريد أشياء كثيرة.. أمـا الآن فيبـدو إنني بعد كل هذا العناء سأنضم إلى موكب الحائرين..

- ومن هم الحائرون؟..

- هم الـذين بـداخلهم إرادة مكبوتـة.. إرادة لا لـزوم لإطلاقها..

- ولماذا لم تُسمهم: اليائسين..؟..

- هذا ما أطال تفكيري في سؤالك.. فاليائس هـو الـذي استسلم تماما.. أما الحائر فهو الذي يعاني من يقظة التوثـب الذي في داخله.. وغفوة التراخي الذي يحيطه.. فهو حـائر بين أن يستجيب لما في داخله وبين عدم جدوى ذلك إذا قدمه للناس..

- دعني أصارحك بشيء لابد أن تعرفه..

- تفضل..

- جئتك وفي جعبتي ما تيسر مـن معلومـات جمعتهـا عنك.. أي إنني لا أجهلك تمام الجهل وأنا أحاول الغوص في أعماقك..

- إذن: دعني أنا الآخر أطلب منك شيئـًا..

- تفضل..

- فضولي يدفعني الآن أن تُطلعني على بعض ما عرفته عني.

- سأوجز لك ذلك في نقاط:

- أنفقت إرثك من أبيك بين جدران مكتبك ومكتبتك..
- ثوريتك واقترابك من الخطوط الحمراء أدى إلى الزج بك في السجن..
- كانت أحلامك عريضة.. ومنها أن تقيم حزبا..

ابتسم في إعزاز.. وهز رأسه موافقـًا..

- هذا كله صحيح.. ولكن هناك توضيحا بسيطًا لمسـألة إنفاقي لإرث أبي.. فالمكتبة لا يمكنها اسـتهلاك كـل هـذا الإرث.. ولكنه المنزل والأولاد.. فمع انهماكي في الاطـلاع والبحث في قضية مصر رفضت ولسنوات طويلة قبـول أي

قضية أخرى.. إذن فمن أين لـي بطعـامي والأولاد سـوى تجريد نفسي من لقب (مالِك) رويدا رويدا ببيع الأفدنة فـدانًا فَدانًا..؟ هذا ما حدث..

- إذن فأعظم قضية أُسندت إليك هي قضية مصر؟!

- وهي كما ترى قضية خاسرة.. لم أكسبها.. ولم أكسب منها..

- هل بعد صدور كتابك (مصر.. الأم) تعتبر أن قضـية الكتاب خاسرة..

- ربما يكون الكتاب نفسه هو الدليل على هذه الخسارة.. الكتاب الذي تتحدث عنه لم يكن سوى القاضي الذي اسـتمع إلى دفوعي وحيثياتي ثم أتى بحكمه القاطع في مجمله.. فقـد كنت أطارد سؤالاً حائرا: من نحن..؟.. وكانـت الإجابـة: أنتم.. لا شيء..

- أنت محامٍ.. لماذا اكتفيت بدور المحامي الباحث عـن الحقيقة.. والباحث عن مخرج دون أن تتقمص دور الطبيـب الباحث عن علاج؟..

- لقد توصلت إلى هذا الحل.. وبحثت عن علاج لقضـية مصر يبدأ من عندي وأنا الغارق في دموعها.. ووجدتـه..

وجدت هذا الحل يلوح أمامي عندما أعلن السادات عن قيـام المنابر تمهيدا لقيام الأحزاب وقررت أن أكون حزبا يحمـل أفكاري في الإصلاح والخلاص..

- وأين هذا الحزب؟..

- لم يولد.. ولن يولد.. لأن الأحزاب التي ظهرت لم تكن مولودة ولادة طبيعية.. ولكنها جاءت نتيجة اعتساف.. ولـذا فهي كما تراها مواليد مشوهة لا تتردد فيها أنفاس الحياة..

- ولذا فأنت اخترت أن تظل بحملِك؟..

- هذا أشرف..

- ولكنه أخطر.. فالحمل الطويل يقتل الجنين..

- إلا في السياسة.. فالحمـل الطويـل يزيـد المولـود نضوجا.. وإذا قدر له الخروج للحياة يزداد بهاء..

كانت عفوية الحوار تستدرجنا إلى الرمز.. وكان الرمـز مفهوما فيما بيننا دون سابق اتفاق.. فالمولود أو الجنين الذي نتحدث عنه لم يكن سوى الأفكار والمبادئ والقيم التي مـن المؤكد – كما يشير الحوار – أنهـا تـزداد نضـوجا لـدى صاحبها مع طول انصهار تجربته داخل نفسه الذكية وروحه الوثابة.. وغالبا ما يكون المناخ المضاد لهذه المبادئ عـاملاً

مساعدا على تألقها والإيمان الزائد بجدواها بل والرغبة فـي سرعة تقديمها للناس كحلٍ ودواء للأمراض الزاحفة..

وسرعان ما انعطفنا إلى الطريق الممهد للحـوار عنـدما تخلصنا – أيضا – دون سابق اتفاق من حالة الترميز التـي راحت تتغلغل في حواراتنا الوليدة..

قلت له ضاحكًا:إذا كان مفهوم أن: خيـر البـر عاجلـه يرطّب نفوس الخيرين ويدعوهم إلى التعجل بإطلاق الصلاح فإنه في حالتك ثبت أن التريث هو المطلوب.. وتلـك هـي السياسة لا تخلو من مشاكسة..

زم شفتيه.. وراح يهز رأسه علامة الموافقة وهو آخذ في البحث عن رأي شافٍ أو قول في الصميم.. ثم ما لبـث أن ابتسم وهو يطالعني بوجهه..

- يهيأ لي أنك الذي تنحو بي إلى فِعل المشاكسـة.. فمـا دمت قد قلت لي إنك جئت لتجالسني وفي جعبتك ما تيسر من معلومات عني إذن فأنت تعلم إنني لم أتوقف عن مشـروعي في إقامة حزب إلا لسبب واحد.. هو عدم اقتناعي بإضـافة حزب ما إلى مجموعة الأحزاب العقيمة التي تزين واجهـة زائفة لكلمة زائفة اسمها الديموقراطية.. وإذا كنت تعتقد إنني

أنتظر اللحظة المناسبة لإطلاق مشروعي وإنني أتريث حالما تتضح الأمور أو ينقشع الضباب فأنت واهم.. فـلا الأمـور ستتضح.. ولا الضباب سينقشع..

- ولكنك مازلت تحمل أفكارك وتطلقها بجسارة الشـرفاء ونبل الأخيار.. ولم يبق لك سوى منبـر ترتقيـه لتخاطـب الجموع الغفيرة..

- هذا هو الوهم بعينه.. فلا مكـان للشـرفاء.. ولاحـظ للأخيار.. ولن يسمح لك بمنبرٍ ترتقيه.. ولن تجد فـي هـذه الجموع عقولاً تفهمك.. أو آذانًا تسمعك..

- دعك من الجموع الآن.. عليك بالمثقفين..

- المثقفون في ورطة.. ولعل الجموع لا يمرون بـنفس هذه الورطة.. لأنهم لا يحملون إلا هما واحـدا.. هـو هـم بطونهم.. أما المثقف الذي لا يجب ألا يحمل سوى هم عقلـه أصابه هو الآخر هم الجموع.. فأصبح يحمل همـين: عقلـه وبطنه..

- ذكرت لي من قبل أنك انخرطت في موكب الحائرين.. وها نحن نكتشف موكبا آخر: موكب المهمومين..

- إنه أشد المواكب بؤسا.. وأشدها خطرا.. فقد اصطفت فيه كل الرءوس.. الرءوس التي تحمل الألم.. والرءوس التي تحمل الأمل.. لم يخرج عن هذا الطابور البائس إلا الصفوة..

- ومن هم الصفوة؟..

- الصفوة هم الذين لا يحملون في رءوسهم أي شـيء.. ويضعون في جيوبهم كل شيء.. ويملكون القدرة على شراء أي شيء.. ابتداء من مقاعد مجاس الشعب.. والأقلام غيـر الشريفة.. والقنـوات الفضـائية.. وجلسـات الاسـترخاء.. وساعات المؤانسـة.. ومضـابط القـرارات الاقتصـادية.. وكرابيج التأديب الناعمة.. وترسيخ المفهـوم الاسـتعماري "اضرب المربوط يخشاك السايب.. " ثم التمتـع بالاسـتخدام الأمثل لقانون الطوارئ.. ذلك السيف الوديـع النـائم فـي استرخاء داخل جراب الحذر.. سيف حنون يقـول لـك: لا تخشني.. ولكن لا يجب أن تنسـاني.. ومـا بـين الخشـية والنسيان يا قلبي لا تحزن.. يكفيك أن ترتعد أمام إشـاعة – مجرد إشاعة – تقول إن أوامر الاعتقال الموقعة على بياض جاهزة في الأقسام.. والعنوان البريء لن ينجح في تهـدئتك وإقناعك حتى لو كان يقول: إنه أمن البلاد.. لابد أن نحميه..

- عدنا إلى قصة الشرطي والمثقف..

- أو الشرطي والسياسي..

- أو الشوارب المفتولة والحذاء الغليظ والعصا القاسـية أمام الوجه الممصوص والفكر النبيل..

- إذن فماذا يفعل السياسي؟..

- أو كيف يتصرف المثقف؟..

قال هو: فلينخرط السياسي إلى موكب الحائرين..

وقلت أنا: ولينضم المثقف إلى موكب المهمومين..

لم أجد ما أقوله رغم ازدحام صدري بالكلام.. ولم أجد ما أفعله رغم شعوري بالنشاط.. فهممت بالوقوف ثم سألته:

- توجد كافتريا لامعة على بعد خطوات من مكتبك هـل جربت الجلوس عليها..؟..

- لا.. لم أفعل ذلك أبدا.. ولم أفكر فيه..

- هل تجيد لعبة الطاولة؟..

- لم أقربها منذ شبابي..

- إذن.. فهيا بنا..

- إلى أين؟..

- إلى الكافتريا.. لنلعب الطاولة.. سأُذكرك بأصول هـذه اللعبة..

راح يحملق في وجهي مستغربا..

- هل أنت بالفعل تعني ما تقول.. نجلس على الكافتريـا ونلعب الطاولة؟.. هل هذا معقول؟..

- إنها طريقة بريئة لهروب الحائرين والمهمومين.. ولقد اكتشفت الآن أننا مـنهم.. السياسـي الشـريف.. والمثقـف الرومانسي.. هيا بنا..

ضغط على زر الجرس.. فجاء الساعي.. طلب منـه أن يستدعى بعض الموظفين الذين ذكر لـه أسـماءهم.. توافـد الموظفون تباعا.. راح يرتدي البالطو الثقيل فوق بدلته وهو يحدثهم باهتمام:

- أنا ذاهب في مشوار مهم مع الأستاذ إذا كان هناك مـا يستدعى طلب رأيي.. فاتصلوا بي.. فأنا هناك..

سأله أحدهم:

- هناك؟..

أجابه بسخرية:

- أجل هناك.. في كافتريا الزعيم ألا تعرفها؟..

قال أحدهم:

- إنها قريبة منا.. أنا أعرفها.. هل هناك موعد مع عميل هناك؟..

قال بسرعة: لا.. لا.. لا عمـلاء ولا ديـاولو.. كفانـا عملاء.. سنذهب لنلعب الطاولة.. الأستاذ ذكرنـي بهـا؟.. الطاولة شيء مهم.. مهم جدا.. (ثم التفت إلى باهتمام قائلاً): الآن فقط عرفت أنك مثقف عبقري.. وتتابع حياتنا السياسـية بوعي واهتمام.. ثم التفت إلى شباب المحامين قـائلاً: هـل تدرون أهمية الطاولة في حياتنا؟.. لقد ادعى بعض الخبثـاء الظرفاء أن الدكتور عاطف صدقي قام بتكوين أول مجلـس وزراء تحت رئاسته وهو يلعب الطاولة.. وكـان الـوزراء المختارون هم أطراف اللعبة الحريفة.. هل فهمتم الآن أهمية الطاولة.. هيا بنا يا أستاذ..

* * * *

(٣)

" مصري غير مقهور..
مصري غير موجود.. "

كان يحتمي من البرد بالبالطو الثقيل عندما قام بغلق كـل أزراره ورفع ياقته إلى أعلى وحول رقبته ونحن نواجه تيار الهواء الراكض نحونا باردا وسريعا.. وما إن قطعنا الشارع الذي يقع به مكتبه وأصبحنا على طريق الكـورنيش الـذي يتعامد عليه الشـارع حتـى ازدادت حـدة الهـواء.. ولأن الكافتريا تحتل ناصية الشارعين فقد دلفنا سريعا إليها.. فتشت بنظرة سريعة عن منضدة خالية يسمح لنا موقعها بمشـاهدة النيل.. ما إن وجدتها حتى أومأت له أن يتبعني..

كان الدفء يسري في المكان قياسا بموجة البـرد التـي تسري في الخارج.. وكانت سحابة الدخان المنعقـدة فـوق رءوس الجالسين تجد لها مهربا، كلما أتيح لها ذلك مع انفتاح الباب لاستقبال وافد جديد.. وكان صـوت النـرد المـرتطم بأرضية الطاولة الخشبية يصك سمعك آتيا اك من عديد مـن

المناضد.. وكان صوت الماء الذي يـراوغ أنفـاس الهـواء المسحوبة من ندماء النرجيلة، يحمل هسيس أنفاس النـائمين إرهاقًا بعد عناء يوم طويل.. ولم يكن هناك ما يعكر صـفو المكان من ضجيج.. إذ يبدو أن صاحب الكافتريا اختـار أن يخفض صوت التليفزيون حتى ينتهي هذا الضيف الفخيم من الإجابة على أسئلة تلك المذيعة المتصابية..

قلت له وأنا أطالع صفحة الكورنيش الخالية – إلا قليلاً - من المارة:

- للمقهى تاريخ مثير مع نجيب محفوظ وندمائه.. لو كنت مكانك لعقدت صداقاتي مع الشعب من هذا المكان..

لاحت على فمه ابتسامة مراوغة وهـو يطـالع وجـوه الجالسين خلسة ويومئ بالتحية لبعضهم بين آن وآخر..

- صدقني.. لم يشغل بالى هذا الموضـوع لحظـة.. لا أدري مدى صحة ما اعتمل في نفسي على مدى حياتي مـن أن المقهى مضيعة للوقت.. لعلي تأثرت بهذا الـرأي الـذي سمعته من أبي وأنا صغير..

- ألا ترى أن الحضور يأكلونك بعيونهم ومنهم صـاحب الكافتريا؟..

- من المؤكد أن هذا يحدث.. لعلهم يتساءلون إن كنت أنا أحمد منصور أم شخصا يشبهه؟..

- سأطلب الطاولة حالاً.. ماذا تشرب؟

واستدرت مناديا الجرسون الذي أقبل مسرعا:

- شوف أحمد بك.. ماذا يشرب.. وهات طاولة..

أوقف أحمد منصور الجرسون بإشارة من يده.. ثم التفت إلى:

- لا داعي للطاولة..

ثم التفت إلى الجرسون: اعطني فنجـان قهـوة.. سـكر مضبوط.

راح الجرسون يفرك يديه بشيء من الغبطة..

- أحمد بك منصور؟.. نورت المكان.. كنت أؤكـد لعـم عبد الكريم منذ لحظات أنه أنت.. وهو لا يصدقني.

وأشار بيده إلى موضع جلوس صاحب الكافتريا.. وتتبعت نظراتنا اتجاه إشارته.. لقد كان الجرسـون يـدعو معلمـه للحضور إلى موقعنا وعلى فمه ابتسامة انتصار من أصـاب الهدف.. وجاء عبد الكريم خفيفًا بشوشًا وراح يصافح الأستاذ

في اهتمام وسرور معبرا بكل ما أطلقه من كلمات المجاملـة أن المكان – بالفعل – قد ازداد نورا " بقدومك إليه.. وأنـت الجار العزيز.. والباشا العريق.. وابن القناطر الخيرية الذي يحبك فيها كل الناس.. حتى طوب الأرض "..

كان يقف خلف الجرسون ومعلمه رجل نحيف ذو لحيـة صغيرة يرتدي بدلة صوفية أنيقة ورباط عنق ينم لونه عـن ذوق سليم لاختياره مناسبا مع لون البدلة.. وكانت تلوح على وجهه ابتسامة واسعة وهو يشد أنفاسا من سيجارته المعلقـة بطرف مبسم ذهبي اللون.. وما إن انتهت موجـة الترحيـب التي ختمها عبد الكريم بقسمٍ غليظ أن كل مشـروبات الليلـة تعتبر خالصة الثمن.. وما أن تحرك إلى مكانه حتـى تقـدم الرجل النحيف نحونا مادا يده إلى الأستاذ بالمصافحة..

- أحمد بك منصور؟..

وقف الأستاذ – بعد أن كان قد جلس بعد انصراف عبـد الكريم – وراح يتأمل وجه مصافحه..

- من؟.. أنت؟.. (وراح يتذكر)

ازدادات ابتسامة القادم النحيف:

- إمام.. أنا إمام..

ازدادت حرارة المصافحة بينهمـا.. واهتـزت السـواعد والأكف وهي تؤكد عمق الامتنان لهذا اللقاء الذي جاء علـى غير موعد.. سحب الأستاذ كرسيا وطلب منـه أن يتفضـل بالجلوس معنا.. التفت إمام خلفه وأشار للأستاذ مسـتأذنا أن ينهى جلسته مع صديق له على المنضدة " التي هناك " وأشار بعيدا حيث يجلس صديقه..

- طالما سيادتك هنا.. كلها نصف ساعة وأحضر إليك.. أنا سعيد برؤياك يا أستاذ..

وانصرف في أدب.. وراح الأستاذ يرنو إليه في مشـيته الوقورة بشيء من الدهشة والتعجب مرددا:

- ياه.. إمااام؟ (إمام إمام) الإمام.. كم سنة؟.. كم سـنة مرت دون أن أراه؟.. إحنا في سنة كام؟..

كأنه كان يسألني أو يسأل نفسه وهـو ذاهـل.. فأجبتـه سريعا..

- ٢٠٠٣.. نحن في عام ٢٠٠٣..

راح يردد:

- ٢٠٠٣؟.. إذن هي ١٥ سنة.. كنا في عام ١٩٨٨ ثـم التفت إلي وسألني:

- هل سمعته وهو يقول إنه سيحضر إلينا بعـد نصـف ساعة..؟..

- أجل..

- إذن سننتظره.. حتى لو غاب ساعة.. أريد أن أعـرف أين كان؟.. وماذا حدث له؟.. يااااه.. إمام!..

كانت قهوته قد وصلت.. فأشعل سـيجارة.. وراح يرنـو عبر الزجاج إلى الطريق وقد تهيأ لاجترار ذكرى إمام وهو يهز رأسه بأسي.. وقد كان واعيا لما حدث لي من فضـول جعلني أغرق في صمت أتى من حرج ألم بي.. هذا الحـرج أتى من عدم قدرتي على الإفصاح عن رغبتي في التعـرف على قصة إمام.. تلك القصة الناقصة – كما سمعت – والتي لا يعرف الأستاذ نهايتها.. وكأنه راح يعيد على نفسه فصول رواية قرأها فأعجبته.. وعندما انتهى منها آلمته..

إمام هذا لم يتلق إلا قسطًا يسيرا من التعليم.. تعذب فـي طفولته إذ انحدر من ظهر أب مزواج.. أب يحـب السـفر والنساء.. أنجبه وطار إلى اليونان فتزوج وأقام هناك وتركه صبيا صغيرا هو وبعض إخوته مع أم لم تستطيع أن تضبط العلاقة المتردية تاريخيا بين زوج الأم وابنهـا مـن رجـل

آخر.. فألقت به إلى إحدى ورش الميكأنيكا.. فلاقت صـنعة إصلاح المعدات هوى في نفسه.. فظل يتغذى بفنونهـا دون طمع في مال أو حسن معاملة من أصحاب الورش حتى برع في مجاله الواعد وهو يقترب من سـن الشـباب.. التقطتـه شركة كبرى عندما لمست في أنامله الرقيقـة دقـة جـراح القلوب وهو يعالج قلوب المعدات الضـخمة التـي تحركهـا طلمبة أشبه ما تكون بقلب الإنسان في دهـاليزه وحجراتـه وأوردته التي تدفع الدم ويندفع منها الدم.. ولفرط رقته وأدبه وعشقه لعمله وبراعته فيه التقطه أحد الـوكلاء المشـهورين بتسويق وصيانة أوناش ولوادر وبلدوزرات شـركة عالميـة تنتج هذه المعدات.. لم يلتقطه هذا الوكيل ليستفيد به وبخبرته لنفسه ولكن ليهديه إلى صديق انجليزي يدير وكالة مماثلة في جنوب أفريقيا.. وطار إمام المتزوج حـديثًا بزوجتـه إلـى جنوب أفريقيا وهو لا يفقه في اللغات إلا لغته المشهورة فـي مداعبة قلوب المعدات الثقيلة.. وما لبث لفـرط طموحـه أن أتقن الإنجليزية في عامين ليصبح بعد خمسة أعـوام رئيسـا لقسم صيانة الطلمبات وليجد نفسـه رئيسـا أنيقًـا وفاهمـا ومتواضعا لنخبة من الفنيين الذين هم خلـيط مـن الأفارقـة

والإنجليز والذين راح يتمتع بحبهم وإعجابهم.. ثم ما لبث بعد خمسة عشر عاما أن وجد أن حصيلته من المـدخرات فـي البنك تصل إلى المليون دولار.. فيسرع إلى والده في اليونان طالبا المشورة فيما يجب أن يفعله بهذه الحصيلة.. ذلـك أن إماما هذا لم يتخل عن الارتبـاط بأبيـه بالإصـرار علـى مطاردته بالمراسلة من مصر ثم بالزيارة المتكررة لـه فـي اليونان واضعا في اعتباره أنه يجلب لنفسه الدفء والانتمـاء باغتصاب تلك الأبوة الغافية رغم أنف صاحبها..

قال له والده والذهول يخطف حاجبيه إلى أعلى: مليـون دولار؟.. فخطف إمام والده من الذهول وهو يوضح له أنـه كثيرا ما أعطى خبرته لأصحاب المصالح بالمقابل في وقـت راحته وأجازاته في عمليات سريعة يتفق عليها بالمقاولة.. ثم ضرب له مثلاً وهو يبتسم بإعزاز عن شركة تعطل لها ونش عملاق في موقع العمل.. وطالت وقفته عـدة أيـام محققًـا لأصحاب العمل خسارة تصل إلى ألفـي دولار فـي اليـوم الواحد.. طلبوه ووصفوا حالة مريضهم.. وقد لمح صـاحبنا من وصفهم أسباب المرض.. وفهم أنه سيعالجه في وقـت لا يزيد عن الساعة.. فقدر لنفسه أتعابا قـدرها ألفـي دولار..

يستلمها قبل خروجه معهم على ألا يقترب منه أحدهم وهـو يعمل.. وعلى أن يمهلوه يوما كاملاً يتكبدون فيه ضـيافته.. ولم يكن في حاجة إلى اليوم الكامل حيث أنهى مهمتـه فـي ساعتين..

قال لأبيه: عند الخواجات التـزام شـديد بـاحترام التعاقد.. وحرص شديد على كتابته قبل تنفيـذه.. ولعقـودهم أربعة أركان.. وصف نوع العمل.. وقيمة الأتعاب.. ومـدة إنجازه.. والشرط الجزائي فيما لو لم يـتم إنجـازه بـنفس المواصفات خلال المدة المقررة.." وكنت أضع شرطا جزائيا على نفسي يصل إلى عشرة آلاف دولارا واثقًا من خبرتـي وباعثًا في نفوسهم الثقة حول هذه الخبرة.. فـأقبلوا علـى.. وتحركوا نحوى.. لتتحرك زوجتي كل أسبوع إلـى البنـك بحصيلة مدخراتنا التي تزداد دون أن أهتم بمتابعتها..

والآن يا أبي أريد أن أعود إلى مصر.. إلى بلادي.. إلـى أهلي وناسي.. سأعود ثريا.. مليونيرا.. قل لي: ماذا أفعل؟.. أنا لم أجرب هذه الحالة..

حاول أبوه أن يثنيه عن العودة موضـحا لـه أن وطنـه الحقيقي هو المكان الذي به رزقه.. وربما به زوجته.. عـاد

فأصر على موقفه: "وطني الحقيقي هو الموضع الذي تلقى رأسي عند ولادتي.. سأرجع يا أبي.. مصر وحشتني ".. ابتسم والده ساخرا: غدا ستندم.. مصر الآن بلد ترقص على السلم.. مصر لم تجرب ابتلاع حقيقة ستكون في نظرهم مذهلة: أن يكون إمام الميكانيكيي من وجهاء المجتمع ومن أصحاب رءوس الأموال.. إمام هذا كان (الواد بلية) منذ أن شاهدوه يتلقى الصفعات ليفهم الميكأنيكا.. سيفرحون بك في الظاهر.. ويطعنونك في الخفاء.. سينعمون بموائدك الزاخرة باللحم الطيب.. ثم يختمون طعامهم بتذوق لحمك الآدمي نهشًا ونميمة.. صدقني.. المصريون تعلموا من الفقر مثالب مخزية.. وعلّمهم الفقر مشاعر منحطة أقلها الحسد..

قال لأبيه: سأعيش بعيدا عن هؤلاء الذين نشأت أمامهم.. سأظهر لهم زائرا من مسكني الذي سأختاره في الزمالك..

استسلم الأب لجموح ولده الطيب:

- مادمت تصر على العودة.. فعد وجيها.. ومادمت ثريا فلتظهر عليك نعمة الثراء في مكان فقير.. أنت في الزمالك ستكون واحدا من عشرات يركبون المرسيدس.. ولكنك في قرى حلوان وعين شمس والقناطر الخيرية ستكون وجيها

بالمرسيدس والبدلة الفخيمة.. ستحصل على قيمتـك الأدبيـة هناك.. لن يعرفك أحد في الزمالك. عـش بثروتـك وسـط الفقراء.. تمتع بتبجيلهم.. ومتّعهم بحسناتك وابتلـع حسـدهم ونهشهم في لحمك الغائب بفكر الأسوياء.. اعـذرهم وأنـت تلقى مهازلهم.. وكافئهم رغم غيظك منهم..

تهلل وجه إمام وهو يتخيل مسـتقبله الوجيـه ووجاهتـه المقبلة وسط معارفه بعزبة الوالدة بحلوان.. ووافق والده أن يقتني فيلا في حلوان.. ويعمل في مجال النقل بشراء أسطول من خمسة لوارى ذات المقطورة.. يدعمها لـودر للغـرف والتحميل.. ثم ورشة للصيانة تجاور مكتبه وجراج سياراته.. " هذا هو عالمك.. معلم.. ستكون المعلم إمام.. "

لم يكد يمضي عام واحد حتى عرف الناس في حلوان من هو المعلم إمام.. ذلك الوجيه الوقور المتواضع المسـتنير.. فهو جميل في كل شيء ماعدا دقته في التعامل مع السـائقين وحرصه على متابعتهم في تسجيل ساعات العمل الفعليـة.. وبرامج الغسيل والتشحيم وخدمة السيارة دون كلـل لتبـدو لامعة حتى لو كانت في جبال الرمال.. وكان يكرر دائمـا..

أن الخواجات سبقونا وتغلبوا علينا لحرصـهم علـى الأدب والنظافة والالتزام.. ثم يقول:

- ما معنى أن تقود سيارة ثمنها مائة ألف جنيـه وانـت بشبشب وبنطلون حقير..؟ نظافة السائق ووجاهته شيء يجب أن يكون قبل نظافة السيارة.. أما عن حقوقهم ورواتبهم فهـم يحصلون عليها في أصيل كل يوم خميس حول فناجين الشاي بمكتبه آخذين في التوقيع على سراكي العمل التي يدون بهـا بكل دقة ساعاتهم المستحقة وتكون كلمـات الـوداع التـي يسمعونها منه: تمتع بأجازة مع أولادك يوم الجمعة بأقصـى ما تستطيع.. ستعود يوم السبت لتجد فريق الصيانة قد جهـز لك سيارتك على أفضل ما يكون.. أجازة سعيدة..

ويخرجون في أدب وبـداخلهم شـعور عـالٍ بالرضـا والاستحسان ولكن لا مانع أن يعبر أحدهم عـن رأيـه فـي المعلم إمام بحرية شديدة وهو يبتعد عن مكتبه:

- الراجل ده محترم.. بس بِغيظ.. ماشـي علـى نظـام الخواجات.. إحنا يا عم ناس فلاحين.. يعني بالبركة.. مشي حالك.. حاجة تفلق.. إيه أجازة سعيدة.. ومش أجازة سعيدة.. إحنا فين؟..

وقد لا يوافقه بعضهم على رأيه فيقول:

- إحنا كده يا ولاد البلد.. نشتكى من عدم النظام.. ولمـا يجيلنا النظام لغاية عندنا نشتكى منه.. جتْكُم الفقـر.. واحـد بيديك حقك باحترام.. عاوز إيه تاني؟..

وحدث أن جاءه أحد السائقين بحصيلته من إيجار سيارته اليومي منقوصا خمسين جنيها.. سأله عن السبب.. عرف أن أحد الضباط قد حصل عليها في الكمين الرابض على كوبري المرازيق.. سأله مرة أخرى عن السبب هل هي غرامـة؟.. لا.. إذن فما هي؟.. إتاوة؟.. أجل.. "ولماذا الإتـاوة؟.. كـل سياراتي نظامية الترخيص.. ليس من حق هذا المـلازم أن يبتز أصحاب السيارات غير المخالفة.. فليبتـز المخـالفين.. اركب.. تعال معي.. لو لـم أمنـع هـذا الحـال مـن الآن سيركبوننا كالحمير.. هذا الاستعباد لم يحـدث فـي جنـوب أفريقيا.. آخر بلاد ا الموصـومة بالاسـتعمار هـل هـذا معقول؟.. اركب "..

لقد عاد هذا السائق ليحكى للناس عن المعلم إمـام الـذي دخل على الملازم طالبا منه في حدة أن يسلمه الآن وفـورا مبلغ الخمسين جنيها التي ابتزها من هـذا السـائق.. وقـال

السائق عن نفسه إنه كان مرعوبا وهو يرى هذه الواقعة التي تحدث لأول مرة في مصـر.. وظـن أن المـلازم سـيأتي بمسدسه ليطلق منه الرصاص على إمام.. ولكن يبـدو أن " دخْلِةْ " إمام على الضابط بعد أن " فرمل " أمامـه بسـيارته المرسيدس في عصبية جعل الملازم المبتدئ يلجأ للمهادنـة ويسلمه المبلغ في هدوء حتى لا يثير اللغط حول نفسه..

يقول السائق: قبل أن أركب بجوار معلمي.. الذي عاد إلى سيارته منتصرا ناداني الملازم وسـألني: مـن هـو هـذا الأفندي؟.. فأفهمته أنه المعلم إمام صاحب (العجـلْ).. فهـز الضابط رأسه متوعدا وهو يتمتم بكلمات فهمت منها أن هذا الموضوع لن ينتهي على خير..

وجاء الشر بأسرع مما يتوقعه السائق أو إمـام.. قضـية تجريف أرض زراعية.. قضية كبرى لا يستطيع هذا الملازم البسيط أن يدبرها بمفرده.. ولكنه عندما لجأ إلـى أصـحاب (العجلْ) المنافسين ليسألهم عن ذلك " الإمام " أفاضوا في ذمه بسبب عنطزته.. وعندما سألهم المشورة في الانتقـام منـه أفادوه خيرا (بتلبيسه) قضية تجريف.. واترك لنا الأمر " يـا باشا ".. " حنعمل لك شغل يجيب لك ترقية كمان "..

كانت سيارات إمام تسير على الطريق.. فأوقف الضـابط السيارة الأولى التي تحمل ترابا جافا تنفيذًا لعقد وقعه إمام مع إحدى الجهات.. ثم أوقف الثانية فالثالثة حتى الخامسة وحجز السائقين إلى أن أتى اللودر بسائقه فحجزه أيضا.. وطلب من السائقين الست أن يتركوا المفاتيح فـي سـياراتهم ويـذهبوا جميعا لإحضار معلمهم..

نفذوا جميعا طلب الضـابط.. وتحركـوا نحـو معلمهـم ليحضروه.. وبعد انصرافهم بـرز سـتة سـائقين آخـرين ومساعدوهم وراحوا ينثرون العشب الأخضر فوق الأتربـة الجافة المحمولة على السيارات ويضعون بعض هذا العشـب بين مخالب اللودر حتى يثبت للمحقق تلك الجريمة المحبوكة من أن سيارات المعلم إمام تعمل فـي تجريـف الأراضـي الزراعية وبيع الطمي لأصحاب قمائن الطوب الأحمر تعـديا على القانون الطازج الذي يجرم هذه المخالفة ويضعها فـي نطاق قضايا أمن الدولة..

أشار أصحاب " العجل " المنافسون لسائقيهم الجاهزين في السيناريو أن يتحركوا بالسيارات ليضعوها بجريمتهـا أمـام قسم الشرطة..

جاء إمام مسرعا ليجد غريمه الضابط في انتظاره وعلـى فمه ابتسامة التشفي.. وتذكّر فورا وهو في طريقه إلى القسم أن والده كان محقا في تحذيره له من أنه في مصر سـيحاط ببطون لا تشبع وقلوب لا تشفع..

وأحاطته المؤامرة ولم تشفع له عقوده المبرمة مع عملائه في إثبات حقه في نقل الأتربة الجافة بعيـدا عـن الطمـي المجرم قانونًا.. قالوا له إنه توارى في هذه العقـود ليحقـق جريمته.. واحتُجز في السجن على ذمة القضـية.. وخـرج بكفالة.. ولم يفرج عن سياراته التي هي أدوات الجريمـة.. فظلت سنوات رهن الاحتجاز أمام القسم حتى تنتهي القضـية إلى أن صدئت وتآكلت وصارت مكانًا لجاب قطع الغيار لمن يريد..

جاء للأستاذ قبل المحاكمة سائلاً المشورة.. لقد دلوه عليه بعض المعارف فقطع له رحلته من حلوان إلى القناطر ليسلك معه طريقه الجديد.. طريقه المعوج.. الطريق الذي لم يعـد أمامه غيره وهو رشوة القاضي.. قالوا له إن هذا القاضـي معروف للأستاذ.. ولكن الأستاذ يعرف أن صديقه القاضـي هذا لا يقبل الرشوة.. فقام إمام بتعديل هـذا المفهـوم لـدى

الأستاذ وذكر له عدة قضايا تمتعت بالبراءة بعد أن تمتع هذا القاضي برشوته المحددة سلفًا..

يقول الأستاذ:

- جاءني هلعا متبرما مذهولاً مما حـدث ويحـدث لـه وعرض أمامي مطلبه في خجل معلنًا بتضحيته الأخيرة فـي شكل مبلغ يصل إلى خمسين ألف جنيه هي كل ما تبقى معه لينجو بحريته ويسافر عاجلاً إلى جنوب أفريقيا ليبـدأ مـن جديد..

تلقيت مطلبه في حزن وأدب.. حاملاً له العذر في توجهه الشارد مؤكدا له أن هذا القاضي معروف بنزاهتـه ومؤكـدا مرة أخرى أنه يحاول النجاة من مؤامرة عقدها لـه الحقـد والافتراء ليقع في مؤامرة يعقدها له النصـب والاحتيـال.. نصحته بذلك رافضا – بكل أدب – ما جاءني مـن أجلـه.. فذهب عني.. ولم أره إلا الآن..

ويكمل إمام قصته لنا:

- وصفوا لي منزل القاضي الجالس في انتظار مبلغ الرشوة.. قالوا لي ادخل العمارة بملابس عادية حاملاً لفافـة من المشويات كأنك أحد عمال المطاعم التي ترسل بضاعتها

للمنازل.. اسأل عن الشقة رقم كذا ولا تذكر اسم صـاحبها.. سلمه اللفافة على الباب.. بها المشويات والرشوة.. لا تتحدث معه.. استلم منه ثمن المشويات وانصرف فورا..

ذهبت وركبتاي تصطكان في بعضهما البعض.. فتح لـي رجل وقور الباب.. نظر في وجهي بتمعن.. ثم قفل راجعـا ونظر من الشباك إلى أسفل العمارة.. فهمت من قلقـه أنـه يخشى أن يكون واقعا تحت كمين لإمساكه متلبسا بالرشوة.. أخذني الخوف أنا الآخر وأوشـكت علـى القفـول عائـدا بمشوياتي ورشوتي.. لولا أنه جاء ووجهـه يحمـل بعـض العبوس.. همست له: اطمئن يا باشا.. فهمس لي:

- اطمئن انت..

ثم سلمني ثمن المشويات وعدت فرحا.. وكلمته تزغـرد في أذني.. اطمئن انت..

وفي قاعة المحكمة التي تواريت في زحامها عرفت إنني وقعت في عملية نصب واحتيال كما قلـت لـي يـا أسـتاذ فالقاضي الذي على المنصة لم يكن هو الرجل الـذي اسـتلم مني المشويات والرشوة.. تمسكت بهدوئي ظانا أن من قابلني لابد وأن يكون أحد رجال القاضي وليس القاضي نفسه كمـا

تقضي واجبات الحذر.. وتسللت عندما وقـع علـى حكمـا ابتدائيا بالسجن خمس سنوات.. وظللت هاربا حتـى تنعقـد جلسة الاستئناف التي جندت لها كل وباقي إمكانيـاتي حتـى أفلست تماما.. ولكن حصولي على البراءة خفف عنـي كـل المذاقات المريرة التي جربتها كالفقر والقهر والهوان.. لقـد انتهت معاناتي تلك منذ عشر سنوات.. وخرجت زوجتي من حياتي ثم عادت مرتين.. اخترت أن أنتقل من حلوان لأعيش هنا في القناطر الخيرية عاقدا العزم على ذلك، وأنا أشرع في تغيير حياتي فقد أعجبتني هذه المدينة في زيارتي الوحيدة لها عندما جئت في طلبك.. كثيرا ما فكرت في زيارتك ولكنـي عدلت عن ذلك خجلاً من نفسي ومنـك.. فأنـا لـم أعمـل بنصيحتك.. لقد أنجاني القدر من جريمة عقدت العزم علـى ارتكابها وهو أن أقوم بقتل هذا النصاب وشريكه.. وكانت يد الانتقام الإلهي أسرع منى عندما وجدتُه قد نال جزاءه بالقتل من غريم آخر.. أما القاضي المزيف فلم يكن سوى نصـاب في شقة مفروشة هي التي ذهبت إليها.. ونال جزاءه الإلهـي بالسجن في نفس قضية شريكه النصاب.. أما غريمي الضابط الذي بدأ مسيرته العملية مفجوعا فهو الآن بالسـجن يقضـى

عقوبة السجن المؤبد بعد أن ضبطوه يبيع الأسلحة المكهنـة لبعض التجار.. وكانت مصيبته أن التجار كـانوا يبيعونهـا للإرهابيين وشملته القضية التي تفجرت وفجـرت المجتمـع الدولي عام ١٩٩٣ بقتل السياح في الأقصر وجرفته كالقمامة في طوفانها.. لقد زرته في سجنه بعد أن علمت من الصحف بجريمته.. وأخذت له طعاما وشرابا وقلت له لقد كنـت أنـا المظلوم الذي ينام.. وأنت الآن الظالم الذي يجب ألا ينام ولما بكى متأثرا وضعته في أحضاني وبكيت معه..

أخرج الأستاذ منديله ليمسح دمعته التي انحـدرت رغمـا عنه وقال له:

هل تعلم يا إمام أنك أنت النموذج الذي أضعه في خيـالي لشخصية المصري الحقيقي؟.. المصري الفرعوني..

ثم التفت إلى ليذكرني بأحاديثنا السابقة.

- كنا نسأل عن الحضارة.. (إمام إمام).. إمـام الإمـام هو.. الحضارة.. لم يتعلم فن المعاملة في المدارس الحديثة.. ولكنه ورثها وأيدها بقبسٍ من عنده لا يعلم مصدره..لأنها في داخله.. ولد بها.. واستجاب لشعاعها الهادئ يخرج من قلبـه في حب ويصل إلى الناس في دعة.. أما الإبداع فهو ما وجد

نفسه يؤديه في مهنته مستجيبا لقيمة جميلة تدفعه إلـى ذلـك قيمة التفوق.. أما الحرص والادخار فقد مارسه دون أن يعلم قيمة ما يفعله..وأما الأخلاق العالية التي يعامل بها كل الناس حتى خصومه فهذا هو سماد الخصوبة الذي أضافه الإسـلام إلى شجرتنا الفرعونية.. ومن هذه الأخلاق حسن الظن والثقة في الناس حتى النصابين منهم..

واعتدل الأستاذ وهو يواجه إمام الطيب الوسـيم الهـادئ قائلاً:

- في مثل حالتك كان يجب أن تدخل السجن لتكتمل كـل دواعي الدراما المليئة بالغرابة.. لأن مسلسلك وأنت المصري الحقيقي لابد أن ينتهي إلـى السـجن لتؤكـد فكـرة القهـر الموروثة.. القهر الذي جاءنا مع الغزاة ونلناه منهم واحتفظنا به في قلوبنا وخلف أبوابنا.. احتفظنا به حكاما ومحكومين..

ثم أطلق الأسـتاذ حكمتـه الأخيـرة قبـل أن يـنهض للانصراف:

" مصري غير مقهور إذن فهو مصري غير موجود "

* * * *

(٤)

" لا يكفي أن تشاهده من بعيد..اذهب إليه"

ذكرني بإحدى قصصي القصيرة التي كنت أدعو فيها إلى الخروج من بين الجدران الصماء إلى الخلاء الرحيب.. وأن العودة إلى مراتع الصبا والشباب هي الدواء للنفس إذا ضاقت والصدر إذا ازدحم.. أما إذا بحثنا عن هؤلاء الذين شاركونا نمو الملكات والغرائز واقتسموا معنا طعام الذكريات فهذا هو الملاذ للهروب من ضجيج الحياة..

قلت له – وأنا أفهم مغزى إشارته – :

- إنني أجيد الهروب النبيل ولا أطيل الجلوس فوق ركام المال وسرعان ما ألفظ تفاهات الآخرين لأنني أدرك سلفًا أن الحياة قصيرة.. قصيرة إلى الحد الذي لا يجب أن نمعن فـي تقصيرها..

قال لي:

- تبعا ِلما أسمعه منك الآن فللخروج جدواه..

وراح يتأمل جلستنا في الكافتريا ويستعيد ذلك اللقاء الدافئ مع إمام إمام وكيف أعاده إلى منزله وهو ممتلـئ بالشـجن ومتسربل بنوازع الحكمة..

ثم راح يضحك وهو يسرد لي ذلك الهاجس الذي ألح عليه ليلتها.. فقد تمنى لنفسه أن يكون من هؤلاء الذين حبـاهم ا ملكة الكتابة الأدبية وقوة التعبير حتى يسـجل ذلـك الـزخم الهائل من المشاعر التي كانت تركض في داخله ولا يملـك لها تهدئة أو إسكاتًا.. ثم تذكر تلك الحالة المعكوسة فيما بينه وبين توفيق الحكيم الذي تمنى لو كان قد أجاد في شبابه تعلم إحدى الهوايات المسلية كالطاولة أو الشطرنج ليهرب فيها من ملل الكتابة التي – كما قال عن نفسه – لـم يخـرج منهـا بفائدة.. ولم يعد في استطاعته الهروب منها وقد كان أولى به أن يهرب إلى تلك الهوايات التي يجيدها كل معارفه..

وعلت ضحكة أحمد منصور وهو يقول: تفضل.. حتـى توفيق الحكيم كان يبحث عن مهرب من الملـل فـي آخـر حياته.. ونحن الذين تعلمنا أن نهرب إلـى كتبـه لمقاومـة الملل..

كنا نشارك رواد الكافتريا جلستنا الثانية في ذلك النهـار المشمس والذي خرجنا فيه بمقاعدنا على الرصـيف.. كـان النيل يسبح في ملكوته الخالد غافيـا.. وحالمـا.. مـتمهلاً.. يسري في تؤدة.. عابرا البواكي المرصوصة في سلام أسفل القناطر التي يمتد فوقها طريق ناعم يحمل الناس من الشاطئ إلى الجزيرة التي تبدو لنا غاباتها الشجرية الكثيفة عن بعـد كالجنة العذراء..

رحت أحيط المكان بنظرات الإعجاب، رانيا إلى الأفـق البعيد الذي تملؤه خطوط الشطآن المطرزة بالأشجار.. فالتقاء فرعي النيل الشهيرين قد حدث في هذا المكان.. أو قـل إن هذا المكان يسجل بداية تشكيل دلتا النيل.. فمن مقعدي هنـا، أستطيع أن ألمح النقطة التي افترق عندها خليلان كانـا فـي بدء الرحلة متآخيين، يقتسمان مغبة السفر الطويل من هضاب الحبشة وأحراش الزمان.. ومرا على القرى والبلاد في زهوٍ وسموق.. وظلا في تعامد واستقامة تحرسهما جبال الشواطئ حتى أطلا على الخلاء الرحيـب فقـررا الفـراق.. وكـان وداعهما هنا: واحد إلى دمياط.. والآخر إلى رشيد..

ولاحت ابتسامة على شفتي وأنا أُصور بخيالي الشارد نهر النيل هكذا.. مسافرا فردا تحول إلى فردين فجأة وبلا رغبـة منه.. ولكنه ظل على سفره.. أو ظلا على سفرهما.. فسألني أحمد منصور وهو يشعل سيجارته:

- يبدو أن هذا المنظر قد خلب لُبك؟..

- بـل أشـعل خيـالي.. هـل تـدري مـاذا يشـغلني الآن؟..أتساءل عن هذا المكان الذي هنـاك.. تلـك النقطـة البعيدة.. هل هي مكـان التقـاء فرعـي النيـل أم مكـان افتراقهما؟..

ضحك من غرابة السؤال مجيبا عليه بشيء من البداهـة الراقية:

- إن كنت متشائما فهي نقطة الافتراق.. وإن كنت متفائلاً فهي نقطة اللقاء.. هذا يعود إلى نفسك الشاعرة..

- إذن فلا علاقة في ذلك بالجغرافيا؟..

- ولا التاريخ.. إنها نفس قصة نصف الكوب الفـارغ.. ونصفه الآخر.. الممتلئ..

- إذن لا جغرافيا.. ولا تاريخ.. بل هو علم النفس..

- ولعلها الهندسة..

- كيف..؟..

- قل إن هذه النقطة هي نقطة رأس المثلث..

أعجبني هذا الحل.. وهو حل لا يلجأ إليه سوى محـامٍ.. فإن كنت عاجزا عن " تكييف " افتراق الفرعين أو التقائهما.. فدع عنك ذلك وابحث عن " تكييف " آخر.. ابحث عنه فيمـا بين الفرعين.. أي في المثلث نفسه.. هذه النقطة التي نبحـث لها عن تسمية لا تحتاج إلى تسمية.. فهي رأس المثلث..
قلت له متسليا:

- وأين القاعدة..؟.. قاعدة المثلث..

حبكت النكتة لديه فأجابني سريعا: القاعدة في طالبان..
ثم راح يقهقه بعذوبة.. وراح يكمل حوارنا:

- هل تختبرني في الهندسة؟.. المحامي يجب أن يفهم في كل شيء.. القاعدة التي تبحث عنها هي الخط الواصل بـين مدينتي دمياط ورشيد.. وإذا أردت أن أزيدك علما فمسـاحة الدلتا أي مساحة المثلث هي نتيجة ضرب نصف القاعدة في الارتفاع.. وخط الارتفاع الذي يجب أن يكون عموديا علـى نقطة نصف القاعدة هو الخط الواصل تقريبا من بلطيم إلـى

رأس المثلث الذي أمامك الآن.. ويمكنني الآن أن أحسب لك المساحة بالكيلومترات المربعة.. ولكن دعنا من هذا الآن..

ثم تمهل قليلاً وهو يعود بذاكرته إلى الوراء ويعاود إشعال سيجارة جديدة.. وقد بعث فيه الحـوار الضـاحك إشـراق المؤانسة..

- كانت أتعس لحظات عمري وأنا أقلب في كتب التاريخ بحثًا عن " مأساة مصر ".. وعندما وصـلت إلـى الحملـة الفرنسية أذهلني ما قام به علماء هذه الحملة من مجهود فـي رصد وتسجيل البلاد والعباد.. كنت أحس دائمـا أننـا كنـا كالتحف المرصوصة، لا نعلم مِن أو عن أنفسنا شيئـًا، وهم يدورون حولنا بالأوراق والأقلام والكـاميرات والمـوازين، ويبعثون أخبارنا إلى العالم.. مذهولين من خيبة الأحفاد الذين ينحدرون من هؤلاء الأجداد.. كانت مشـكلتهم أن يعلمونـا النظافة والاستحمام ومطاردة البقْ في البيوت والقَمـل فـي الرءوس.. تصور؟؟؟.. بعـد كـل هـذا التـاريخ الطويـل والحضارة الغائبة يأتي من يكتشف حالنا المزري.. علما بأن الإسلام وضع لنا قواعـد النظافـة وبروتوكـول المـآدب والمصافحة والسلام، وحسن الجوار وحب العلم كأحسن مـا

يكون.. وكنت أتساءل عن سر هذه الفجوة التي حدثت فـي مسيرتنا مع الزمن أو مسيرة الـزمن بنـا.. لمـاذا توقـف الاستمرار؟.. ولماذا انقطع التواصل؟.. من الـذي عاجلنـا بضربة فوق رءوسنا فغبنا عن الوعي؟.. هناك جريمة - لم نعلم عنها شيئـًا - حدثت لنا.. أو حدثت فينا.. ما هو تاريخ هذه الجريمة؟.. وهل هو تاريخ واحـد أم تـواريخ كثيـرة ومتجددة؟.. ومن هم المجرمون الذين فروا وتركـوا آثـار جريمتهم فينا؟.. تركوا الأثر الذي بدا في عقـولٍ مغيبـة.. وأجسامٍ مريضة.. وبيوتٍ خاوية.. وهل هؤلاء المجرمـون يعيشون بيننا أم يعيشون فينا أم يعيشون بعيدا عنا.. أم هم كل هؤلاء مجتمعين؟..

بدا لي أنه لن يتوقف عن سرد لواعجـه فـراق لـي أن أُخرجه عن هذا المسار الحارق.. أوقفته بإشارة مؤدبة:

- دعنا من هذا الآن.. والأفضل لنا أن نعود إلى المثلث.. ونصف القاعدة في الارتفاع.. ألا توحي لـك هـذه الفكـرة بشيء ما..؟..

- أي شيء؟..

- أن تبحث عن جماهيرك داخل مثلثك العتيد.. أن تكون ذراعاك كفرعي النيل تحتضنان المثلـث حبـا وكرامـة.. ذراعاك هما الفكر والطموح.. آن الأوان أن تطلق أفكـارك من إسارها.. وأن ترفع الأقفال عن أقفاصك الحديدية التـي تعتقل فيها برامجك ومبادئك وقيمك العالية..

- أنت تشير إلى مشروعي الفقيد.. أملى الراحل.. حزبي الميت..

- لماذا تسمية ميتـًا؟.. كيف يموت من لم يخلق بعد؟..

- ألا يموت الجنين في بطن أمه؟..

- لقد اتفقنا أن هذا لا يحدث في السياسة..

- السياسة يحدث فيها كل شيء.. إنها لغة التناقض.. هذا بعض ما اكتشفته في كتابي.. أو كشفته في كتابي..

- عندما شرعت في عمل هذا الكتاب هل كنت تصبو إلى محاربة اليأس أم تصل به وبنا إلى الإحساس باليأس؟..

- لا أحد يتمنى مقابلة اليأس حتى على طبلية الإعـدام.. ولكنك لا تملك لنفسك شيئـًا وأنت تراه يطاردك فـي كـل مكان.. كنت أتمنى أن تسألني عن عدد المرات التي ضحكت فيها بهذه الكيفية التي رأيتني عليها اليوم.. لقد تـذكرت الآن

أنني لم أضحك منذ زمن طويل.. وسألت نفسي عن السبب.. لم أجد سببا.. بل لقد اكتشفت شيئـًا خطيرا وأنت تشير لـي على رأس المثلث.. هذا المكان كنت أحبه في شبابي.. ولكني هجرت زيارته منذ أكثر من عشرين عاما.. أنا لا أكاد ألتفت إلى وجوده.. ربما لم أعبر كوبري القنـاطر إلـى الضـفة الأخرى إلا مرات معدودة في هذه المدة.. مازال لي صـديق فنان يعيش هناك.. يئس من أن أرد له زياراته المتكـررة.. كنت قد انشغلت بمراجعي وكتابي.. فـآثر هـو الآخـر أن ينشغل بفنه ولوحاته.. تحولتْ لقاءاتنا التي تـأتي مصـادفة في المدينة إلى نوع من اللوم المتكرر، والعتـاب المحـرج، حتى صرنا نهرب من بعضنا البعض مللاً من تكرار اللـوم والعتاب، الذي أصبح وجبة ثقيلة الدم نتناولها رغما عنا..

الآن فقط تذكرت ذلك.. والآن فقـط تمنيـت أن أعبـر كوبري القناطر إلى هناك.. إنها قصتك " الخروج " آن لـي أن أعيشها بطريقتي.. يجب أن أذهب وليتك تذهب معي إلى رأس المثلث لنزور هذا الفنان..

ضاحكته وقد داخلني سرور طاغٍ وأنا أراه يتسلل تدريجيا إلى البقعة العذراء التي ترتاح فيها نفوسنا من عناء السفر:

- سأذهب معك إلى هذا الفنان الـذي يعـيش فـي رأس المثلث.. وستذهب معي إلى كل الجماهير الذين يعيشون بين أضلاع المثلث..

- أي جماهير؟..

- جماهير حزبك..

- أأنت جاد في حديثك؟..

- أكثر مما تتصور..

- أفي ظنك أنني بعد هذا العمر وبعد إصابتي بكل هـذا الإرهاق لدي القدرة على إنشاء حزب..؟.. يا سـيدي.. أنـا عندما فكرت في ذلك وتمنيته كنت أمتلك الصـحة اللازمـة والمال المطلوب.. والآن: لا صحة.. ولا مال..

- ولكنك تملك ما هو أهم منهما؟.. الفكر.. والطموح..

- إنها البضاعة الخاسرة في هذا الزمن الرديء..

- لا.. إنهما الأمل الباقي للخـروج مـن هـذا الـزمن الرديء..

- أنت تفلسف الأمور..

- وأنت تنأى بنفسك عن أفضل الأمور..

- أنت مثقف رومانسي.. مثقف حالم..

- وأنت سياسي لا تحلم.. سياسي يتخلـى عـن حاسـة المشاكسة..

- لا توجد أحلام.. لم يتبق لنا سوى الكوابيس.

- أحلام الليل ما هي إلا ترديد لآمال النهـار.. فلتهيـئ شاشتك لاستقبال الإرسال القادم..

- شاشتي لن تستقبل شيئـًا فقد انقطـع التيـار ونفـدت الطاقة..

ثم نهض متثاقلاً وهو يدهس سيجارته الأخيرة ببوز نعـل حذائه.. وقبل أن يتهيأ للانصراف زفر من صـدره زفـرة حارة.. وواجهني بوجه لا يخلو من حزن ألم به بعد حوارنا الأخير.. وقال لي:

- بدأنا جلستنا بالمرح.. وأنهيناها بالمشاكسة أهذا ما يفعله الأدباء دائما؟..

- ويفعله الساسة... أيضا..

- إذن فطعمنا واحد..

- وطعامنا واحد..

- صحيح.. فأنت لا تعـدو أن تكـون أديبـا يتعـاطى السياسة.. وأنا سياسي يحب الأدب.. عموما.. ما رأيك فـي زيارة لصديقي القديم.. القديم جدا.. الفنـان الـذي حـدثتك عنك..

- طبعا.. هذه زيارة لا تفوتني.. وقيمتها بالنسبة لي هـي إنني سأؤرخ بهذه الزيارة - وأشاهد بهـا - عبـورك إلـى الجانب الآخر.. من المهم يا أستاذ أن نعبـر إلـى الشـاطئ الآخر.. لا يكفي أن تشاهده من بعيد.. اذهب إليه..

* * * *

(٥)

" المثقف الذي يتخلى عن عقله لينجو بطعامه "

كان فارع الطول، ورشيقـًا.. ذا وجه أبيض ضارب إلى الحمرة خصلات شعره الأبيض – إلا من بعض السـواد - تتمازج على جبهته.. قابلنا وهو يرتدي – في هـذا البـرد– الشورت القصير الذي يعلوه قميص من القمـاش السـميك.. ساقاه النحيفتان ذَاتَا العضلات القوية المشدودة تشـيان بـأن صاحبهما يمارس الركض.. راح يخبط علـى ركبتيـه فـي مرح.. ثم راح يردد وهو يخترق بنا حديقة منزله الصغير..

- ظهورك المفاجئ هذا معجزة يا ابن منصور.. يبدو لي أن الموتى – هم الآخرون – سينهضون من المقابر..

قال له أحمد منصور بوقار بدا من صوته العميق المتحشرج وهو يشير إلى وعلى فمه ابتسامة..

- صديقي الذي معي هذا أديب وشاعر.. آخر ما قاله لي هو أن الحياة أقصر من أن نقصرها.. تـ ذكرتك.. فـ العمر يقترب من نهايته.. فقررت زيارتك..

كنا قد وصلنا إلى الشرفة الواسعة المطلة على الحديقـة، وبدأ يقدم لنا المقاعد الخفيفة المصنوعة من الخيزران لنجلس عليها.. ثم راح يواصل مداعباته..

-.. وطبعا قلت لنفسك يجب أن أرى مفتاح الصاوي مرة واحدة على الأقل في نهاية الدنيا، حتى لا يمارس لومه الممل لي في بداية الآخرة.. إذا قابلني هناك..

- وهل تظن أننا سنلتقي صدفة في الآخرة كما كنا نلتقـي صدفة في سوق المدينة كل عدة سنوات؟..

أجابه متعمدا أن يحمل صوته طابع الجد:

- هذا يتوقف على شيء واحد..

سأله أحمد منصور باهتمام..

- ما هو؟..

- أن يكون في جنهم سوق نلتقي فيها..

ثم أطلق ضحكته العالية.. صافية الملامح عديمة الهـم.. حتى انتزع ضحكاتنا التي راحت تهز هدوء المكان..

وما إن هدأت موجة الضحك قلـيلاً حتـى سـأله أحمـد منصور مداعبا..

- ولماذا اخترت جهنم مكانًا للقاء؟.. لمـاذا تجبرنـي أن أنتقل إليك.. من الجنة؟..

- الجنة؟.. أتتعشم في الجنة؟.. إنت حر.. اذهـب إلـى الجنة.. فسوف تجوع هناك.. حتى خياراتك في الآخرة غير سليمة مثل خياراتك في الدنيا؟.. لن تجد هناك القضايا التـي تكفيك.. النار يا أستاذ كلها قضايا.. أنسيت أنك محامٍ؟..

وراح يضحك في همجية مناديا - وهو يدلف إلى الداخل - سيدة عرفنا فيما بعد أنها تتولى خدمته في هذا المحـراب الذي اختار أن يعكف فيه متفرغًا لفنه بعـد أن أحيـل إلـى المعاش وتوفت زوجته وانتقل أولاده إلى أعمالهم وبيوتهم في القاهرة..

جاءت السيدة العجوز لتقدم لنا الشاي وعلى فمهـا بقايـا ابتسامات كانت تتمتع بها مما يصلها من مشاغبات سيدها مع ضيوفه الجدد الذين تراهم لأول مرة.. ويبدو أنها قد جبلـت

على طريقة سيدها في إطلاق المداعبات والفكاهات أينما كان وكيفما يكون فكانت ابتسامة تشي برضاها عن ذلك.

ساد بعض الهدوء الذي قطعة مفتاح الصاوي بسؤال لائم – كالعادة – وجهه إلى أحمد منصور..

- شاهدت كتابك – مصر.. الأم – مع أحد أصـدقائي.. وقرأت على غلافه الداخلي إهداء منـك إليـه.. توقعـت أن تصلني نسختي حتى ولو بالبريد.. ولكنك كما يبدو تصر أن تحسرني كقارئ بعد أن حسرتني كفنان لم يعجبه هذا الغلاف التقليدي الذي لا يوحي بمادة الكتاب..

- لك الحق فقد تعجلت في عمل الغلاف.. كانت أنفاسـي قد تقطعت في البحث والتأليف ومراجعة البروفات وأصـبح الغلاف رغم أهميته نوعا من الوجاهة التي لم أعتن بها..

- كيف يفوتك هذا..؟.. حتى العامـة أنفسـهم يـرددون الحكمة الشهيرة: الخطاب يعرف مـن عنوانـه.. وبالتـالي فالكتاب يعرف من عنوانه.. أي غلافه.. عموما لقـد فـات أوان ذلك..

ثم التفت؟.. إلي موجها سؤاله لي:

- هل قرأت هذا الكتاب؟..

سارعت فأجبته:

- أجل قرأته.. من الغلاف إلى الغلاف..

أكمل حديثه معي: سأسألك أنت عن محتواه.. أو باختصار ما الذي يريده مولانا من قولٍ في كتابه.. أو بالعربي هل قال شيئـًا يستأهل مني التفرغ شهرا كاملاً للانتهاء مـن قـراءة كتاب بهذا الحجم؟..

- بالطبع يستأهل ذلك.. فأنت سوف تستمتع باصـطحاب فتاة جميلة اسمها مصر وتسير معها في كل دروب التاريخ، وتتعرف على كـل معـذبيها ومحبيهـا.. كـل حاضـنيها ومغتصبيها.. وستبثك شكواها.. وستبثك حكمتها.. وسـوف ترى العجب العجاب عندما ترى أن مصر كانت سيدا يحكمه العبيد.. أو ترى واحدا لا يملك إلا طعم البلاهة يجلس علـى كرسي العرش ويحكمنا.. باختصار ستتعرف على كل ترس من تروس الطاحونة الفولاذية الجبارة التي طحنـت عظـم مصر.. العظم الذي راح يتحول إلى تـراب ثـم عجينـة.. وعندما يريدون إعادة تشكيل عجينتهم الجديدة لتخليق شـكل جديد لشعب جديد يأخذهم الذهول عندما تظهر لهم نفس الفتاة وقد تشكلت على نفس هيئتها " مصر ".. فـي كـل مـرة..

ولكنها متسربلة بالقهر والدموع متسائلة: ماذا فعلـتم بـي؟.. اتركوني.. لن تتمكنوا من تحويلي إلى شيء آخر..

راح مفتاح الصاوي يتأمل تلخيصي الأدبي لهذا الكتـاب السياسي ثم هتف:

- ا .. إنها لوحة رائعة.. فتاة جميلة تبـرز مـن بـين أنقاض القهر والعذاب.. وجهها جميل وملابسها ممزقة.. هل من الممكن أن يوحي لي كتاب سياسي بمثل هذه اللوحـة؟.. لقد تكونت هذه اللوحة الآن في خيالي.. من المؤكـد أننـي سأبدأ في رسمها الليلة.. أشكرك.. طالما شكوت من نضوب بئر الإيحاء وافتقادي لطائر الإلهام.. مـا أتعـس المبـدعين عندما يفتقدون رعشة الحافز ووهج الإثارة!.. لعلـك تحـس بذلك مثلي؟..

عاجله أحمد منصور بوعد:

- سأبحث لك عن نسخة.. لقد نَفَدتْ كل حصـيلتي مـن النُسخ التي خصصها لي الناشر.. هيا بنا إلى مرسمك.. أرنا إبداعاتك.. منذ زمن لم أستمتع بأعمالك..

دلف بنا إلى الداخل وهو ينادى على الشغالة أن تلحق بنا في المرسم ومعها فناجين القهوة.. وعلى باب المرسم لم نجد

سوى الابتسام المرح، ونحن نقرأ اسمه المكتوب على الباب، فقد رسم مفتاحا قبل كلمة الصاوي.. لاحظ علينا هذا الابتسام التعليق فهتف:

- أنا الوحيد الذي يرسم اسمه ويكتبه..

قال له أحمد منصور:

- لا لست الوحيد في ذلك فقد سبقك إليه واحـد أعرفـه اسمه هجرس الفار.. فكتب كلمة هجرس ورسم بعدها فـأرا على بطاقاته..

رحنا نضحك في الوقت الذي هلت علينا لوحاته المعلقـة على الحوائط والمسندة على الجدران والمعلقة على حوامـل الرسم.. فذابت الضحكات وحل محلهـا صـمت الانبهـار والتأمل.. أحسست فجأة إنني تحولت إلى شعاع هـادئ راح يجوس في أعماق وجدان وروح هذا الرجل الذي جذب مـن داخله قبضات إبداعية من فيض الوجدان، وسجله رسما كما يسجل الشاعر فيوضاته شعرا، ويسجلها الموسيقي أنغاما..

لاحظت أن الحصان يتمركز حادا وقويا وناعما وأنسيابيا في معظم تكوينات لوحاته.. تراه هنا جامحا يقف على ساقيه الخلفيتين ويطير بكل جذعه وساقيه الأماميتين فـي الهـواء،

طارحا رأسه الزاعق إلى الخلف بملامح أبرزتها العضـلات التي نجح الفنان في تشريحها مملوءة بالغضب.. واللقطة كان منظورها من عند رأس الحصان الذي بدا ضخما ممتلئـًا ثم راحت هذه الضخامة وذلك الامتلاء تخف حدتهما، ليتحـولا إلى انسيابية ورشاقة وخفوت عند التقاء حافريـه بـالأرض، حتى لقد بدا السائس - الذي يمسك بطـرف اللجـام وبيـده كرباج صغير - ضئيلاً وبعيدا ورماديا.. إن السائس يبدو أنه هكذا كما يبدو في عين الحصان من نظرته العلوية إليه..

وها هو حصان آخر يقفز قفـزة خرافيـة امتـد طرفـاه الأماميان فيها حتى أصبحا أفقيين لفرط اتساع القفزة.. إنـه يطير في الهواء بين شاطئين.. مودعا الشاطئ الذي قفز منه بكل ما فيه من جنات تجرى من تحتهـا الأنهـار، مسـتقبلاً الشاطئ الذي قفز إليه بكل ما بدا فيه مـن دمـار وحرائـق وخراب واضح.. لا شك أن الفنان هنا يسجل حكمـة مـا أو إيحاء ما.. وهو يفعمك بالحيرة عندما يضع ابتسامة واضحة تشكلت في ملامح هذا الحصان الذي يخطو إلى الفناء بكـل الرضا..

وهذا حصان ثالث: جميل له وجه شاب وسيم وله جسـم أبيض شفاف اقترنت شفافيته بنعومة الرداء الـوردي الـذي ترتديه تلك الحورية التي تنام علـى ظهـره فـي سـكينة، وتغوص بأصابعها في خصلات الشعر الناعمة التي تتمـاوج مع الهواء فوق رقبته المستسلمة لغفوة الحوريـة الحالمـة.. التعبير واضح وناعم وجميل..

لقد وقف أحمد منصور متسـمرا أمـام لوحـة امـتلأت مساحتها بكفين عملاقين تغترفان قبضة رمال هائلة، لتلقـي بها في حفرة سحيقة، إلا أن الرمال التي تسيل فـي الحفـرة بدت في مكوناتها قطع من الأحجـار والحصـى مختلطـة بالأهرامات الثلاث وأبي الهول ورأس تـوت عـنخ آمـون وتمثال رمسيس الثاني، وكلها في حالة تصدع وتفكك.. خلفية اللوحة قاتمة تاهت فيها كُتلتا الذراعين اللذين بـرز منهمـا الكفان.. كأنما - هذان الكفان - قد برزا من حجب الغيـب فسأله أحمد منصور:

- أهناك ما يخيفك من انهيار قادم؟..

قال له مفتاح الصاوي:

- الانهيار يسبقه إنذار وعلامات تنبئ بقدومه.. ولكنـي هنا أتحدث عن تدمير.. عن خراب..

عاد فسأله أحمد منصور:

- وماذا عن هذين الساعدين المدمرين؟..

أجابه الصاوي:

- لعلهما الغباء والجهل.. ولعلك تملك وصـفًا آخـر أو تسمية أخرى لهما.. يعني لو وضعت لي أسماء أشخاص فلن ألومك.. أنت حر.. هذا فن استقبله بوجدانك ولا تطلب منـى تفسيره..

تمتم أحمد منصور:

- إنها فكرة مقبضة.

لاحقته:

- أو نبوءة مقبضة..

ثم رحنا نطوف بهذا الكم الهائل من اللوحات التي سمحت مساحات الجدران بعرض الجزء اليسير منها.. أما رصـيده الثرى من الإنتاج فهو مرصوص في الأركان فراح يجذب لنا من لوحاته اللوحة تلو الأخرى موضحا بتعليقات خفيفة بعض

ما يريد توضيحه في عجلة حتى يمتعنا بأكبر قدر من هـذا العطاء..

قلت له: لماذا الحصان؟..

قال لي: إنه مخلوق قوى وجميل ومشاكس يجب أن تقدر قوته وجماله.. وأنـا أحـب القـوة والجمـال والمشاكسـة الرافضة.. إنني أعشق العناد في مواجهة التفاهة وأرفض أن يقوم الأغبياء بترويضي..

قال له أحمد منصور:

- كانت مشاكلك لا تنتهي مع رؤسائك في هيئة الفنون.. كنت تبدو دائما كأنك مضطهد.. والحقيقة أنك كنت مستفزا..

ابتسم مفتاح الصاوي: لقد حمـدوا ا   أن أدركنـي سـن المعاش وخلّصهم منى.. وكان سرورهم بمفارقتي واضـحا عندما تمكّن منهم السهو والنسيان في إقامة حفل وداع لـي، ولذا فقد كانت أول مهمة قمت بها أثناء عودتي من القـاهرة بأوراقي ومعلقاتي هي المرور على السنترال لطلـب تغييـر رقم تليفوني.. لعلى أعفيت نفسي من سماع كلمات النفاق قبل أن أعفيهم من اللجوء إلى ذلك.

قال له أحمد منصور:

- لقد كان الخاسر هو الجمهور.. محبو الفـن.. وفنـك بالذات.. لقد حجبوك عنهم..

أيده مفتاح الصاوي:

- أجل.. حتى لقد كتب أحدهم أن لوحاتي مـا هـي إلا مقالات سياسية محرضة حتى يقطع على الطريق.. ووجدوا ضالتهم في أقلامٍ مأجورة، رسـخت هـذا المفهـوم لـدى المسئولين الذين يرتعدون خوفًا من فقـد مناصـبهم فكـانوا يشطبون اسمي من المعارض في الداخل والخارج.. ودفعوا إلى الأمام بأسماء متواضعة الفكر والخبرة وسـريعة الفهـم لاستغلال المناخ وراحوا يقدمون أعمالاً ليست نابعـة مـن قلوبهم ولا تتميـز إلا بإمكانيـة تمتعهـا برضـا منظمـي المعارض.. فمدرسة الألوان العشوائية التي تتعانق في هذيان وتسري في تخريف، ولا تحمل معنـى أو موضـوعا هـي المدرسة المسيطرة لأنها مدرسة الوزير..

قالت له:

- أخشى أن يكون الفن التشكيلي قد وقع هو الآخر فـي ورطة التقليد الأعمى.. فشباب الشعراء تورطـوا فـي أول عهدهم بالشعر في تقليد ما أتت به موجة الحداثة القادمة من

الغرب، قبل أن يمروا على خيام العرب القدامى ويجلسوا في حضرة المتنبي والبحتري وأبي تمام أو يجلسوا على مناضد الأساتذة النبهاء شوقي وحافظ والجواهري..

قال لي:

- وهل ما يكتبونه له علاقة بالشعر..؟

قلت له:

- ولا بالشعور..

قال لي:

- إذن فمصيرهم هم وشعرهم إلى النسيان..

وقال أحمد منصور:

- ومصير دواوينهم إلى باعة اللب والترمس، يغلفون في أوراقها بضاعتهم..

فنبهه مفتاح الصاوي:

- وحتى هؤلاء عزفوا عن استخدام الورق منذ أن تعرفوا على الأكياس البلاستيكية..

قلت لهما متسائلاً:

- إذا كان البلاستيك هو الاختراع الرائع المواكب لسرعة الحياة.. فهل الفن الحداثي هو الاختراع المماثل في وظيفتـه لمواكبة سرعة الحياة أيضا؟..

قال مفتاح الصاوي:

- أعتقد أنك أصبت الهدف فمع ما نحمله للبلاستك مـن امتنان لأنه خفف عنا حمل المـاء والـدواء والمشـروبات السريعة وأبهج رحلاتنا الخاطفة بحمل الكراسي والمناضـد المنطوية بلا عناء، إلا أننا مازلنا نرنو إلى البللور والرخـام والأخشاب الثرية بروح التقديس لأنها تذكرنا بالأصالة وإرث الجدود.. ولو كان الفن مجرد تسلية عـابرة لحملنـا للفـن البلاستيكى نفس الامتنان الذي نحمله لمادة البلاستيك.. ولكن الفن ليس هو اللهو والتسلية ومحاولة ملء فراغ الوقت.. الفن الذي أعرفه لا يمت للبلاستيك بصلة..

قال أحمد منصور:

- إذن فما أعانيه في السياسة تعانيانه أنتمـا فـي الأدب والشعر والفن التشكيلي.. وأستطيع التمسـح الآن فـي هـذا التشبيه العصري الذي تطرقتما إليـه وأؤكـد أن الأحـزاب

الحالية تجلس على مقاعـد بلاسـتيكية كمقاعـد الـرحلات العابرة.. مقاعد من السهل أن تُكسر ويلقى بها من الشباك..

قال مفتاح الصاوي:

- وما العيب في ذلك؟.. فهي تُلقى من المكان الذي دخلت منه.. كلهم دخلوا من الشبابيك خلسة، لأنهم لم يجـدوا بابـا شرعيا يدخلون منه.. وليس لهم سوى الخروج مـن نفـس الشبابيك..

قلت له:

- وبابك الشرعي المقصود طبعا هو باب الجماهير..

قال أحمد منصور:

- طبعا.. إن الجماهير هي الباب الملكي الـذي تسـلكه الأحزاب المحترمة في الدول المحترمة التي تتبـوأ كراسـي أحزابها..

قلت لأحمد منصور:

- يبدو أنك قد وجدت ضالتك في حديثنا معك..

سألني مفتاح الصاوي:

- ماذا تقصد؟..

قلت له:

- لعلك لا تعرف أن صديقك القديم.. أو صديقك العائـد بعد غياب كان يحلم بإقامة حزب.. ولكنه وتبعا لما قلناه الآن آثر أن يجلس أمام الباب ولم يشأ أن يقفز مثل الآخرين مـن الشباك..

هتف الصاوي:

- أنا أُؤيده.. وإلا فيمكنك أن تطالبني بإلقاء لوحاتي هـذه في النهر وعمل لوحات جديدة تتماشى مع فن الوزير لوحات أبثها هذيان اللون وطرطشة الصبغات بفرشة الجير أو وجـه المقشة..

قال له أحمد منصور:

- وأنت الآخر قد أصبت الهدف يا مفتاح.. إننا الآن نحاط بقداسة الفكر في رحاب مرسمك الواعي الذي تحمل لوحاتـه هدفًا وغاية.. ولكنك منطوٍ على ذاتك وتمارس فنك بنفسـك ولنفسك فقط.. أنا الوحيد الذي يمكنه قراءة لـواعج العـذاب الذي يزورك عندما تخلو إلى نفسك وتتساءل: وماذا بعـد؟.. أو: ثم ماذا؟.. أو.. إلى أين يا مفتاح؟..
اعترف له مفتاح:

- صحيح.. ما تقوله صحيح.. ولذا فأنا لا أحاول أن أخلو إلى نفسي.. إن مللت الرسم، فأنا أهرب إلى الـركض فـي ربوع تلك الجنة الخضـراء.. النـاس جميعـا يشـاهدونني راكضا.. أسمع منهم عبارات الترحيب، وأنا أركض وأبـثهم إيماءاتي بالتحية وأنا أنطلق..

قلت لهما فجأة:

- أهلاً بكما أيها اليائسان العنيـدان.. أهـلا بالأصـالة الهاربة.. والثراء المذعور.. والفكر الجبان.. با عليكما ألا تريان أنكما وأنتما تحملان لب النصيحة واسم الدواء تخونان أنفسكما والناس وتحجبان النصيحة وتخفيان الدواء وتتجهـان إلى الضياع والمرض..

قال أحمد منصور: لا تحاول أن تستفزني أيهـا الشـاعر الأديب وتدخل بي إلى حارتك المظلمة..

سأل مفتاح الصاوي:

- أي حارة تلك..؟..

أجبته مصححا:

- من قال إن شارع النور هو حارة مظلمة؟.. لا يقـول ذلك إلا كل من يملك نفسا يائسة وروحا مهزومة.. ويسوؤني أن أرى ذلك الآن أمامي: سياسي يائس.. وفنان مهزوم..

قال مفتاح الصاوي محتجا:

- ا .. ا .. ا .. ما هذا يا رجل؟..

ما الذي تقصده بهذا الهجوم؟..

أوضح له أحمد منصور:

- الرجل يطالبني بالخروج إلى الجمـاهير.. ولعلـه راح يطالبك أنت الآخر بذلك..

قلت لهما:

- الجماهير التي تبحث عن حل.. هي الحـل.. فاخرجـا إليها..

سألني مفتاح الصاوي:

- وهل خرجت أنت إلى الجماهير؟..

أجبته:

- أجل.. فأنا أذهب إليها بإنتاجي الـذي أطبعـه علـى نفقتي.. لم ألجأ إلى الدولة لتطبع لي أعمالي.. لم أضع نفسي تحت قيد الرقابة والمراجعة والتلكؤ في انتظـار التأشـيرات

والميزانيات والتدابير السفلية.. لقد استجبت لفكـرة صـديق حصيف وجدني أملك المال ولا أملك تورط السلوك في إنفاق بعضه في مستنقعات الهوى الرخيص مـن نسـاء وخمـر وميسر.. قال لي مادام ا قد أعفاك مـن هـذه المصـائب فاعتبر أن قد أصابتك إحداها واخسر بعض مالك على نشـر أعمالك وكأنها مصيبة لحقت بك.. ويمكنك أن تعزي نفسـك بأنها مصيبة جميلة..

قال أحمد منصور متسائلاً:

- وهل تعتبر الاتصال بالجماهير مصيبة جميلة؟..

أجبته فورا: أجل.. إنها أجمل المصائب.. لابد أن تتسـلح لها بالعزم والمال والصبر على المكاره..

ردد مفتاح الصاوي خلفي كلمتي الأخيرة في تساؤل:

- الصبر على المكاره؟..

لاحقته:

- أجل.. لا تنس أننا أصبحنا شعبا نصفه يكره النصـف الآخر.. أو على الأقل مستعد أو متحفز لكراهيته.. وعنـدما يجتمعون حولك سيقبلون عليك بنفوسهم الجديـدة.. النفـوس التي أمرضها الهوان واليأس والتساؤل الذي غابت إجابتـه: أين نحن؟.. ماذا يحدث لنا؟.. ولماذا نحـن كـذلك؟.. فكـن

مستعدا لترويضهم واجتثاث اليأس من نفوسهم وزرع الأمل في هذه النفوس.. ثم الدخول بهم في مناطق الحب التي نسوها فلعلهم يتعلمون تبادل الحب مرة أخرى.. أليست هذه مهمة صعبة؟..

هز مفتاح الصاوي رأسه مرددا:

- أجل.. الحب الذي نسوه..

وقال أحمد منصور:

- الشرخ الذي نالوه.. شرخ في النفوس يصعب علاجه..

قلت لهما:

- يؤسفني أن أقول إنه قد نالكما هذا الشرخ..

قال لي أحمد منصور:

- وشرخُنا أشد.. ألم نتفق من قبل على أن مشكلة المواطن العادي تنحصر الآن في هم بطنه.. ومشكلة المثقف أصبحت تنحصر في هم بطنه وهم عقله؟..

قلت له: وهذا ما يريدونه:

- أن ينجو الفقير بطعامه وأن يتخلى المثقف عن عقله لينجو هو الآخر بطعامه..

وفجأة توجه مفتاح الصاوي بسؤال إلى صديقه:

- هل نجوت بطعامك يا ابن منصور؟..

أجابه: طالما المحاكم قائمة فأنا ناجٍ بطعامي لا محالة..

فقال مفتاح الصاوي:

- وأنا أصبحت من الناجين.. فمعاشي يكفيني.. وواضـح أن الأستاذ (مشيرا إلى) لديه طوق النجاة مادام يطبع أعمالـه على نفقته الخاصة.. إذن فالشيء البـاقي أن ننجـو فعـلاً بعقولنا..

سأله أحمد منصور:

- يبدو أنك قد انجررت إلى الحارة المظلمة..

هتف مفتاح الصاوي:

- لا وا إنها مشاكسة الخيول الأصيلة التي ستخرج بي إلى الشوارع المضاءة وتركض بي بعيـدا عـن الحـارات المظلمة..

ضحك أحمد منصور وهو يشير إلـى اللوحـة - لوحـة الحصان القافز من النعيم إلى الجحيم:

– عكس ما تقوله في هذه اللوحة..

أيده مفتاح الصاوي:

- أجل.. إنها لوحة يائسة.. زفرتُها من روحي وأنا رهن محبسي المختار.. السجن هو السجن حتى لو كان بإرادتك.. من قال إن جمال حمدان كان سعيدا بغربته داخل الوطن..؟.. ومن قال إن ما أفرزه كان هو العسل المختزن؟.. لا شك أنه كان سيفرز ما هو أفضل لو أتى به عند أعتـاب الجمـاهير ووسط زحامهم..

ثم اتجه إلي بحديثه:

- ما الذي أتى بك يا أستاذ مع هذا الرجل؟.. هل لتتعرف على أو على فني..؟..

حاولت النطق بالإجابة فأشار لي بالتوقف واسـتمر فـي حديثه:

- الواقع أن القدر قد أتى بك لأتعرف منك على نفسـي.. أنا الفنان الذي فاز بهم بطنه.. فنسي هم عقله.. أنـا الفنـان الذي انخرط رغما عنه في موكب الجماهير التي تبحث عن زادها دفعا للجوع وتنسي كرامتها دفعا للهوان فيما لو ساروا بكرامتهم مرفوعي الرءوس على غير مـا يطلبـه الحكـام المصنوعون..

ثم استدار إلى أحمد منصور لائما ومعاتبا:

- لماذا تختفي يا ابن منصور في الحواري المظلمـة؟.. اخرج إلى الشوارع المضاءة.. واعمد إلى تأسـيس حزبـك المأمول.. وا معك.. وأنا معك.. وهـذا الرجـل معنـا.. ولنبحث عن قاعدة تأسيسية نشيدها من الحجـارة الصـلبة.. حجارة قوامها نفوس محاربة قوية نبحث عنهـا فـي كـل طوائف الشعب.. لا تنخدع في المظاهر والشهادات والثراء.. ابحث عن النفوس التي تحمل المبادئ وسوف تجد أغلبهم في ملابس رثة ويحملون بطونًا مليئة بحلم الشبع.. هـؤلاء هـم مادتك المثلى.. واجعل عنوان كتابك يا ابن منصور هو اسم حزبك حزب " مصر.. الأم ".. إن لم تنج بعقلك فـلا فـرق بينك وبين الحمار الذي يموت على قارعة الطريـق شـبعانًا ومتخما بالعلف..

ثم أشار إلى اللوحة.. لوحة الحصان الواقف على سـاقيه الخلفيتين.. عملاقًا يعلو رأس سائسه..

- هذه اللوحة هي رمز حزبك الجديد.. الحصان الأصيل المشاكس..

قال أحمد منصور:

- لابد من المشاكسة؟..

قال مفتاح الصاوي:

- المشاكسة تطرد الملل.. والمراوغة تجـدد الغوايـة.. والحب إذا مات جدده بحب جديـد.. الاستسـلام اغتيـال.. والرضا دون اقتناع انتحار.. والموت على سرير الجبن مذلة يأباها الفوارس.. لقد أنقذت حياتي مع زوجتي من الانهيـار بحلٍ مشاكس.. تزوجت عليها.. تمسكت بحب عابر لاح لـي في عيون فاتنة.. استجبت لهذا الحب، وانسحبت به ومعه إلى طريق الزواج، وأنا أعاني مـن الملـل والـوهم والرتابـة والديمومة، الأخوة الثقلاء الذين كانوا يشـاركونني سـرير الزوجية.. لقد هب على نفير الخطـر.. زوجتـي والأولاد.. عقدوا ضدي حزبا محاربا.. اجتمعوا كلهم ضدي.. تدارسوا الأمر.. أخذهم الصخب.. هزتهم الفاجعة.. طار الملل وضاع الوخم وانهزمت الرتابة وانسحبت الديمومة.. وكنت أسـتمتع بحبي الجديد، وأنا أرنو إليهم من بعيد ضاحكًا وممتنا.. هـذا ما أردتهم عليه.. فريق جميل يتدارس المشكلة وقد كـانوا لا يعرفون من قبل ما هي الدراسة وما هي المشاكل.. راحـت الأم تتذكر حبها الذي ضاع أو يضـيع.. وتتسـاءل: لمـاذا

ضاع؟.. ولماذا يمكن أن يضيع..؟.. وتنتهي من السؤال إلى إجابة.. وتظهر منها الإجابة في شكل قوام كانت قد نسـيت روعته وأغرقته في السمنة فعادت إلى سـابق عهـدها فـي رعاية زرعها الباسق، ووجهها اللامع وذوقها الرفيع، الـذي كان قد انطمر تحت تلال المسئوليات الملحـة.. ولمسـاتها الفنانة التي نسيتها فـي غمـرة ركـام الكتـب المدرسـية وسندوتشات الصباح العاجلة.. لقد قفزتُ مشاكسا من جنـتهم إلى نار أعرفها وأعرف أنها سـتكويني قبـل أن تكـويهم.. وعندما عدت إليهم كنت كالعريس الجديد الذي يطأ جنة الحب لأول مرة..

أشار أحمد منصور إلى لوحة الحصان الذي يقفـز مـن الجنة إلى النار:

- كان يجب أن ترسم اللوحة الأخرى.. الحصان الـذي يعود إلى الجنة..

حبكت النكتة لدى مفتاح الصاوي فقال له مسرعا:

- اقلب اللوحة يا ابن منصور وأنت تراه..

أخَذَنَا الضحك بقدرٍ يتمشى مع حرصنا في البقـاء علـى شاطئ الرزانة.. قـ ـال لـه ابن منصور جادا:

- أنت قد أعادتك المشاكسة إلى جنتك وأسرتك.. ولكـن مشاكستنا ستخادنا في نار السياسة..

قلت له:

- الحلاج يا أستاذ منصور خلـده فكره ولم يخَلـد فكره في النار.. لقد تعذب جسده.. وتطهرت روحه..

أيدني مفتاح الصاوي:

- أجل.. لقد تحيز لعقله ووجدانه وفكره.. ونسي بطنـه التي تصرخ.. ونعله الذي يذوب.. وعباءته التي تتآكل كـل خيوطها..

ثم صمت قليلاً قبل أن يقول:

- لا تتخل عن عقلك لتنجو بطعامك يا ابن منصور..

وعندما وضع أحمد منصور رأسه بـين يديـه وأطـرق طويلاً طَويلاً أيقنت أنه سيعود إلينا بعد قليل بالخير اليقـين.. فجلسنا حوله صامتين نتأمل اللوحات التي تحيطنا مـن كـل جانب حتى قطعت صمتنا الشـغالة العجـوز وهـي تطلـق دعوتها:

- الغَدا جاهز يا بهوات..

فناداه مفتاح الصاوي ضاحكًا:

هيا لكي تنجو بطعامك يا ابن منصور..

ثم تحركنا جميعا نحو المائدة والصمت يلفنـا.. وسـكينة النفس تبعث في قلوبنا الرضا بعد هذا الحوار الشائق، الـذي كشف لنا مناطق من النور كانت مختبئة في نفوسنا، ولا نعلم عنها شيئـًا..

* * * *

(٦)

" البكاء فوق المقاعد الحزينة "

راوية عبد العظيم الطبيبة الحسناء بنت الأربعين عاما التي تخوض حياتها بمفردها – بعد ترملها – بمجدافين من العزم الشديد والألم القاتل لا تمل من اجترار ذكرى أيامها الفائتة..

تقول راوية عن نفسها وهي تبعث لمن حولها من الأحباب ابتسامة مريرة:

لقد كنت أنهل من بئر السعادة بلا وعي، دون أن أدري أن بئر الثرى سيضمني فجأة أنني لن أملك – في يوم ما – سوى تلمس آثار هذه السعادة: تذوقًا في الخيال.. واشتماما من الذاكرة.. وخيالاتٍ تتهادى من الماضي أمام عيني المغرورقتين بالدموع..

ثم تردد بنفس ابتسامتها المريرة:

- مات " رحمي " فانقطعت عني الرحمة..

وعندما تنهال عليها الذكريات الحلوة وتتزاحم على عقلها صورها المشرقة ولقطاتها المختارة، تسارع لتلتقط من هذا

الزخم النبيل أحلى ما فيه من نقاط مضـيئة لتئـوب إليهـا مسترجعة " رحمي " من الماضي بصورته العذبة وصـوته الرزين.. وتعود فتقول لنفسها ولمن حولهـا: إننـي إحـدى حالات العشق التي وضعوها في نطاق الاحتمـالات أو فـي سِيْر الغرائب التي تحدث أحيانًا عندما أحببـت " رحمـي " بأذني قبل أن أراه بعيني..

كنت أستعد للسفر إلى السعودية للعمل كطبيبة في إحـدى القرى بالشمال وكانت تتبع مدينة تبوك.. وكان أخـي الـذي يحمل شهادة في المحاسبة يستعد للسفر معي كمحرم.. وكان الزواج بالنسبة لي قضية مؤجلة بل قضية لم تعد تشغلني بعد أن انتهت قصة حبي مع زميلي في الدراسة إلى فشل ذريع..

لم أكن أعلم أن نصيبي في الحياة مرصود فـي سـبابتي التي كانت تدير أرقام قرص التليفون، وأنـا أطلـب شـركة الطيران..

يبدو أن سبابتي - بوحي من المجهول - أخطـأت أحـد الأرقام عندما أتاني صوته ليرد على سؤالي:

- الخطوط السعودية؟..
- تحت أمِرك..

- لو سمحت عاوزه أحجز مقعدين لمدينة تبوك..
- مقعدين اتنين بس..
- أيوه يا فندم.. أنا وأخويا..
- طيب.. ليه أخوكي بالذات..؟..
- علشان يا فندم هو المحرم معايا..
- يبقى حضرتك مش متجوزة..؟..
- أيوه يا فندم أنا مش متجوزة..
- يا خسارة..
- قصدك إيه؟..
- للأسف حنطبق عليكي التعليمات الجديدة..
- تعليمات؟.. إيه هي التعليمات دي؟..
- لازم يكون المحرم هو الزوج نفسه..
- إزاي الكلام ده؟.. أنا كنت في السفارة من أربع تيام ومسمعتش التعليمات دي..
- التعليمات دي من امبارح..
- ....
- إنتِ رحتي فين؟
- أنا مع حضرتَك.. بس محتارة أعمل إيه..

- حضرتك اسمك إيه؟..
- اسمي راوية عبد العظيم..
- وبتشتغلي إيه؟..
- طبيبة..
- وعندك كام سنة؟..
- سبعة وعشرين..
- يا خسارة..
- فيه إيه تاني؟..
- أنا باكلم نفسي..
- يعني إيه بتكلم نفسك؟..
- باقول لنفسي معقول دكتورة بالحلاوة دي والرقة دي والبراءة دي وعندها سبعة وعشرين سـنة ولغايـة دلوقت متجوزتش..؟..
- ....
- إنت سكتي ليه؟..
- بصراحة يا فندم أنا شايفه إن مش من حقـك تسـأل السؤال ده؟..

- وبصراحة يا راوية أنا شايف إنك لازم تكوني أنصح من كده..
- يعني إيه؟..
- يعني الإنسانة اللي فيها كل الرقة دي والبـراءة دي والأدب ده.. ومؤكد إنها جميلة زي ما أنـا شـايف لازم تكون مسلحة بشوية نصاحة.. وشوية لؤم..
- حضرتك دخلت بي في موضوعات تانيـة ملهـاش علاقة بموضوعي..
- بس لها علاقة بموضوعي أنا..
- موضوعك إنت؟.. إيه يا أستاذ؟..
- أستاذ مين يا راوية..
- راوية؟.. هو انت سيادتك تعرفني؟..
- أنا خلاص عرفتك..
- يظهر أنا طلبت النمرة غلط وجاني واحـد بيتسـلى على..
- ياه.. لسه فاكره؟..
- يبقى كلامي صح.. انت واحد بيتسلى على..
- طيب.. أرجوك متقفليش السكة لغاية ما تسمعيني..

- اتفضل..
- أنا فعلاً في الأول كنت باتسلى عليكِ.. كنت فـاكرك واحدة من اللي بيعاكسوني..
- فيه بنات بياعكسوك؟..
- كتير..
- طيب ليه تاخد وتدي معاهم.. اقفل في وشهم السكة..
- أنا عادة باعمل كده..
- طيب ليه ما عملتش كده النهار ده؟..
- الحقيقة.. وما تزعليش مني؟..
- لأ.. مش حازعل..
- أنا أصلاً قايم من النوم زهقان والـدنيا سـودة فـي وشي..
- يا ساتر يا رب..
- سمعت صوتك: شيء كده ما اعرفهوش شدني قلـت أرسم عليكي..

(خرجت منها ضحكة عذبة قال عنها رحمي بعد ذلك إنها كانت السهم الحقيقي الذي اخترق قلبه.. فقرر التمسـك بهـا

على التليفون حتى يتمكن من الإمساك بهـا فـي أي مكـان هامسا لنفسه: تلك هي فتـأتي..)

- يبقى انتَ شغّال رسم في التليفون على طول.. قاعد طول النهار مفيش وراك حاجة غير الرسـم علـى البنات..
- لو الصورة دى هي اللي انت فهمتيها عنـي يبقـى ظلمتيني..
- واظلمك ليه يا عم.. أنا مالي ومالك؟..
- أيوااه.. كده كويس..
- هو إيه اللي كويس..؟..
- كنت من دقايق بتقوليلي حضرتك وسيادتك ويافنـدم ودلوقت بتقوليلي يا عم..
- قصدك إيه؟..
- قصدي إن احنا خدنا على بعض.. أو انـت بالـذات خدتي عليه..

(انطلقت منها ضحكة أخرى وهي تتأمل صورة رسـمتها في خيالها لصاحب هذا الصوت الهادئ الرزين الممتلئ بالثقة وخفة الدم، وتعجبت لإصرارها علـى المضـي معـه فـي

المحادثة مستبعدة ما جال بخاطرها منذ قليـل مـن إنهـاء المكالمة بأدب..)

- وكلامك ده يدخل بقى ضمن الرسم اللي انت واخـد عليه؟..
- صدقيني.. كلامي ده يدخل ضمن اللحظة اللـي أنـا عايشها معاكى دلوقت..
- صدقني أنت.. أنا شايفه أنـه يـدخل ضـمن اللـي بيسموه: الرسم على تقيل..

(هذه المرة هو الذي أطلق ضحكته العذبة.. والتي قالـت هي عنها بعد ذلك إنها كانت السهم الحقيقي الـذي اختـرق قلبها.. فصفقت لنفسها إذ ظلت في استجابتها لمكنون قلبها في أن تحتفظ به على الطرف الآخر من الخط واهبة له: أذنهـا تسمع.. وقلبها يخفق..)

- لو انتي شايفه إنه رسم على تقيل جايز يكون كلامـك صح.. لأني فعلاً عمري ما جربته.. بس اللي أنا حاسس بيه دلوقت إني مش عاوز أنزل السماعة.. وده لا هو رسـم ولا حاجة.. دا إحساس أنا حاسس بيه.. وسعيد بيه.. لأنـي أول مره أحس بيه..

(ثم صمت لحظات طويلة.. التزمت فيها هـي الأخـرى صمتًا مماثلاً.. دون أن يدري أحدهما ما الذي يمكن أن يقوله للآخر.. إلى أن قطعه هو بقولٍ مداعب..):

- زمانك دلوقت بتقولي في سرك دا بيرسم علـى تقيـل قوى..

(وهنا انطلقا معا في ضحكة مشتركة.. لأنه في عبارتـه الأخيرة ضغط بحدة وبخفة دم عالية على كلمـة ".... تقيـل قوي.. " بالشكل الذي جاءت به كوميدية الأداء تحمـل فـي نبرتها روح أولاد البلد.) وبعد أن انتهت الضحكات فاجأتـه راوية بسؤال:

- إنت بتشتغل إيه؟..

قال لها بهدوء وأدب ونبرة جادة بهـا رجـاء وتصـميم وعذوبة:

- أنا دكتور زيك.. واسمي " رحمي ".. ومستعد أعترف لك بكل بيانات بطاقتي الشخصية وقدام سيادتك وجها لوجه..

قالت له بعذوبة مماثلة:

- إنت متأكد إنها بطاقة شخصية؟..

فهم مغزى سؤالها:

- وا شخصية.. مش عائلية..

لاحقته وهي تضحك:

- من غير ما تحلف مصدقاك.. وأنا مستعدة أسمع منـك باقي البيانات في المكان والزمان اللي انت تحدده..

رقص قلبه فرحا وهو يسمع موافقتهـا علـى الاسـتعداد لمقابلته.. وازداد رقصا وبهجة عندما شاهدها تقبـل عليـه بمواصفات الملابس وحقيبة اليد التي حددتها له، ولم يصـدق نفسه وهو يرى هذا الملاك الذي شاهده بقلبه قبل أن يـراه.. والذي دلته عليه مسامعه.. ثم رسمته في الخيال خـواطره.. وها هي العيون بعد اللقاء تُمهر وثيقة الحب بأحلى توقيع..

تقول الطبيبة راوية عبد العظيم إنها عاشت أجمل وأسرع وأعذب قصة حب.. وبعدها بعامٍ واحد عاشت أجمل وأعمق قصة زواج.. ولقد كان هذا الحب العظيم وذلك الزواج النادر ثمرة خبطة عشوائية من سبابتي القدرية أتت لي من الغيـب برجل كان من الممكن ألا يكون جالسا في انتظار هذا الخطأ ولكنه كان في انتظاري لأنه لم يكن من الممكن أن يتـزوج امرأة أخرى.. كان لابد أن يتزوجني أنا.. تلك هي الحقيقـة

التي أمسكتها بيدي خلال حياتي معه.. الحقيقة التي لا تكتمل إلا بإقراري أنا الأخرى إنني – بعد زواجي منه – لم أتخيل رجلاً آخر كان يمكنني الموافقة على الزواج منـه سـوى " رحمي "..

لقد اندفعتُ نحوه بجسارة وشغف أبديت فيهما اسـتعدادي الفوري على إعادة صياغة أوراق سفري ليحل هو محل أخي " عمرو " ويكون الرجل المحرم المرافق لـي فـي السـفر بصفته زوجي.. ولكنه بكل دماثته وطيبته أمهلني ولجأ إلـى صوت العقل وهو آخذ في تهدئة صوت عاطفتي وشجعني أن أستمر في خطتي المرسومة حتى يتمكن هو من رسم خطتـه الخاصة التي يرتب فيها التزاماته ومتعلقاته بالشكل الملائـم لتسوية أموره مع زملائه الأطباء الذين يديرون معه عيادتهم الشاملة في حلمية الزيتون..

قال لي: فليأخذ " عمرو " فرصته فـي السـفر معـك.. وليثبت أقدامه هناك في عمله.. حتى إذا حللت محلـه فـي شرعية إقامتك لا أكون سببا في إزاحته..

وكان هذا العام الذي سافرتُه بعيدا عنه من أطول الأعوام في عمري رغم ما شغلت نفسي فيه من ترتيب أنيق للمنـزل

الذي سيعيش معي فيه.. كنت أجهزه بنفسي في صبر ودأبٍ شديدين معلنة أمام " عمرو " كل المشاعر الطيبة التي أحسها تجاه " رحمي "..

عشر سنوات هي أحلى سنوات عمري عشتُها معه هناك.. هو مدير عيادته الخاصة.. وأنا أساعده بها ليلاً بعد الانتهـاء من عملي الحكومي في الصباح.. أحببنا كـل السـعوديين.. وأحبنا كل السعوديين.. وزاد حبهم لـي عنـدما احتضـنت أطفالهم في عيادة " رحمي " كأنهم أطفالي بعد أن حرمني ا من نعمة الإنجاب.. وأصبحت – ويا لسخرية القدر – السيدة الوحيدة التي لا يتعشم رحمي في النهوض من سـريره ذات ليلة ليسارع بتوليدها كما يفعل مع الأخريـات مـن نسـاء الوافدين على السعودية (فالمواطن السعودي لم يكن قد تخلى عن تمسكه بعدم توليد زوجته على يد طبيب رجل)..

كنت أبحث عن أي مرارة في حلقه.. أو تقطيبة أسى على جبينه.. كأن يكون ساخطًا على حظه في الحياة لأنـه هـو المحروم من الولد رغم جذبه لعشرات الأولاد القادمين إلـى الحياة.. ولم أجد شيئـًا من ذلك سوى أنه كان يربت علـى قلبي.. ويقويني.. ويؤكد لي أن فرصتي قائمة حتى في سـن

الخمسين.. ويسعى معي في أجازاتنا لكل الأطباء المشهورين رغم ثقته غير المعلنة بأن حالتي ميئوس منها.. كـان رغـم فقده للأمل يحاول أن يجعلني متعلقة بالأمل.. وكنت ألمح نبل ما يفعله وأعرف أنه يحاول أن يملأ وقتي بكل ما يمكـن أن يبعث فيها الأمل الغائب.. أو الأمل المفقود.. أو الأمل غيـر المأمول..

كان يجب أن أكون أنا الطرف الباكي فيما لو طُرح أمامنا خيار الانفصال.. فأنا صاحبة القضية الخاسرة لأني صـاحبة الأرض البور التي لا تثمر.. ولكنه هو الـذي بكـى علـى صدري كالطفل الصغير عندما أطلقت أمامه في لحظة هـم وتشاؤم رغبتي في الانفصال.. ورغم ما أحطت به رغبتـي تلك المعلنة من توضيح ومبرر لمقصدي إلا أنه طرح ذلـك جانبا وراح يلومني على تلك القسوة التي أضع بها سـعادته في كفة وحرصي أن ينجب لنفسه ولدا من سيدة أخرى فـي الكفة الأخرى.. فما هو بحاجة إلى ولد ليجاب له السـعادة.. فيكفيه ما هو ناعم فيها من سعادة معي.. صحيح أن السعادة بالأولاد لها طعم آخر.. ولكن طعم سعادته معي بهـا مـن

الحلاوة ما يطغى على أي طعم آخر لأي سـعادة أخـرى.. (هكذا قال لي وهو يجفف دموعه ويتلقى قبلاتي)..

كان قد حدد - منذ اليوم الأول لوجودي معه بالسعودية – حدود ذمتي المالية.. قال لي: إنه إنمـا حضـر إلـى هنـا لمرافقتي وليس لكسب المال.. فقد كان دخله الميسـور فـي مصر ينبئ عن استحالة التفكير في مغادرة البلاد بحثًا عـن دخل أفضل.. ولذا فقد كانت حـدوده المرسـومة لأموالـه وأموالي هي أن أدخر كل إيراداتي من العمل فـي حسـاب خاص أديره بنفسي ولا شأن له به.. وبما إنني زوجته فهـو المسئول عن كل مطالبي وراحتي في الحياة..

أما هو فقد راح يرسل الجزء المدخر من إيراداته لحسابه في البنك حيث يشرف عليه زوج شقيقته الوحيدة.. ولا يمـل من نصحي بالمحافظة على كل أموالى حتى يقيم لـي بهـا مستشفى صغيرا في مصر عندما نقرر العودة..

لم أرتح لنظرات رئيسي الجديد في العمل بمجرد وصوله، وتعرفنا عليه في اللقاء الأول.. كان شابا سـعوديا لا يملـك القدرة على إخفاء ما تحمله عيناه من وقاحة، وما تحمله نفسه من نقد وتجريح لمصر والمصريين.. قال ذات مـرة لأحـد

العاملين المصريين رأيه في مصر.. وأنها ليست سوى شارع الهرم، فانبرى المصري مدافعا عن بلاده دفاعـا مستميتـًا تحول رغما عنه إلى هجوم على السـعودية والسـعوديين.. وكان أن تم ترحيله بعد أسابيع قضاها رهن الإهانة موقوفـًا في السجن..

توترت الأجواء.. وتبددت روح الألفة التي كانت تحكمنـا وترفرف علينا في محيط العمل.. وكنت من جانبي مهمومـة دون باقي العاملين بقضيتي الخاصة مع هذا الشاب الـوقح.. القضية التي تنبئ عنها نظراته الجريئة، وإسقاطاته الفجـة، كلما أتيح له أن يلقيها أمامي بعيدا عن الآخرين..

قررت فيما بيني وبين نفسي تحمل هذا القدر من السـفالة طالما أنها لم تنته بما يشين وفي نيتي مواجهته بالعنف اللازم إذا تجاوز حدود الكلام إلى حدود الفعل.. حتى إننـي بـت أخطط لذلك لثقتي أنه – حتما – سيحدث.. وكان من بين ما خططت له أن ألقيت بمخاوفي، أمام بعض من أثق بهن مـن العاملات السعوديات، وأحد الإداريين الذين أثق فيهم، وكـان طافحا بالغيظ والكراهية لهذا الرئيس الجديد.. وكان اتصالي

بهم لا يحمل روح الشكوى قدر ما يحمـل طلـب تـدخلهم لنصحه، وهو ابن بلادهم، وهم الأولى بنصحه..

كان يجب أن تفيدني هذه الاتصالات المسبقة في اجتمـاع كلمة العاملين لصالحي وهم يدلون بشهاداتهم في التحقيق مع الطبيبة المصرية التي ظلت تضرب رئيسها السعودي بالحذاء حتى أسالت دمه.. فلقد اضطروا جميعا أن يضحوا بي خشية ما سوف ينالونه من لوم فيما لو وقفوا بجانبي.. أي بجانـب الحق.. وقد شجعهم على ذلك الزور ما بدا في أفق القرية من غليان يحمله المصريون في قلوبهم ضد السـعوديين ومـن انتقام يرنو إليه السعوديين لكل ما هو مصـري.. وتحولـت الواقعة من محاولة تحرش جنسي قام بها مدير سعودي ضد طبيبة مصرية.. إلى تحرشٍ - قَبِلي – بين أبناء البلدين.. ولم يكن إزاء تصاعد هذه المعركة في استطاعة شهودي اللجـوء إلى قول الحق فقد تُطال رقابهم قبل رقبتي..

لقد التمست لهم العذر وأنا أتقبل بيني وبين نفسـي أسـوأ الاحتمالات التي سأواجهها وهي فصلي من العمل، وترحيلي إلى مصر، ولم يدر بخَلدي أن غريمي ستمتد وقاحتـه إلـى

الانتقام مني بتلفيق تهمة شنعاء لزوجي " رحمي " المسـكين في عيادته..

لقد كانت التهمة من السذاجة والفجاجة بمكـان.. تهمـة كانت تشير في تخطيطها وتنفيذها إلى البدائية، وافتقـاد روح المنطق، ومع ذلك فقد هرولت الشرطة إلى العيـادة، لإنقـاذ تلك الأم السعودية التي تعرضت لتحرش جنسي من الطبيب المصري، وهي تعرض عليه طفلها المريض..

لقد بدا من سير الأمور أن القبيلة قد اجتمعت في محاولة يائسة ومكشوفة لمسح العار الذي لحق بها من جراء ما جرى لولدهم من مهانة وفضيحة على يد طبيبة مصرية.. وتكاتف الجميع لإزالة هذا العار بإلصاق عار مماثل علـى شـرف زوجي وتاريخه، الذي يعرفونه جيدا.. ولم تعـلُ همسـات السعوديين أنفسهم عن حدود أفواههم، وهم يدينون تلك الخطة الحمقاء المكشوفة، التي دبرتها قبيلة هـذا المـدير الشـاب، وساعدتهم فيها الشرطة..

كنت في سجن النساء أرنو إلى أخبار " رحمي " بـروح يقتلها اليأس والقلق.. وأرنو إلى من يسـاعدني فـي إبـلاغ سفارتي بمأزقي الأسود.. وأرنو إلى مـن يسـاعدني فـي

الاتصال بأخي " عمرو " في قريته البعيدة.. وأرنو إلى أمـلٍ أتمناه أن أخرج من هذا السجن بشرفي سليما بدلاً من أخرج منه قاتلة أو مقتولة..

كنت أسمع عن القهر.. وأمر على هـذه الكلمـة مـرور الكرام.. وأعرف أنه الظلم مكثفًا.. ولا ألمـح فارقًـا بـين الكلمتين فالتعدي على حريتك وإنسانيتك، وسرقة دورك فـي طابور شباك التذاكر هو البداية لسرقة دورك فـي الحيـاة.. وإن صمتك عن الحفاظ على حقك في طابور التذاكر، هـو الخطأ الذي سينمو داخلك حتى تأخذك قناعة الصمت بتجاهل كل حقوقك في طابور الحياة.. لقد أصبح الإنسان المتحضـر في نظر فلاسفة العالم الأول هو الإنسان الذي يؤمن بحقوقـه ومعتقداته ويدافع عنها.. وهذا هو الفارق الذي يميـزه فـي نظرهم عن الإنسان الهمجي..

لا أعتقد سوى إنني كنت إنسانة متحضرة عندما دافعـت عن حقوقي.. ولقد أصبحت أرثي لشهودي الذين لم يـدافعوا عن حقوقهم في إبداء شجاعة يحث عليها دينهم في التمسـك بقول الحق وتجنب شهادة الزور..

كانت أيامي السوداء وليالي الظلماء في سجني المنفرد هي مساحتي المتاحة قسرا للاخـتلاء بنفسـي وتأمـل الـدنيا.. والناس.. والأشياء.. وتذكرت عم " ضـافي " ذلـك الإداري العجوز وهو يحنو على مستقبلاً امتعاضي وشكواي من هذا الشاب المقزز ثم تذكرته وهو يحني رأسه خزيا أمام المحقق، فقد رأى نفسه متورطًا ـ رغما عنه ـ في شهادة كلها زور وبهتان مدعيا إنني لم أشْك له كما أفدت فـي أقـوالي مـع الشرطة.. ثم رحت أتخيل كم الجسارة والفُجر، الـذي يتـيح لسيدة بدوية القدرة على تمثيل دور متقن، لامرأة وقعت تحت وطأة تحرش جنسي من طبيب مصري.. ثم رحـت أعيـد النظر في كل ما اتفقت فيه مع نفسي من إيمان بتمتع بسطاء الجبل وسكان الصحراء بقدرٍ من البراءة والعفوية والتلقائية، يزيد كثيرا عن مثلهم في المدن..

لقد قاموا بحملتهم ضدي متمثلة في إنهاء عقدي، وترحيلي دون النظر إلى عيني الدامعتين من أجل زوجي المسـجون.. ولا إلى صراخي الذي يشق السماء هلعا وأنا ألقى بتوسلاتي تحت أقدامهم حتى يسمحوا لي برؤيته قبـل الرحيـل.. لقـد همس لي أحد المصريين قائلاً: إنهم لن يمكّنوكِ من رؤيتـه

على حالته الراهنة فقد صبوا جام غضـبهم عليـك، عنـدما وضعوه في مكانك المفترض، وعذبوه هو بعـد أن منعـتهم رجولتهم من التصدي لتعذيب امرأة.. ذلـك أن " رحمـي " تجرأ في لحظة دفاعه عن شرف زوجته وبصق فـي وجـه كبيرهم.. ثم في لحظة دفاعه عن شرفه بصق مرة أخرى في وجه زوج المجني عليها تلك البدوية المتآمرة فـي تمثيليـة التحرش بها.. لم يكن رحمي يملك تعبيرا عن رأيـه بشـكل عملي سوى إطلاق لعابه الجاف قذائفًا في وجـوههم وهـو المكبل بالقيود إلى ظهر مقعده الحزين..

لقد لحق بي بعد شهور منكسرا حزينًا صامتـًا زاهدا في الدنيا معتزلاً الناس كارها الطعام والشراب لا يطيق أن يقرأ صحيفة.. ينفر من الراديو والتليفزيون.. يستمع بـلا مبـالاة إلى نتاج رحلاتي اليومية التي لم تنقطع - حتى بعد وصوله - فيما بين وزارة الخارجية ومختلف الصـحف والمجـلات التي أصبو إلى أن تحمل إحداها شكواي إلى الملك لعله يعلم أن رايته الخضراء التي تشير إلى جوهر الـدين والإسـلام كدستور يحكم رعاياه ما هي إلا قماشة تهفهف على وجوههم

بهواء الرضا، وهم يفيقون من نومة الغفوة والجهالة وتجشـؤ وجبات الظلم العاتي..

لقد فشلت كل محاولاتي الطبية والنفسية والشخصية فـي الخروج برحمي المسكين من دائرة الكآبة والاكتئاب.. وكان احتضانه للمصحف الشريف في آخر أيامه يحمل لـي كـل الأمل أن تهدأ نفسه من غضبها المكتوم وتشفي روحه مـن يأسها الجاثم في حناياها الجريحة.. وعنـدما كنـت أشـاهد دموعه التي تسيل مع كلمات القرآن أظن في داخلـي أنهـا مشاعره الحاقدة على ظالميه، آخذة فـي التفكـك والـذوبان والانحدار عبر مآقيه كدموع تسقط ويسقط معها جبـل الهـم والاكتئاب..

لقد كنت واهمة معتقدة أنه سيتمكن من جلب الرحمة إلـى نفسه وروحه بعد أن غابت عنه رحمة الناس.. إلى أن أتـت القشة التي قصمت ظهر البعير متمثلة في زوج أخته وأختـه الوحيدة، عندما استوليا على كل رصيده في البنك، ظنًا منهما أنه سيعود إلى مصر في صـندوق خشـبي فتسـابقا نحـو الحصول على أمواله قبل أن تصل إليها شرعية التوريث..

كان قد نصحني بعمل المستشـفى وتزويـدها بمشـروع خيري أقيم فيه دارا لتربية الأيتام تكون كـل تكلفتهـا مـن أمواله.. ولما فشلت في إثناء زوج الأخت عن المضي فـي غيه وإعادة الأموال المسروقة إلى صاحبها فر مني، وتوقف عن زياراته المتباعدة هو وزوجته التـي راحـت تسـتمتع بمدخرات شقيقها متكئة على عديد من التبريرات الواهية من أنها، حصلت على حقوقها لعلمها أن شقيقها لا يملك الذريـة التي ترثه.. وأنها أولى من دار للأيتام إذ أنها ستربي بهـذه الأموال نفوسا من دمه ورجالاً سيدينون لخالهم بمباهج العز الذي سيتمتعون به..

لقد مات رحمي متسربلاً بحزنه وغضبه على قومه مـن العرب والمصريين.. ولكنه لم يتركني وحيدة، عندما تـرك معي كل تلك الرؤى الجديدة التي صرت أضعها فـي قلبـي وعقلي وأنا أواجه الدنيا والناس بعد رحيله.. لقد جندتُ نفسي وبعض الأقلام الشريفة وبعض المحامين الشـرفاء لنفضـح قبيلة الطواغيت اسما اسما لتُصبح قصة رحمي الذي لم يرحم على كل لسان.. ولتصبح واقعة سرقة أمواله وصـمة فـي جبين أخته وزوجها.. وكانت قيادتي لتلك الحملة المخططـة

لرد الاعتبار المعنوي لفقيدي العزيز هي بداية دخولي إلـى عالم الفكر والصحافة والتعرف على كثيـر مـن النفـوس الشريفة التي تمضي قدما في طريق الحق والشرف متبنّـين قضيتي بعد أن ساندتهم بعض الأقـلام والعقـول السـعودية الشريفة وتصدوا لقولَةِ الحق وسط هذا الزخم المتعالي مـن القبح والزيف والنفاق والمقايضة.. " خذ ذمتـي.. واعطنـي مالاً ".. ذلك الشعار الصامت الذي يغذى المعاملات السـفلية أحيانًا في عالم الصحافة..

لقد أصبح رحمي أبا لعشرات الأطفال الذين ينظرون إلى صورته الوضيئة بابتسامته المشـرقة فـي مـدخل دارهـم الدافئة.. دار رحمي لتربية الأيتام.. وكأن رحمي الطيب كان ينقذ أموالى عندما لم يخلطها بأمواله حتى أتمكن من تحقيـق أمله المتصاعد في آخر أيامه بعمل هذه الدار..

أما المستشفى الصغير الذي يأخذ من وقتـي جانبـا فـي إدارته فقد جعلته في خدمة الفقراء بالقدر الكبير الذي يحمـل رضائي طالما إنني أعيش على ما يتوفر لي من إيراده..

ما الذي أريده من هذه الدنيا سوى أن أكون أنا..؟ لم يعد يعنيني من حياتي شيء سوى إنني قد تعرفت على نفسي بعد

أن عرفت حقيقة الحياة.. ولم يعد يعنيني أن تمتلـئ حيـاتي بأحداث جديدة وأشخاص جدد بعد أن كفاني ما امتلأ به قلبي من فرح وسعادة وأمل وألم وحزن وقهر وحب وموت..

كثيرا ما أرفع سبابتي في الهواء وأقبلها لأنها أتت لي في غفلة منها ومن الزمن بفارس جميل اسمه " رحمي ".. مـر على حياتي كالسحابة الممطرة فأثراها بالأمل والألم، وغاب عني ولكنه دائما يجيب على كل تساؤلاتي.. حتى بعد موته:

- آلو.. الخطوط السعودية..
- تحت أمرك..
- من فضلك عاوزه أحجز مقعدين..
- آسف.. مفيش غير مقعد واحد..
- والمقعد الثاني..؟
- استولى عليه واحد ظالم.. وقتل صاحبه..

إنني الآن أسمعه ينخرط في بكاء صامت.. تُرى هل يبكي من أجلي وأنا بعد رحيله أجلس على مقعدي وحيـدة..؟.. أم يبكي على مقعده الذي ضاع بعد أن كان سعيدا بجواري؟..

* * * *

(٧)

" الروح التائهة فينا "

كنت وأنا أضع يدي على قصة راوية عبد العظيم - هـذا الملاك الذي هبط على جيرتنا متسربلاً بالحزن والجمال ليقيم مستشفاه الصغير وداره للأيتام على مقربة مـن منزلـي – يزداد قدرها عندي يوما بعد يوم..

كان الصمت والشرود والحزن الغافي بين عينيها علامات يحار المرء في تفسيرها وهي جالسة على مقربة من موقـع العمل، تحت مظلة تحميها من الشـمس وبيـدها كتـاب أو صحيفة..

لم تستجب بسهولة لدعواتنا لها – نحن الجيران – حتـى تُشرفنا في منازلنا.. كانت دعواتنا تصل إليها عبر زوجاتنـا اللاتي كن يجالسنها بعض هنيهات من النهار، يقـدمن لهـا ولعمالها أكواب الشاي وزجاجات المياه الغازية، فتتقبل كرمنا شاكرة معتذرة عن قبول دعواتنا إلى الطعام بعد أن جنـدت طباخًا في ركن من الموقع يعد لها ولعمالها الطعام اللازم..

لم يكن من السهل فض أغوار غموضـها وجـذبها إلـى ثرثرة الأحاديث رغم ذلك المتسع من الوقت الـذي تختتمـه آخر النهار باستقلال سيارتها وهي تغادر المكان في صـمت مؤدب ودماثة خلق واضحة، محيية الحضور بوداع راقٍ..

كانت كل أيامها واحدة تلك التي تقضـيها فـي مراقبـة العمل.. حيث لاحظت أن زوجتي لا تكاد تـأتي بخبر جديد يضاف إلى أخبارها القديمة، التي تـأتي بها حول الـدكتورة راوية صاحبة مشروع المستشفى.. كما أنها – كمـا تقـول زوجتي – لا تكاد تسأل سؤالاً واحدا عن شـيء مـا يثيـر فضولها حول الناس والأشياء في تلك المنطقة التي اختارتها لإقامة مشروعها..

أما عندما تجرأت زوجتي فـي إحـدى زياراتهـا لهـا، واصطحبت معها بعض مؤلفاتي لتهديها إليها فقد كنت أشفق عليها من الحرج إذ كان من اللائق أن أقوم بنفسي بتقديم تلك الهدية التي – وجدتها زوجتي – تليق بهذه السيدة لكثرة مـا تراه في يدها من كتب وصحف ومجلات.. حتى أنها كانـت تشفق على نظرها من التعب والإرهاق المتواصل في قراءة كل هذه الأوراق التي تملأ منضدتها..

بعد أن قرأَتْ كتبي لم تشأ – لفرط أدبهـا – أن تـدعوني لمقابلتها قبل أن أدعو نفسي ذات مرة لهذه المقابلة.. فقد ظهر لي أنها كانت ترنو إلى مثل هذه المقابلة بعد التعرف علـى شخصي، والتعرف على فكري من خلال ما أكتبـه.. ومـن خلال ما قرأتْه لي..

سألتني في اللقاء الأول: ما هو الكتاب الجيد في نظرك يا أستاذ؟..

قلت لها: هو الكتاب الذي يجبرك على الجلوس إليه حتى الانتهاء منه..

هزت رأسها خفيفًا وغاب نظرها بعيدا ثم قالت:

- قولك مضبوط.. ولكني أراه يعتنـي بمسـألة شـكلية بحتة!!

سألتها: ماذا تقصدين؟..

أجابتني: عندما قدر لي أن أهرب إلى القراءة.. وأتغلغـل في عالم الكتب رحت أكتشف أشياء عجيبة حول الكتب نفسها وكأنها كائنات آدمية تعيش معك.. واكتشفت أن قيمة الكتاب تنبع من شعورك نحوه بعد قراءته فهناك كتاب يقول لك مـا كنت تعرفه بالفعل.. وكتاب استطاع أن يعبر تماما عن كـل

ما في نفسك.. وكتاب قال لك بالضبط كل مـا كنـت تريـد قوله.. وكتاب يكون تأثيره في نفسك هو أنك وجـدت فيـه نفسك.. وكتاب جذب منك أفكارا بعد قراءته لم تكن موجودة في نفس الكتاب.. لا أدري: لماذا أحـس دائمـا أن الكتـب كائنات آدمية تعيش معنا وتتنفس وتمرض.. وتموت..

أعجبني هذا التحليل الذي لم أحاول الوصـول إليـه ذات يوم.. أو لم أهنأ بالتوصل إليه ولو بمحض الصدفة.. وقبـل أن أبحث لها عن رد حول هذا المنطق التحليلي وجدتها تتجه إلى ما تريد قوله فقد كان ما سبق لها من حديث لا يعـدو أن يكون مقدمة لما تريد قوله فعلاً..

- لقد قرأت لك بعض القصص القصـيرة وتعجبـت أن تكون تلك هي أفكارك التي لا تختلف كثيرا عن أفكـاري.. كنت أقرأ هذه القصص ولدى شعور غريب بأنني أعيد قراءة شيء ما كتبته بنفسي.. معنى هذا إنني لو كنت كاتبـة لمـا خرجت بعيدا عن إطارك وأنا أعالج هذه الموضوعات..

ثم راحت تضرب مثلاً بالموضوعات التي تعنيها:

- قصة البنت الفقيرة الجميلة المحطمـة ذات العشـرين ربيعا التي باعوها في صفقة الزواج المتكررة لعجوز عربي

تعدى السبعين عاما.. هل أنت تشير هنا بإصبع الاتهام إلى الفقر؟.. أم إلى القهر؟.. أم إلى عودة النخاسة؟..

- ربما إلى كل هذا جميعا..

عموما أنت نجحت في توصيل رسالتك عبر اللقطة التي رأت فيها الفتاة نفسها مرسومة في نصف البرتقالة التي عصرتها لزوجها ثم ألقت بها في سلة المهملات مع باقي البرتقال المعصور..

- أشكرك.. هذا فعلاً ما سعيت إليه..

- أما قصة الشاب الفواعلي الذي غفل عن مأساة ساقيه اللتين تحطمتا تحت الجدار المنهار.. وراح يتذكر بهلع طعام الغد: من سيأتي به لأولاده؟.. هل تشير هنا إلى ضعف إيمانه؟.. أم قوة أبوته؟.. أم شدة خوفه على رزقه؟..

ابتسمت وقلت لها:

- ربما أشير إلى كل هذا جميعا.. أيضا..

قالت بهدوء:

- لا.. أنت تشير إلى الهلع الذي يعيش بداخلنا - حتى نحن الأغنياء – من فكرة الفقر.. لأنك رصدت نفس الهلع عند هذا الشاب، حتى بعد أن تسلم مكافأة مجزية من صاحب

العمل.. للأسف.. الخوف من الفقر يجعلنا نقهـر أنفسـنا.. ونقهر الآخرين..

سألتها:

- يبدو لي أنك تطاردين تلك القوة الغاشمة التـي اسـمها القهر؟..

أجابت:

- هي بالفعل – كما قلت أنت – قوة غاشـمة.. تجعلـك تخاف من قهر الفقر فتسرق الأمـوال ومـن قهـر رئـيس التحرير فتكتب ما يحبه هو لا ما تحبه أنت.. وقهر رئـيس الشرطة فتشهد بالزور الذي يتمشى مع مطلبه، ولا يتمشـى مع مطلب الحق الذي تحس به.. القهر يقف لنا في كل مكان كرأس الجمل الذي يطارد الناس ليلاً في قصة يوسف إدريس الشهيرة..

قلت لها: ما رأيك يا سيدتي في رجل جنّد نفسـه وقلمـه وفكره في تسجيل علاقـة المصـريين بـالاحتلال والقهـر والعبودية منذ فجر التاريخ.. ظل يفعل ذلك طيلة خمسة عشر عاما إلى أن جمعه في كتاب..؟..

هزت رأسها رافضة..

- لا يوجد مثل هذا الرجل الآن..
- إنه موجود..
- وهل كتابه موجود في السوق؟..
- هو الآخر موجود..
- ومن سيقرأ هذا الكتاب؟..
- من يريد أن يقرأه.. فليقرأه..
- لن يجد من يقبل على كتابه..
- لماذا؟..
- لأنه يبيع لنا البضاعة التي نملكها.. كيف يأخذ منـا ويعطينا..؟.. كيف يبيع الحقيقة للنفوس التي عـذبتها الحقيقة؟.. إنه كالممثل الكوميدي الذي يضحك الناس على كمدهم، بتذكرة مسرح من جيوبهم.

أخذني الصمت طويلاً وأنا أواجه هذا الطريـق المغلـق بالتشاؤم واليأس.. وذلك المنطق المفعـم بالكآبـة، ورفـض الواقع رفضا يرسخ جثومه على النفس والقلب:

- ما هذا الذي أسمعه منكِ يا دكتورة..؟..
- هو الذي تسمعه مني.. يا أستاذ..
- هل هو اليأس..؟..

- لا.. إنها الحقيقة.. الحقيقة التي لا يجـب أن تبحـث عنها في مكان آخر.. فتفعل مثل جحا، الذي سـقط منه قرش في الظلام؛ فراح يبحث عنه في مكان آخر به نور..
- وماذا تقول الحقيقة..؟..
- الحقيقة أنت تعرفها وتعيشها وتتنفسها خصوصا أنك كاتب ومثقف.. ولكن يبدو أن الأنف التـي تعـيش قريبة من بئر المجاري جبلت على الاتساق مع هـذه الرائحة حتى عايشتها وآمنت بها وربمـا أحبتهـا.. ودائما لا يحس بمأساتك إلا ضيفك القادم من بعيد.. الذي إذا حاول أن يواسيك على سوء معيشتك، نـال استغرابك لأنك لا تحس بشيء مما يقوله..
- وما هي الحقيقة التـي سيواسـيني ضـيفي علـى سوئها..؟..
- الحقيقة التي يعرفها هو من أنه ضيف ثقيل.. ضيف قادم علينا ليجلس على قلوبنا رغم أنوفنا.. أمريكـا.. أمريكا هي التي تشير لنا الآن على العفن الذي يحيط بنا.. وتنبهنا على مساوئه.. ومدى ضررهِ بصـحتنا

وعافيتنا: القومية.. ويجب أن نرهف السمع لأقوالها الصادقة.. ثم نستعد لتلقي اقتراحهم بـالعلاج.. هـذا لأنهم سيجلسون عنـدك.. وبمـا أنهـم لا يطيقـون الروائح الكريهة فسوف يتطوعـون بإزالتهـا قبـل جلستهم الطويلة.. الطويلة جدا..

- كيف أرهف السمع لقولٍ ناصح يعقبـه حـل نـاجح لمشاكلي من دولة لا تسـعى إلا إلـى اسـتعبادي.. أليست هي أمريكا التي لا تسمع إلا صوت نفسها؟..
- أجل.. إنها أمريكا التي يحبها نصف شعبك ويكرهها النصف الآخر من أحبها هو ذلك الذي انبهر بهـا.. ومن كرهها هو ذلك الذي ازدرى قيمها اللعينة.. ولا تنس أننا نستجدي منها رضاها جهرا.. ونصب عليها اللعنات سرا.. إنها حالة جديدة من الحب الممـزوج بالكراهية.. ولا تنس أنك – في الواقع الحقيقي الذي تحكمه طبائع الأمور – تكره أحيانًا الرجـل الـذي يشير اك على عيوبك لأنك في عز اختيالك بنفسـك المريضة صدقت نفسك أنك بلا عيوب.. وربما راح بعضنا يمارس ضد هؤلاء الناس فعل الكراهية لأنهم

وضعوا أيديهم على حقيقتنا المضحكة.. لقد وصـلوا إلى التشخيص الحقيقي لأمراضنا ولو كنـت سـويا فلتعترف بالتشخيص حتى يسهل لـك البحـث عـن الدواء..

- من المؤكد أنك وضعت يدك على تشخيصهم لنـا.. أقصد لأمراضنا..

- للأسف هم يقولون عنا ما نعرفه عن أنفسـنا ذلـك الشيء الذي لم نجرؤ أن نطالب به حكامنا.. خذ منى كل تلك النقاط التـي سـجلوها ضـدنا وحـاول أن تناقشني في كل نقطة على حدة..

هم يقولون عنا إننا متخلفون لا نملك الحريات المدنية والسياسية.. كما أننا متخلفون في التنمية الاقتصادية لأننا حتى الآن لم نتعانق مـع تكنولوجيـا الغـرب ونفتقر إلى الديناميكية اللازمـة لمواجهـة تحـديات العصر – ألسنا كذلك فعلاً؟..

- أجل نحن كذلك.. فعلاً..

- وهم لا يعيبون على إسلامنا في شـيء، قـدر مـا يعيبون علينا خصام فكرة الحريات الدينية، ظنا منـا أنها ستكون على حساب قيمنا الإسلامية..
- فعلاً.. نحن نخاف الخلط في هذا الأمر الدقيق.
- ولماذا تلجأ إلى الخوف وأمامك تجربة اليابان التـي تفاعلت مع الحضارة الغربية وحافظت على تفردهـا وخصوصيتها.. لقد حاولت أمريكا تذويب الحـرف الياباني في الحروف الإنجليزية وفشـلت.. حـاولوا إلغاء طقوس الإمبراطورية القديمة وفشـلوا.. لقـد تمسك اليابانيون بروحهم وهم آخـذون فـي صـنع التفوق تدريجيا على تكنولوجيا الغرب..
- ....

(لذت بصمت المتأمل لهذه الحقيقة المعروفة فواصلت هي سردها)

ويقولون عنا أننا كشعوب خسرنا الانضواء تحت أساليب الحكم السائدة في الغرب لأسـباب تتعلـق برغبـة الحكـام ومزاجهم؛ فالتقسيمة ذات الألوان المختلفة في خريطة الحكـم تشير إلى جمهوريات تضع الدستور حسب طلـب الحـاكم..

وجمهوريات وممالك تكرس الجهل في نظم تعليمها.. وبلدان تتمسك بالعصبية العشائرية والطائفية.. وبلدان بها أحـزاب ورقية مكملة للصورة الديموقراطية الزائفة.. وبلـدان بهـا أنظمة برلمانية تكيل بمكيالين.. وأنظمة تسن القـوانين ذات الأنياب التي تستخدمها عند الحاجة.. وأنظمة تؤلـه الحكـام حتى أن صورهم في الشوارع تزيد عن أعداد المارة.. هـم يقولون ذلك وتلك هي الحقيقة التي تؤكد أن كـل الأنظمـة العربية تكرس الفقر والبطالة والفساد والمحسوبية وأنها تحمل لافتات ضخمة بلا كيانات حقيقية.. أليس هذا صحيحا؟..

ابتسمت في مرارة:

- صحيح.. مائة في المائة..
- إنهم الآن يتأملون بغيظ ما طالهم من ضرر نتيجـة هذه المساوئ في أنظمـة الحكـم علـى اخـتلاف مشاربها.. فلقد توصلوا إلى أن الفساد والظلم وغياب العدالة الاجتماعية وسعت الهوة بين الأغنياء والفقراء فتعالت نزعات العنـف والإرهـاب عنـد الشـباب المظلومين الذين نشأوا في تربـة صـالحة لتوليـد الإحباط واليأس خاصة مع ازدياد معدلات البطالة.. وكان الإرهاب أحد هذه النتائج السيئة التي تتصـدى

لها أمريكا والغرب بكل قوتها وسوف يكشف التاريخ أنهم حبكوا مؤامرة ١١ سبتمبر كذريعة يعلنون بهـا للعالم أنهم قد عثروا على عدوهم الجديـد.. العـدو الذي أعطوا له اسما خاصا.. هو الإرهـاب.. وهـم الآن يديرون حوله حربا جديدة لعلها الحرب العالمية الثالثة.. وتلك هي مصـيبة الأمريكـان فـي إدارة شئونهم ورأسماليتهم ومصالحهم بالحفاظ على فكـرة الحرب، والإبقاء عليها كهدف يسعون إليـه تحـت لافتات بريئة ومفتعلة.. ولما لم يجدوا دولة بعينهـا يواجهونها.. اخترعوا حالة بعينها جعلوها هي العدو الجديد لينفذوا منه إلى كل الـدول التـي يتلمظـون لالتهامها.. وقد وضع رئيسهم أسـماء هـذه الـدول حسب الأولوية الطافية على سطح الأحداث بادئـًا بأفغانستان ثم ها هي العراق في الطريق.. واعلم يـا أستاذ أنه من الممكن أن تكون مصر والسعودية فـي القائمة.. ولا مانع أن تكون في ذيلها بعـد تسـوية الحسابات مع سوريا وليبيا.. هناك تعديل هـام يـا أستاذ في خريطة المنطقة..

- تقصدين " سايكوس بيكو " جديدة..
- أو " سايكوس بيكو " على الطريقة الأمريكية..

تأملت ما أوصلتني إليه راوية عبد العظيم من رأي ظهر لي أنه لا يختلف كثيرا عن رأيي اللهم في بعض النقـاط أو التفاصيل الصغيرة التي ألمح إمكانية الاتفاق بيننا بشأنها، فيما لو امتد بنا النقاش أو زاد إبحارنا قليلاً فـي هـذا المحـيط الهادر، محيط السياسة الذي علت أمواجه وهاجت وماجـت بفعل رياح التغيير التي تهب على العالم..

لم يكن ما تعرضت له راوية عبد العظـيم مـن نبـوءة صادمة للحال الذي تكون عليه مصر والمنطقة، يختلف كثيرا عما تعرض له أحمد منصور من قولٍ صادم، للحـال الـذي كانت عليه مصر قبل ذلك، كل ما هنالك أنهـا اسـتخرجت نبوءتها من تحليل الخطاب السياسي الذي لا تفتأ أمريكا تبرز لنا – بين الحين والآخر – بعض فقراته.. أما أحمد منصور فقد استخرج خبيئته من بطن التاريخ.. ولم يشأ أن يؤكد لنـا في نهاية كتابة ما يتوقعه من أن التاريخ سـيعيد نفسـه، أو يلفت أنظارنا بأسلوب أدبي قائلاً إنه نفـس التـاريخ الـذي

سنعيشه من جديد، عندما يدخل علينا مرتـديا زي العولمـة طالبا منا أن نلقي جانبا أرديتنا القديمة وأثوابنا البالية..

كنت قد ركنت إلى هذه التأملات التي طالت معي بطـول غيابها عني عندما انصرفت إلى مهندسها وراحـت تتجـول معه في الموقع الزاخر بالعمل والحركة وأنا أشـاهدها مـن بعيد بنظراتي الشاردة وعقلي المنصرف عنها إلا من متابعة شبحها المتحرك بلا تركيز على ما يفعله، فقد كان تركيـزي في ذلك التطاحن الذي يدور في عقلي حول مـا فعلـه بـي حديثها..

جاءت بعد جولة المرور وعلى فمها ابتسامة فعرفتُ أن ابتسامتها تلك إنما لاحت عليها وهى تراني غارقًـا فـي التفكير..

وما إن جلستْ حتى بادرتني بسؤالٍ غريب:

- هل كنت تتابع قصة بيل كلينتون مع فتاته؟..
- ومن في العالم لم يكن يتابع مهزلة مونيكا؟..
- لا.. لا أقصد مونيكا.. أقصد "بيلاجونز " التي اتهمته بالتحرش الجنسي..

- وتلك أيضا تابعتها، وتأملت كم كانت ستكون القشـة القاصمة لظهر أذكى رئيس أمريكي.. ماذا تقصـدين بسؤالك..؟..
- أقصد.. هل كان من الممكن " لبيلا " هذه أن يكـون اتهامها محض افتراء وأنها مدفوعة إلى ذلـك بأيـدٍ خفية تصبو إلى النيل من الرئيس وتحطمه..؟
- لا.. لا يمكن.. فهؤلاء القوم يملكون القدرة العاليـة التي تمكنهم من البحث والتنقيب ومعرفة الحقيقـة.. وأنها لا يمكن أن تفلت بكذبتها فيما لو كانت كاذبة..
- وهل هم ينبذون الكذب تفاديا للعقاب فقط؟..
- أنا أرى أنهم وصموا هذه النقيصة بالعار الشديد حتى أصبح مجرد اللجوء إليها أكثر إزعاجا لصاحبها من اللجوء إلى القتل..
- إذن فأنت متفق معي على سلامة الأرضـية التـي سنقيم عليها تلك المقارنة، بين تلك الفتاة الأمريكيـة ذات الجوب القصير للغاية، وذات الصدر الذي يكاد يكون عاريا وبين تلك السيدة السعودية التي لا يبـدو من جسدها سوى عينين تلمعان خلـف تـلال مـن

الأردية التي تواري به جسدها.. فـالأولى مكشـوفة الجسد مستورة النفس.. فلماذا تكون الثانيـة عاريـة النفس رغم حرصها على ستر الجسد؟..

لم أكن قد عرفت بعد قصتها الأليمة مع السعوديين، والتي راح فيها زوجها ضحية لكذبة شائنة، تصدت لإطلاقها سيدة سعودية مسلمة مستجيبة لتحريض رخـيص مـن ذويهـا.. وراحت د. راوية تكمل أمثلتها التي تحمل نبض المفارقة:

- لو قلنا إن هذه السيدة السعودية كانت مغلوبة علـى أمرها وأنها لم تفعل أي جديد، وقـد جبلـت علـى الانقياد الأعمى لسيدها – الرجل – فماذا تقول عـن سيدة مصرية متعلمة تعمل بالمحاماة، وزوجها يعمل بالاقتصاد، ليتحولا بين يوم وليلة إلى عصابة، وقاما بالسطو على كل مدخرات رجل مريض وحولوهـا إلى حسابهم؟.. هذا الرجل المريض لم يكـن سـوى شقيق هذه المحامية.. (لم أكن قد تعرفت بعد علـى سرقة مدخرات زوجها المرحوم رحمي)..
- أراكِ تؤسسين قواعد جديدة لإدانة من نوع جديد..

- لا أساس، ولا قواعد، ولا إدانة.. ولكنه سؤال: هـل نحن متحضرون؟.. وما هـو الـدليل علـى أننـا متحضرون؟.. وأرجوك لا تكـرر أمـامي مسـألة السبعة آلاف سنة حضارة حتى لا أُصاب بالغثيان..
- أجل.. أجل.. لك الحق.. تلك العبارة التي استهلكناها والتي أهلكتْنا.. أليس من الملائم أن نتفق أولاً علـى تعريف التحضر؟..
- لقد مررت على كثير من التعريفات ولـم يعجبنـي سوى ذلك التعريف البسيط العميق: الحضارة هـي رقة التعامل مع الإنسان الآخر.. ويجب أن تسـألني من أين أتيت به..؟..
- من أين؟..
- من على جدران معابـدنا الفرعونيـة.. تصـور؟!! تصور إنني اكتشفت أن رقة التعامـل لا يجـب أن تكون في نظرهم مع الإنسان فقط.. بل مع الحيـوان والنبات.. فأجدادنا كأول من آمنوا بالتوحيد والثواب والعقاب ومحاسبة الميـت، كـانوا يجهـزون هـذا الاعتراف ليلقوه أمام القضاة فـي العـالم الآخـر "

أعترف أنني لم أُؤْذِ إنسانًا.. أو أقهـر حيوانًـا.. أو أعطـش زرعا.. فقـد كنـت لا أنسـى أن أسـقي الزروع.."..

فكم سنحتاج من الوقت حتى تتحضـر المـرأة البدويـة السعودية وتقتنع أن أذى العورة لن يواريه الحجاب؟.. فالأذى يصدر من داخل النفس.. وكم سنحتاج مـن الوقـت حتـى تتحضر المحامية المصرية السارقة، وتعلم أن طقوسها حول أضرحة الحسين والسيدة زينب لا تعني سوى إسدال حجـاب كحجاب البدوية يستر الكذب والنفاق الاجتماعي؟.. ومع هذا فالغرب حزين.. يعصر مناديل الدموع مـن أجـل المـرأة العربية المسلمة فهي في نظرهم ذلك الكم المهمل المقهـور المستعبد من الرجال وأجهزة الحكم على حد سواء.. ولذا فقد رصدوا لها بندا في خطة إصلاح أحوالنا المائلة..

قررت أن أتخذ معها الحوار العملي عندما أبادلها الـرأي في كل ما قالته لي.. والذي لم يخرج كثيرا عن نطاق آرائي وأقوالي..

فتوجهت إليها قائلاً:

- دكتورة راوية؟.. أخشى أن تكوني في عز غضبك قد صرفت النظر عن طلب نسخة من كتـاب صـديقي ذلك الذي أرخ فيه لقهر المصريين ومحاولة سـحق هويتهم تحت سنابك الفرس والرومـان والإغريـق والعرب والمماليك والفرنسيين والإنجليز.. يبدو لـي بعدما تعرفت على هويتك الآن أن هذا الكتاب هـو كتابك.. لأنه يحمل مواصفات الكتاب الحق كما يراه (فرانز كافكا) الذي لا يعترف إلا بالكتاب الذي يقضه ويوخِزه وخزا.. وعلى حد تعبيره: الكتاب / الفـأس التي تهشم البحر المتجمد في داخلنا.. أو الكتاب الذي يوقظنا بخبطة على جمجمتنا.. فهذا الرجل لا يحـب الكتاب الذي يجعلنا سعداء.. بل يحبه إذا سقط علينـا كالانتحار.. فدعيني أحمل لك نسختك بعد أيام لثقتي أنك ستضعينه في نطاق الكتب التي قمت بتصـنيفها لي في بدء الحديث، وغالبا ما سيكون هـو الكتـاب الذي سيجذب منك أفكارا جديدة بعد قراءته حتى إذا كان قد قال لك ما كنت تعرفينه بالفعل..

ابتسمت في أدب وحنو..

- وهل كنت تظن أن حديثنا سينتهي قبل أن أطلب منك أن تدلني على المكتبة والاسم والناشر حتـى أمتلـك نسخة لنفسي..
- إذن فنحن متفقان.. ومبدئيا فالكتاب اسمه (مصـر.. الأم..) حديث حول الثقافة المصرية..
- والكاتب؟..
- صديقي الأستاذ أحمـد منصـور.. الـذي أرى أن تسمعي رأيه وجها لوجه بعد أن تكوني قد فرغت من قراءة الكتاب..
- وما فائدة المواجهة؟..
- لمزيد من الثراء الفكري الذي أرى أنك تحرصـين عليه..
- وما فائدة الثراء الفكري؟..
- أرى أنه إشباع للذات..

ابتسمت وقالت متسائلة بإلحاح وكأنها تشاغبني:

- وما فائدة إشباع الذات؟.. ستقول إرضـاء الـذات.. وسأسألك.. وما فائدة إرضاء الذات؟.. ولن تسـتطيع أن تجيب لأن الذات لن ترضى.. وأنا لن أرضـى..

وأنت لن ترضى.. فالرضا هو الروح التائهة منا أو الروح التائهة فينا.. احضر لي كتابك يا أسـتاذ وإذا كتبت عليه إهداء لي فليكن: " إلى فلانة: اقرئي هـذا الكتاب.. لمجرد التسلية.. " فهذا ما سوف يحـدث... سأقرؤه فقط.. لمجرد التسلية...

* * * *

(٨)

" إن قلت كلمتك.. لا تمض "

كان قد ألم بي حب جديد اسمه مفتاح الصاوي.. لم أتخل منذ أن عرفته عن محادثته بالتليفون عدة مرات في الأسبوع الواحد.. أو تحديد موعد سابق مني لزيارته.. أو تحديد موعد آخر منه لزيارتي.. فالزيارة الواحدة له لم تكن سوى جولـة بين المتاحف والمكتبات..

لقد كانت مشاغباته الهادفة تضفي جوا من الإشراق على حالة الود التي تسللت إلى وجداننا..ولم يخف هـو إعجابـه بطبيعتي العفوية التي تتبادل المؤانسة مع الناس فـي وقـت قصير.. ثم يفخر بهذا العدد من الزيارات المتبادلـة والتـي حققناها فيما بيننا في تلك الشهور القليلة.. وقال لي إنها تزيد عشرات المرات عن عدد الزيارات التي تبادلها هو مع أحمد منصور على مدى علاقتهما الممتدة منذ عشرات السـنين.. ويطلق ضحكته العميقة المجلجلة هاتفًا:

- هذا لأن ابن منصور شخص "بِراوي ".. كالحمام.. خفيف القلب.. يطير فورا لمجرد مرأى الناس..

قلت له:

- والعجيب أنه في صومعته يجلس محترقـًا من أجل الناس..

فيعيد هتافه متسائلاً:

- ولماذا لا تكون عزلته سببها الخوف من أن يحرقـه الناس؟..

فأتساءل:

- وهل الناس يحرقون من يفكر في مصالحهم؟..

فيجيبني مسرعا:

هل نسيت ما اتفقنا عليه من قبل من أن الجمهور للسياسي هو قدره الجميل الذي يقـُض مضـجعه؟.. الجمهـور هـو العلْقَة الشافية التي تدفع العافية إلى جسمه المريض؟..

- وكيف ينال السياسي هذا الأرق الجميل وهذا الـدواء المرير دون أن يقترب من الناس؟..

- لا تظن إنني أوافق ابن منصـور علـى استسـلامه لليأس ولسوء الحظ لأنه لـم يجـد لكلمتـه المكـان المناسب أو الوقع الشديد.. فقد قال كلمتـه ومضـى عملاً بحكمة ما قديمة.. وقد كان أولى به أن يلفـظ

هذه الحكمة نفسها ضمن ما لفظه من حكـم أخـرى بالية.. فابحث له أيها الأديب عن الحكمة المناسبة.

- آه.. لقد فهمتك..
- لا يكفي أن تفهمني.. بادلني الرأي.. خذ من حـديثي مسلكًا لحديث جديد.. هل يكفي الآن أن تقول كلمتك وتمضي؟..
- لا.. لم يعد هذا هو الشيء الكافي.. لأننـا سـنحلق جميعا في النهاية فوق تلال من الكلمات الواهنة..

(كنت أتبادل الحوار مع مفتاح الصاوي وأنا أُعمل العقـل في البحث عن الحكمة المناسبة.. وبما أنها حكمة تلك التـي أصبو إلى إطلاقها فلابد أن تأخذ حظها من مواصفات الحكمة التي وصلتنا من الأجداد عبر فيافي الزمن متدثرة بالإيجـاز الشديد والإيحاء الفضفاض والجـرس الشـعري.. ورايحـت تنهال من قريحتي بعض الكلمات التي تدور في فلك واحد.. مثل " لا يكفي أن تعلن كلمتك.. قف حتى تجعلهـا مـؤثرة " إنها عبارة طويلة.. لا تتسم بالإيجاز.. بها تحـذير وأمـر.. وربما تحمل بعض العنف.. وأين هذا من الحكمـة السـابقة التي تدعو بكل الرقة إلى القول: " قل "؟.. صـحيح أنهـا لا

تأمر بما هو أزيد من القول، وهذا ما نرفضه، إلا أننا يجـب ألا نتخلـى عن نفس الرقة ونحن ننصح بشيء آخـر يـزاد على القول.. هذا الشيء لعله التصدي أو المواجهة، ولكنـه أبدا لن يكون العنف.. ها هي صياغة أخرى تقترب منى... " قل كلمتك واضمن لها الحياة.. ".. لا... فذائقـة المسـلمين الدينية تحول بينهم وبين القفز على المشيئة الإلهية ولو حتى بكلمة.. ومن يضمن – حتى – خروج الكلمة من فمه قبل أن تخرج روحه من حلقه؟.. إذن فتلك صـياغة ثالثـة: " قـل كلمتك.. ولا تمضِ " أعجبتني الصياغة فهتفت إلـى مفتـاح الصاوي:

- وجدتها يا مفتاح.. " قل كلمتك.. ولا تمضِ "..

ابتسم خفيفًا وقال:

- لا نريدها معارضة لحكمة الأجـداد بشـكل سـافر فلنجعلها مكملة لحكمتهم.. فهم يقولون "قـل كلمتـك وامضِ ".. ونحن سنزيد عليها ".. إن قلت كلمتـك.. فلا تمضِ.. "
- هي أيضا تحمل شكل المعارضة..

- لا تنس أن دعوتهم إلى القول (قل كلمتك.. وامـض) لا تحمل في طياتها الإجبار على القول.. فهذه الدعوة سيختار بعض الناس قبولها.. والبعض الآخر – بـل الكثرة منهم – سـيهابون مجـرد القـول لينعمـوا بالأمان.. ونحن هنا نخاطب من تصدى للقول.. أي نخاطب من الناس الصنف الشجاع.. ونـدعوه إلـى مزيد من الشجاعة.. فشجاعة القول واجبة.. وشجاعة حماية القول أكثر وجوبا.. ومعنى هذا أنه لا يجـب أن يطلق القول إلا من يستطيع حمايته.. معنى هـذا أننا نبحث عن الحكيم الفارس.. أو الفارس الحكيم..
- هذا بالفعل التعديل الملائم.. والذي يجب أن يفهمـه أحمد منصور..
- لا نريد لأحمد منصور أن يفهمه فقط بل يجـب أن يسجله تحت شعار حزبه..
- إذن فأنت مقتنع معي بضرورة إحياء أفكاره..
- بل وإحياء فكرة حزبه.. هذا هو الوقت الملائم فهـا أنت ترى ما يعترى العالم العربـي مـن مخـاض

فالجماهير نددت في المظاهرات بكل ما هو موروث وعقيم ومتعفن وتطالب بالتغيير..

- إذن يجب أن نسهل على أحمد منصور أمور التنفيذ.. لا يجب أن نغرقه في الإجراءات المملة والرسميات العقيمة..
- أوافقك على ذلك يجب أن نمهد له الطريق ليقطعه مرتاحا بلا تعرجات أو منحنيات أو عوائق..ابحث عن الأشخاص الجديرين بهذه المهمة..

ورحنا نصنع قاعدة لمثلث يعلو قمته أحمد منصور.. دعه الآن في تهيؤ نفسي لاعتلاء تلك القمة ونحن نعمل على ترسيخ القاعدة..

- نحن اثنان.. وسوف أنجح في ضم (إمام إمام) وراوية عبد العظيم لنشكل جميعا القاعدة المطلوبة..

صوب مفتاح الصاوي نظرة فاحصة إلى وجهي وهو يتساءل:

- إمام وراوية..؟.. من هو إمام؟.. ومن هي راوية؟..

ورحت أقص عليه قصة إمام.. ذلك الفتى المتخصص في معالجة القلوب الهيدروليكية للمعدات الثقيلة.. وراوية تلك

الطبيبة المتخصصة في مسح الألم مـن قلـوب اليتـامى.. ومعالجة قلوب الناس.. وأفهمته أن إماما يـؤمن بشخصـية أحمد منصور من خلال معرفته به.. وأن أحمـد منصـور يضع إماما هذا كنموذج حي للمصري المتحضر.. أما راوية فقد وضعت يدها على حقيقة تجربة أحمد منصور ومشروعه الغافي من خلال قراءة كتابه ومن خـلال حـديثي عنـه.. وكلاهما – إمام وراوية – قالا كلمتهما ورضخا للقهر ولـم يبق في قلبيهما سوى المعاناة والألم..

قال لي:

- إذن فأنت قادم إلى إيقاظ قلبين من سباتهما؟..

قلت له:

- أنا مهيأ لإيقاظ نصف القاعدة..

سألني:

- والارتفاع؟..

قلت له:

- أحمد منصور لن يرنو إلينا من برج عاجي.. سـرعان ما سوف يتفاعل مع القاعدة.

عاد فسألني:

- إذن فنحن خمسة.. هل هذا يكفي لعمل قاعدة تأسيسية للحزب؟..

أجبته مسرعا:

- لو كنا نصبو إلى إطلاق حزب يهـدف إلـى تحقيـق الديموقراطية والعدالة وإحياء القومية المصرية فلا يجـب أن أقدم إجابتي إلا إذا اجتمع الخمسة اجتمـاعهم الأول باقتنـاع وحب.. يجب أن يقدم كل منا إجابته.. كيف سنكون؟.. وكـم سنكون؟.. وكيف سنمضى؟.. وفي ظني أن الغلبة سـتكون للرأي الذي يوافق عليه نصف القاعدة + الارتفاع..

سألني:

- وهل سيظل ضلعا المثلث خاليين؟..

أجبته:

- هذا ما يجب أن نبحثه..

تساءل:

- في الاجتماع الأول؟..

أجبته:

- أجل.. في الاجتماع الأول..

لاحقني:

- إذن فالأمر يقتضي أن نضمن موافقة إمام وراوية أولاً على الانضمام، ومن ثم نُعِد جدول الأعمال.. أليس لقضـية إمام التي قصصتها علي تأثير وهو يعد ملفه كرجل سـيبحر في بحر السياسة؟..

لا أعتقد فالرجل قد حصل على البراءة، ومازال في عداد المواطنين الصالحين.. ولا يعتبر من أصحاب السوابق بـأي حال..

لقد كان أحمد منصور يحاول تدريب نفسه على الخـروج من شرنقة الركود.. كان قد ارتاح لتلك الخيوط الشفافة، التي ظل يلفها حول نفسه حتى حجزته عن المرئيـات التـي راح يرنو إليها، من خلف خيوطه الحاجزة؛ فتبدو له راسفة فـي غلالة من القتامة والغموض..

وكأنه كان ذلك الذي قال كلمته ولهث.. فقد راح يتابع أثر كتابه في عالم الثقافة والمثقفين.. ثم راح يرنو بعين الفحص لمن يتحدثون عن كتابه ليجد أن أغلبهم قد قرءوا عن الكتاب وأن أقلهم هم الذين قد قرءوا الكتاب نفسه، ومن عجـبٍ أن

يجد أن من يتصدون لمعارضته هم الذين قد ألمـوا بـبعض القشور وراحوا يلوكونها بالشرح والإفاضة في إصرار يبدو فيه افتعال التعمق والإبحار.. عكس القِلة الرزينة التي ألمـت إلماما حقيقيا بكتابه وجلسوا فـي انتظـار انتهـاء ضـجيج البراميل الخاوية ليقولوا كلمتهم في تؤدةٍ وجلال..

لم يكن أحمد منصور يعلم أن إرهاقه سيمتد إلى ما بعـد نشر مؤلفه الضخم.. ظن أنه سيقول كلمته ويرتاح.. ويركن إلى هدوء ما بعد انتهاء العاصفة.. ولكنه في تنقـله مـن دعوة إلى دعوة أخرى في مختلف المنتديات الأدبيـة أسـلم نفسه لبريق الاهتمام.. اهتمام الآخرين به.. وبمشروعه.. وقد خدعه هذا البريق في أول الأمر وظن أن الانتشاء، والانتشاء وحده هو الشيء الذي سيعود به قريـرا بعـد كـل نـدوة، وسرعان ما راح يستعد لما هو عكس ذلك، فالغضب أحيانًـا كان هو رفيقه في العودة..

لم يشفع له إعلانه المسبق لقرائه أنهـم سـيلتقون بـرأي صادم أو قول مزعج أتى به لهـم مـن أضـابير التـاريخ المنسي.. لم يتأملوا تحذيره المسبق بما يناسـبه مـن تعبئـة وتأمل ولكنهم رغم ثقافتهم انحازوا إلى مـا يعرفونـه مـن

دروس أُمليت عليهم في الصغر، وملأوا بهـا أنفسـهم بعـد الكبر.. ذلك الإملاء الذي يجنح له المرء باختيار ما يناسـب قناعاته الراسخة منذ البدايات..

وكان أكثر ما أجهده في حوارات المنتديات والندوات هو تلك التسمية التي أطلقها باقتناع حول الفتح الإسلامي عنـدما أسماه الاحتلال الآسيوي.. ثم عندما راح يؤكد أن ما حـدث من نضوب في المدخرات والمحاصـيل الزراعيـة وعـدد السكان كان مرجعه إلى أن عمرو بن العاص لم يكـن ذلـك المستعمر المتحضر، الذي من شأنه العمـل علـى ازدهـار الزراعة، وهو القادم من صحراء لا تعـرف الزراعـة، أو الحفاظ على مدخرات القبط وهو الذي استولى على أجـزاء كثيرة منها، وأرسلها إلى الجزيرة العربية.. لقد فعـل ذلـك مرتين كانت قناطير الذهب في كل مـرة هـي الإرسـالية الفخيمة التي تعبر الحدود..

لقد ثار الشباب في وجه أحمد منصور.. وهو يرنو إلـيهم بابتسامة مهدئة مرددا: " أرجو ألا يأخذكم الظن إنني سمحت لنفسي بتأليف هذه الوقائع.. كل ما حدث إنني أتيت لكم بهـا من كتب التاريخ.. التاريخ المنسي.. "

لقد كان يلمح منذ البداية نُبل مشاعر من سيتلقـى كتابـه الصادم وكيف ستدفعه تلك المشاعر إلـى مهاجمـة الكتـاب وصاحبه.. فقد قال أحمد منصور لنفسه: إن كان أغلب هؤلاء الشباب قد وضع يده على تاريخه وتاريخ أجداده عبر قـراءة عدة صفحات – لا عدة كتب – هي تلك الصفحات المنتقـاه والمختصرة والموشاة بنعرة القومية والتحضـر والتـي راح يحفظها التلاميذ في قاعات الدرس بشكل تقليـدي.. وطالمـا رسخ هذا الأمر في قلوبهم وفي نفوسهم رسوخ القرآن الكريم فإن خدش هذا الميراث لن يمثل سوى جريمة تندرج تحـت جرائم خدش الثوابت وازدراء الشرف المصون..

ولذا فقد عقد العزم على مـا أسـماه بالإصـرار علـى المواجهة أو على المواجهة بإصرار.. فنحن أمـة تكالبـت عليها الأمم وشوهوا حضارتها وأننا لـم تعـد نملـك لهـذه الحضارة سوى التباكي عليها في لحظات الشعور بالفقد الأليم أو الشدو بها في لحظات التفاخر الـذميم.. تفـاخر باللسـان يغمض العين عما يعترى النفس من هوان.. فالواقع يقول أننا هنّا كما هانت أحجار المعابد على ذاك الثـرى.. وأن تفكـك

هذه الأحجار واندثار الكم الأكبر منها يشير إلى تفكك آخـر اعترى فينا النفوس ووأد فينا الأمل..

ويعود أحمد منصور فيقول لنفسه ثم لمـن حولـه مـن المخلصين: قيمة الصدمة هي أن تتذكر تاريخك المرير ثـم تعترف به ثم تعمل على استعادة صـفحاته الناصـعة، تلـك الصفحات التي لم يلوثها الاستعمار ولم يلطخهـا الـدخلاء.. وقد لخص الرجل مشروعه في عدة كلمات هـي: اسـتلهام روح القومية المصرية..

ثم راح يفسر ما يراه من توجه كان يجب أن يكون هـو التوجه القومي الذي كان يجب أن تتبنـاه كـل الحكومـات المتعاقبة منذ أول حكومة للثورة وهو: تأصيل روح القوميـة المصرية.. وأن ما فعله جمال عبد الناصر من إعلاء رايـة القومية العربية هو مشروع كان به من نبل الكرم ما يجعـل هذا الكرم بلا معنى.. هذا لأنـك أدرت وجهـك لواجهتـك ورحت تزين واجهات الآخرين وتثير الفخر بهم وبمشروعك الأكبر.. مشروع القومية العربية.. وكان أولى بك أن تـزين واجهته القومية المصرية.. أولاً..

كنا نفهم ما يصبو إليه أحمد منصور.. وكثيرا ما احتـدم النقاش فيما بيننا ولكننا جميعا اتفقنا أن تأصيل مبادئ الأجداد العالية واستلهام روح حضارتهم الغاربة هو نوع من البنـاء الذي لا يحتاج إلى هدم القواعد القديمة وإعادة بنـاء قواعـد جديدة.. فبما أنك ستقيم بناء صرحك الجديـد علـى نفـس الأرض وفي نفس موقعك القديم؛ فمن الهـراء والعبـث أن تزيل قواعد الأجداد، لأنك بأي حال لن تسـتطيع أن تصـنع مثلها.. ولكن كفاك ما تركه لك الأجداد من قواعـد جـديدة باستقبال ورسوخ كافة طوابقك الجديدة.. طوابقك العصرية.. ليلتها قال له مفتاح الصاوي:

- كلامك هذا ذكرني يا ابن منصور بما يفعله الهولنديون بمدينتهم أمستردام.. فعندما زرت معرض فان جوخ.. رأيت أن واجهته الخارجية مغرقة في الكلاسـيكية.. وأن توزيعـه الداخلي مغرق في العصرية.. واكتشفت أن هـؤلاء النـاس يحافظون على الحـوائط الخارجيـة لمبـانيهم القديمـة ولا يهدمونها إذا شرعوا في عمل بناء جديد.. فهم يعمدون فقـط إلى إزالة الحوائط الداخلية ووضع تصميم حـديث للمبنـى تكون واجهته الخارجية هي نفس واجهة المبنى الذي أزالـوا جدرانه من الداخل.. ومن هنا فقد قلت لمن حولي: لو صحا

مواطن هولندي من ميتته التي مضى عليها أربعـة قـرون، وتجول في مدينته، لاكتشف أنها هي نفس المدينة التي مـات وتركها على هذه الحال..

التقط منه أحمد منصور خيط الحديث وأضاف:

- هذا لأنهم لا يملكون من عبق الأجـداد سـوى تلـك الحوائط الصماء ولكني أتحدث عن البناء الفكري والعقائـدي الذي يكمن في المعابد والذي يمكنك أن تراه كقيمة منظـورة خلف هذه المعابد.. فأنا لا تهمني المعابد كبنـاء.. بعـد أن تحولت حجارتها إلى أطلال تحكي كيف هانت هـي علينـا وكيف هنّا نحن على الناس ولكن يهمنـي المعنـى الفكـري الكامن خلف بناء هذه المعابد..

سأله مفتاح الصاوي:

- ألا يجب أن نكون من أنصار الواقع ونسمي الأشياء بمسمياتها ولا نتأثر بالموضوعات الإنشـائية التـي يزعجنا بها بعض الكتّاب من آن لآخر، بموضـوع استلهام المعنى الفكـري الكـامن خلـف تاريخنـا الحضاري، الذي يمتد إلى سبعة آلاف سنة؟.. فسـر لي بربك.. كيف يتم هذا الاستلهام..؟ أم هـو كـلام مرصوص منمق لا يقبل التطبيق.. وكفي..؟..

قال له أحمد منصور:

- رغم علمي أن التاريخ لا يعطى نموذجين متشـابهين.. وأنه من العبث بل ومن الصعب تقليد اليابان، إلا أن أقل مـا يمكن اقتفاء أثرهم فيه هو إصرارهم على إنجـاز نهضـتهم الحديثة، مع الحفاظ على ثقافتهم الداخلية.. لقد أنجزوا الحداثة وحافظوا على الهوية الخاصة.. فأنا لا أدعو إلـى الانكفـاء على النفس والاعتماد على العوامل الداخلية وأنا أنشد النهضة ولكني أرى أن العامل الخارجي هو الذي سيساعدني علـى تحقيق هذه النهضة إن لم يكـن معاكسـا لمنظومـة القـيم التاريخية التي أعتز بها.. فيجب ألا ننسي أن الغرب خاصة أمريكا – كعامل خارجي – هو الذي دعم نهضة اليابان..

هتف مفتاح الصاوي:

أمريكاااا؟.. ها نحن قد ذهبنا بأقدامنا إلى مربط الفرس..

لاحقه أحمد منصور:

لا يكفي أن تذهب بأقدامك إلى هذا الفرس لـتملأ عينيـك بمنظره الخلاب.. يجب أن تمتطيه..

قلت له:

إذا امتطيته فهذا أيضا لا يكفي.. إذ يجب أن أحركه نحـو وجهتي..

قال أحمد منصور:

لن تستطيع.. فهو فرس يعرف وجهته وينشدها، ولا مانع لديه أن يأخذك إليها طالما أنت في صحبته..

علق مفتاح الصاوي ضاحكًا:

إذن فالراكب هنا مركوب؟..

حملق فيه أحمد منصور ذاهلاً:

تلك هي أمريكا فعلاً.. الراكب في صحبتها.. مركـوب.. أنت لا تقول نكتة.. أنت تلخص استراتيجية حكّام الكـون.. وأباطرة كوكب الأرض الحاليين..

سأله مفتاح الصاوي:

- ماذا تعني؟..

أوضح لنا أحمد منصور:

- أعني أننا بحاجة إلى استخدام تلك السياسـة.. سياسـة الراكب المركوب.. لابد أن نضع في اعتبارنا مداعبة أمريكا وذلك باستخدام معطياتها التي تتشدق بها بعد نجاحهـا فـي

أفغانستان.. وقرب اقتحامها للعراق.. إنها ترتب – أو تعيـد ترتيب – تلك البيوت التي خربها حكامها.. وهي في طريقها إلى ترتيب باقي البيوت.. كل البيوت الخاوية على عروشها، والتي لا يطل على العالم الخارجي منهـا سـوى واجهـات زائفة.. أمريكا لمحت ما تحويه تلك البيوت مـن الـداخل.. ظلام.. وفقر.. وظلم.. والخفافيش تملأ الأركان.. الخفـافيش تنطلق رغم الحراسة المشددة على المـداخل.. تطيـر إلـى الخلاء لتمتص بعض الدماء.. والحراس يعتذرون.. لم يعـد هناك سبيل إلى الاعتذار.. الحل هو: إزالة الحراسة المقيتة.. وتحطيم الواجهات الزائفة.. وإزاحة الظلام بإطلاق النـور.. النور يعشى عيون الخفافيش.. الخفـافيش إن لـم تنسـحب ستموت.. وهنا تستطيع أن تقـيم الحـوائط الجديـدة علـى أساساتك وقواعدك الأصيلة.. تستطيع إزاحة الفقر والظلم من على قاعدتي التنمية والعدالة..

هتف مفتاح الصاوي ساخرا:

- إذن فأنت ترى أن أمريكا ستقيم لـك هـذا المشـروع النبيل؟.. تخليصك من الفقر والظلم..؟..!!

أكد له أحمد منصور:

- لن تصل إلى هذا الإصلاح إلا بمساعدة أمريكا وامتطاء مشروعها المعلن.. بث الديموقراطية في بلدان العالم الثالث.. و..

هز مفتاح الصاوي رأسه عدة مرات حتى لا يكمل أحمد منصور..

- أجل.. أجل.. هي ستفعل كل ذلك وأكثر.. مقابل ماذا؟.. يعني ما هو الثمن الذي ستناله أمريكا مقابل ذلك؟..

قال أحمد منصور مستسلما:

- فلتأخذ أي ثمن؟.. ما هي المشكلة؟.. من في هذا العصر يعطي.. ولا يأخذ؟.. ألا يجب أن نكون واقعيين؟..

قلت له: إذن فأنت تريد أن تصل ومعك أمريكا إلى ما أراد عبد الناصر الوصول إليه بدون أمريكا..

ردد أحمد منصور:

- أجل.. أجل.. لقد أبعدهم عبد الناصر حتى يكمل مشروعه القومي.. فلم يبتعدوا وحطموا بنايته القومية قبل أن يعلو بأساساتها.. فعلوا ذلك.. مع سبق الإصرار..

ثم توقف قليلاً عن الحديث وراح يوضح رأيه الأخير في هدوء:

- عبد الناصر تعامل في مشروعه بنبـل وقـوة الثـوار الشرفاء..عبد الناصر ظل متمسكًا بقوته حتى بعد الهزيمة.. هل تعلم أنهم ساقوا عليه طوب الأرض في مباحثات سـرية ليعيدوا إليه كل سيناء مقابل صلح منفرد معهم.. وأنـه قـد رفض هذا العرض بشدة.. العرض الذي تبنته أمريكا بطلب من إسرائيل.. وصمت أحمد منصور قليلاً ثم واصل:

- لقد تذكرت بيتـًا من الشعر للشاعر محمـد الشـهاوي يقول:

" قد كان يمكن للمتنبي الفرار

لكنه قد أبي.. "

فلم يكن للمتنبي أن يتخلص من مبادئـه وقيمـة وعمـق رسالته التي ظل يهديها للبشر في سبيل أن ينجو بحياته فـي لحظة جبن كان يمكن أن يفر فيها أمام قاطع طريق.. ولكنـه تذكر وتمسك بما حفظه الناس عنه من أنه الشـاعر الهمـام الذي يعرفه الليل والخيل والصحراء.. ولم يكن بالتالي لعبـد الناصر أن يسحق مشروعه القومي تحت حذاء الجبن وطلب

الخلاص ويصافح الأعداء على مرأى من الأصدقاء الدامعين قهرا وخيبة أمل.. أليس هذا هو نُبل الثوار الشرفاء؟.. الثائر الذي لا يفصل بين ما يقوله وبين ما يفعله.. الشريف الـذي يجب أن يسبق فعله قوله.. لقد دفع عبد الناصر ثمن شـرف موقفه.. فمات مقهورا بيد أعدائه.. ودفع السادات ثمن تعجله وحسن نيته فمات مقتولاً بيد أبنائه.. فتجربة عبد الناصر لـم تعد قابلة للتكرار وهو الوقوف عند الطرف البعيد جدا مـن أمريكا.. وفكرة السادات يجب ألا تتكـرر وهـي الارتمـاء بشغف فـي حضـن أمريكـا.. انهـض أولاً بمشـروعك المصري.. أوجد حلاً لوحش الجوع الذي يظهـر.. وطـائر العدالة الذي يغيب وهنا ستبرز للعالم شخصية قرءوا عنهـا كثيرا.. وغابـت عـنهم طـويلاً.. شخصـية المصـري.. الفرعوني.. القبطي.. الذي أشبع العالم في سالف الأزمـان.. ولم يعان الجوع.. ولم يسحقه القهر.. فتمتعت روحه بالحرية وتشبعت دواخله بالانطلاق فقبض على ناصية الإبداع حتـى صار: البنّاء.. المثّـال.. الفلكـي.. الكيميـائي.. الفنـان.. الزارع.. الحاصد.. الطبيب.. المكتشف.. السائح في أقطـار الأرض.. الفصيح.. العابد.. الروحاني المقـدس.. الرقيـق

المتحضر.. المخترع.. وتلك هي إمكأنياتنا الحقيقيـة التـي تتسرب من بين أصابعنا كالرمال.. ولم نجد – حتـى الآن – من يعلمنا كيف نقبض عليها ونعيد صياغتها علـى ضـوء العصـر ومعطياتـه فنـدخل فـي صـندوق المنتجـين لا المستهلكين.. وأن نوضع في قائمة البشر الذين يجيدون البذل والعطاء.. لا الذين يعيشون على المِـنَح والاسـتجداء.. وأن تعود إلينا كرامتنا بعد طول غياب.. وأن تفكر أمريكا وغير أمريكا في شد الرحال إلى بلادك.. وأن تدق أبوابك أكف القوم النابهين يطلبون منك التواصل ويعرضون عليك المشـاركة وشرف دفع ورفع منظومتك..

وكأنه أزاح ثقلاً كان جاثما فوق صـدره.. فعمـد إلـى سيجارة فأشعلها وقد سرح ببصره بعيـدا..فـانبرى مفتـاح الصاوي ودفع إليه بسؤال فيه من الحرج والمشاغبة أكثر مما فيه من طلب المعرفة..

- أراك عرجت على عبد الناصر فقلت عنه مـا قلـت وكذلك السـادات.. لمـاذا تتحاشـى ذكـر حسـنى مبارك..؟.. هل أنت من هـؤلاء الـذين يمسـكون فراملهم عند ذلك الخط الأحمر.. خط الخطر؟..

بادر أحمد منصور فواجه مفتاح الصاوي بشجاعة..

- لا.. أحمر مين وأخضر مين..؟ يا سـيدي حسـني مبارك استلم مفاتيح الحكم.. وبها بعض المفاتيح التي لا تصلح لفتح بعض الأبواب.. وهذا ليس سـرا إذا حللت المقولة الشهيرة لأنور السادات من أنه وعبـد الناصر آخر الحكام الفراعنة.. وأن مـن سـيتولون الحكم بعدهما – أو بعده بالتحديد – سيكونون مجرد موظفين.. ويجب أن تلمح هنا عمق الإشـارة إلـى معاهدة كامب ديفيد تلك المعاهدة التي قيدت مصـر وشلّت حركتها الوطنية.. فليس لك أن تـنقض هـذه المعاهدة التي تحميها أمريكا.. وليس لك أن تشاغب إسرائيل على المستوى السياسي.. مـا بالـك بـأي مشاغبة عسكرية.. من المؤكد أن أي تفكير أو تحرك من هذا النوع سيعود بك إلى نقطة الصفر إن لم يكن إلى ما هو تحت الصفر بمراحل خاصة بعد وضوح تلك المشاركة الحميمة بين أمريكا وإسـرائيل علـى المستوى العام وها هي تفتح لها الأبواب بابا بعد باب دون عقد مكتوب.. أرهقت العراق وحجمت ليبيـا..

وأرعبت سوريا.. وتحاول أن تـأتي لها بإيران فوق طبق من فضة.. كل هذا ولا يشغلهم البـاب الـذي أغلقوه منذ ربع قرن مضى.. باب مصر..

- إذن فأنت تلتمس له العذر..؟

أجاب فورا:

- وألتمسه لنا جميعا.. فكلنا يتميز غيظًا.. كلنا لا نملك إلا ذرف الدموع على فلسطين والعراق.. ويتملكنـا الخوف على سوريا وإيران.. ولا نملك إلا الجلـوس أمام شاشات الفضـائيات نرقُـب – ولا نراقـب – المهازل التي تحدث.. ونسد آذاننا لبعض الهتافـات التي تنادينا في مظاهرات الغضب: أيـن أنـت يـا مصر؟..

قال له مفتاح:

- نسدها خجلاً بالطبع.. لا جبنًا أو تخليا..
- لعله بالنسبة لك هو الخجل أو قلة الحيلـة.. ولكنـه بالنسبة لهم هو الجبن والتخلي..

قلت للصاوي أن يضع أمام أحمد منصور تصوره لإحياء فكرة حزبه المأمول.. كان صوتي متهدجا.. وغصة في قلبي

تتحرك ربما لاكتشافي الآن أننا بصدد بدء السير في طريـق طويل لا نهاية له.. طريق لعل ما به من مصـابيح خافتـة متباعدة على أحد جانبيه لا تكفي للرؤية.. أما الجانب المظلم فيه؛ فأخشى ما نخشاه أن يكون ظلامه حجـب عنـا تلـك الأدغال الكثيفة التي تمرح فيها الوحوش الكاسرة والحيوانات المفترسة.. وقلت لنفسي كيف لنا أن نجلس بهـدوء وثقـة، لنسطر لشعب مصر برنامجا وطنيا ننتشله فيـه مـن الفقـر والخوف والهوان لنسمو به بين الشعوب؟.. كيف لنا أن نفعل ذلك وليست لدينا إجابة واضحة ومحددة لسـؤال يجـب أن تعرف إجابته؟..

- كيف ستتخلصون من ذلك المولود اللقـيط.. كامـب ديفيد؟.. هل نملك القدرة على إثبات أنه أتى سـفاحا ولا يتمتع بشرعية الإنجاب.. وهل لـدينا الجسـارة لمواجهة من سيعيبون علينـا التنكـر لـذلك الابـن الضال؟.. الحقيقة أنه: لا التخلص من قـدرتنا.. ولا الإثبات في حوزتنا.. ولا الجسارة ضمن ما نمتلكه.. والتنكر سيكون هو السبب المباشـر لضـربنا فـي مقتل..

كان الصاوي آخذًا في تقديم مشـورته وأفكـاره لأحمـد منصور.. حين اكتشف أنني بعيد عنهما بهواجسي.. فلكزني خفيفًا وهو يهتف:

- أين أنت..؟..

لم أجبه عن سؤاله.. وإنما وجهت إليه سؤالاً:

- هل يمكنك أن تذكرني بشعار الحزب المرسوم؟..
- الحصان الجامح..
- وشعاره المكتوب..؟
- إن قلت كلمتك لا تمضِ..
- واسم الحزب؟..
- حزب مصر.. الأم..
- هل هو اسم مؤقت؟..

تبادل النظرات مع أحمد منصور:

- الإجابة عند ابن منصور..

تنحنح أحمد منصور ثم قال:

- من ناحيتي فهو الاسم المطلوب.. ولا أدري إن كـان لكما رأي آخر حتى نخرج للناس بالاسم النهـائي.. ولكنـي

سعيد بما اتفقتما عليه من شعار سـيكتب تحـت الحصـان الجامح.. إن قلت كلمتك لا تمض..

ثم هز رأسه وهو يفكر بعمق:

فعلاً.. لا يكفي أن تقول كلمتك.. انتظر حتـى يسـمعها الناس.. وانتظر لتحميها من أعدائها.. وانتظر لتغذي مفعولها عند من يأخذ بها.. وانتظر حتى تنعم بسحر مفعولها عند من نعموا بها..

فأزاده مفتاح الصاوي فقرة جديدة:

- وانتظر حتى تدفع ثمنها في المعتقل إن كانت لا تروق للحكام..

هز أحمد منصور رأسه موافقـًا..

- سأنتظر..

- إذن.. يجب أن يكون لدينا شعار بديل: " قـل كلمتـك وامض إلى السجن "..

قالها مفتاح الصاوي وهو يطلق ضحكة عالية مـن كـل أعماقه.. وأحمد منصور يراقبه بابتسـامةٍ خافتـة.. وفكـرٍ شارد..

* * * *

(٩)

" الراقصون الجياع على سلم الحيرة "

كان مفتاح الصاوي يجلس في الصـفوف الأولـى وهـو يتميز غيظًا مما يسمعه في خطبة الجمعة.. فرغم حبه لهـذا الإمام الخطيب واقترابه منه على المستوى الشخصي وتأكده أن هذا الشاب النابه لا يمكن أن يحصيه المرء ضـمن مـن يحصيهم من أئمة يسيرون بجانب الحائط ولا يعتلون منابرهم إلا بأوراق هي المنشورات تـأتي لهم من الوزارة أو هؤلاء الذين يلتزمون التزاما حرفيا بتعليمات رؤسـائهم مـن نبـذ الحديث في السياسة والالتزام بتيار الحكومة والسـباحة فـي اتجاهه..إلا أن ما يسمعه اليوم من هـذا الشـاب لا يمكـن وصفه سوى بالاجتهاد المخجل.. فهو يطالـب الحكومـات العربية في الدول البترولية بالتـدخل لحـل أزمـة مصـر الاقتصادية ومعها اليمن والسودان بتوزيع زكاة المال علـى هذه الدول لإنقاذها من الجوع وراح يحسب المليارات التـي ستنعم بها هذه الدول الفقيرة فيما لو حصلت على.. (اثنـين

ونصف بالمائة) من دخول السعودية والكويت وقطـر وكـل دول الخليج.. "

فمن كل أربعين مليارا يا سادة لنا مليار.. وهل تعلمـون مقدار ما نعمت به هذه الدول مـن دخـول طـوال الحقبـة البترولية التي انتعشت بعد حرب أكتوبر الحرب التي بسببها سبحت هذه الدول في بحور العز والسعادة.. بحور تخضبت بدماء المصريين؟..

لقد حصد أثرياء العرب – هكذا قال الإمام – ما يزيد على اثني عشر تريليونًا من الدولارات.. والتريليون يا سادة يكتب هكذا – وأشار بيده – واحد وأمامه اثني عشر صـفرا.. أي اثنا عشر ألف مليار دولار.. بواقع ٤٠٠ مليـار دولار فـي العام الواحد.. أنعم ا بها عليهم بخير تدفق من تحت أقدامهم طوال ثلاثين عاما مضت.. فتأملوا معي فيما لو حرصت هذه الدول الثرية على ما يحرص عليه الأثرياء الأسوياء ودفعوا زكاة المال للفقراء الذين يحيطونهم.. اليمن فقير.. والسودان فقير.. ومصر أصبحت دولة فقيرة.. وتلك هي دول الجـوار لتلك البلاد الثرية وأقل ما يجب أن يتحلى به الجار الثرى هو أن يطعم جاره الفقير.. هكذا أوصى الرسول.. تأملوا معي ما

كان يمكن أن نحيا فيه لو كنا حصلنا على نصيبنا من عشرة مليارات سنويا.. كان من الممكن لمصر أن تحصـل علـى أكثر من نصفها بحكم عدد السكان.. ستة مليارات على الأقل في العام الواحد.. أقول هذا.. وأذكركم بالثمن الذي حصـل عليه السادات من أمريكا مقابل عمل صلح منفرد مع إسرائيل (ملياري دولار في العام).. ما أبخس هذا الثمن الذي أخرجنا من الصف العربي وجعل العرب أنفسهم يزيحون عن قاماتنا ثوب الشرف والبطولة ويتعاملون معنا المعاملة التـي تليـق بشخص قبل على نفسه تجرع كأس الهوان والتبعيـة.. وإن كان العنوان الذي واجههم به نظام السادات هـو أن مصـر للمصريين وأننا يجب أن ننفض أيدينا من الحروب ونتفـرغ للتنمية.. وإن كان ما حدث أننا لا كسبنا بطولـة المحـارب الصامد.. ولا نجحنا في التنمية وصـرنا كـالراقص علـى السلم.. صرنا الراقصين الجياع.. لا يعلم العالم بمـا نحـن فيه.. رقصنا باهت.. وبطوننا خاوية.. فمدوا لنا أيـديكم يـا أُخوة العرب.. فنحن في النهاية الأخ الأكبر الذي جار عليـه الزمن وأنهكته الحياة.. "

كان مفتاح الصاوي يباغته بين لحظـة وأخـرى بنظـرة ملؤها الغيظ مما يقول والرجاء في أن ينتهي من هذا الكلام.. والشاب الفصيح الثائر لا يلحظ نظرات مفتاح الفنـان الـذي يأنس إليه في مرسمه من آن لآخر صارفًا لديه بعض الوقت المليء بالمشاغبة.. فالإمام الشاب تعجبه بعض اللوحات ولا تعجبه كل اللوحات.. والجانب الـذي لا يعجبـه هـو تلـك اللوحات التي تفصح عن جسم المـرأة وتكـاد تنبـئ عـن عورتها.. ولا يعجبه ما يقوله مفتاح عن أن الجمال الإلهـي الكامن في القوام البديع لحواء هو نفس الجمال الذي يشـدك للوردة الناضجة ووجه الطفل البريء وانسيابية قفزة الحصان الرائعة وجلال نهر النيل عندما تنسكب فيه دمـوع الشـمس الغاربة.. وكلها إبداعات إلهية تجعلك تهتف من كـل قلبـك: ا .. وهذا الهتاف الفطري العفوي المشدود بقوة الحب والوله هو عمق التعبد والتهجد في قدرة الخالق.. إن الإمام الشـاب يقف حائرا أمام ما يقوله الفنان " مفتـاح " الرجـل المـليء بالفكاهة والحب والكرم ويقول له: أنتم تفلسفون الأمور أيهـا الفنانون.. الحلال بين.. والحـرام بـين.. وبينهمـا أمـور مشتبهات فدع ما يريبك إلى مالا يريبك.. يمكنـك أن تلقـى

نفس الاستحسان إذا رسمت لي امرأة محجبة لا يظهر منهـا سوى العينين.. ألا يمكنك أن تحصل على كل معاني السحر في تركيزك على رسم هذه العيون؟.. ثم يؤكـد لـه الإمـام الشاب أن الإثارة التي تنشدها تكمن في إخفاء ما يثير..

ويطول الجدل بينهما ولا يلتفت الإمام الشـاب إلـى مـا يرويه مفتاح من أن الرسول (عليه السـلام) لـم يسـتنكف الفرجة من شباك بيته على مغنية زنجية وهو يقـف خلـف عائشة.. ولو كان قد أشاح بوجهه الكـريم وأغلـق الشـباك لأغلق على أمته لحظات الترويح عن النفس.. ثم يعود مفتاح لمقارعة إمامه الشاب بحديث شريف يقول: "روحـوا عـن قلوبكم ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلّت.. ماتت ".. والفن يا مولانا نوع من الترويح عن النفس.. ومادام هناك فـن.. فهناك فنان.. وشخصية الفنان أبعد ما تكون عـن شخصـية الموظف الذي يتلقى الأوامر في عمل ما من رئـيس مـا.. الأوامر لدى الفنان هي الإيحـاء.. والابتكـار.. ومطـاردة المجهول.. والرئيس عند الفنان هو فكره.. سيان كـان هـذا الفكر فكرا يقظًا أم فكرا غافيا.. إنه الفكر الذي يلهمـه بـه الخالق..

وينبري الإمام الشاب صائحا: لا.. إنه شيطان الفـن.. ألا تسمع من يقول فلان ركبه شيطان الشعر؟.. فيتصـدى لـه مفتاح موضحا كيف سري هذا المفهوم الخاطئ بين النـاس منذ أن ظن بعض العرب أن سحر الشعر أتى للشعراء من " وادي عبقر " الذي تسكنه الشياطين كما كانوا يظنـون.. وأن العبقري هو ذلك الساحر الذي أتى بما لا يأتي به سائر البشر من الوادي الشيطاني..

انتهى الإمام الشاب من خطبتـه.. وهـبط المنبـر.. وأم المصلين.. وأنهى صلاته.. وهناك ما يختمر في عقل مفتاح الصاوي من نية في إعلان رفضه القاطع لما قالـه صـديقه الإمام من توصية واقتراح يحمل شكل الاستجداء باسم فقراء مصر..

وفي لحظة مباغتة وعند انتهاء ختام الصلاة قفز مفتـاح الصاوي إلى الميكروفون مستأذنًا في كلمة قصيرة..

" لن أتحمل الذهاب بها إلى بيتي.. فقـد تقتلنـي.. ولـن أتحمل كتمانها فقد تذبحني.. فأنـا أفهـم أن يـذهب رئـيس وزرائنا أو يذهب رئيس جمهوريتنا نفسه إلى أحد أصـدقائه الملوك أو الأمراء ليطلب همسا بعض المعونة لميزانية هـذا

العام.. وإن حدث ذلك – إن حدث – فهو إجراء دولي تتعامل به الدول كما يتعامل الأفراد ويأتي في شكل اتفاقيات تعلـن بعد ذلك بما لا يحمل سر الصدقة التي يجب ألا تراها يسارك عندما تقدمها يمينك.. وكم شاهدنا اتفاقيات توقّـع أمامنا على شاشات التليفزيون لقروض ميسرة أو منح لا ترد.. أمـا أن يصل بنا الحال أن نستجدي طعامنا من فوق المنابر فهذا هو الهوان الذي لم يطلبه فقراء مصر لأنفسهم.. والذي يرفضـه الفقير مثلنا في اليمن أو الجائع مثلنا في السودان.. كنت أفهم أن يكون لدى إمامنا الفصيح ذى القلـب الثـائر والوطنيـة الجارفة ما هو أليق من هذا الاقتراح أو المطلب المهين كأن يتساءل: لماذا لا تتعاون العقول المصرية والسواعد اليمنيـة ورءوس الأموال الخليجية في زراعة ملايين الأفدنـة فـي السودان؟.. وأنا أرى أنه مادام قد نجح فـي جمـع أرقـام الدخول النفطية طوال ثلاثين عاما فقد ينجح فـي إثبـات أن زراعة أراضي السودان المستوية لن تكلف الكثيـر ولكنهـا ستـأتي لنا بما هو أكثر.. سنسد جوعنا.. ونصدر الفـائض عن حاجتنا للعالم.. وسنمنع سيطرة الفلاح الأمريكـي علـى رغيف خبز الفلاح المصري واليمنى والسوداني..

الخواجات يا سادة توصلوا إلى رأي قـاطع لمثـل هـذا الأمر.. علاقة الجار الثرى.. بالجار الفقير.. وتوجوا رأيهـم في ذلك بحكمة تقول:

" لا تعطه سمكة.. علمه كيف يصطاد.. "

فلعلكم تلحظون أن في قصة مريم القرآنيـة خيـر مثـال لذلك.. مثال تمجيد العمل وليس انتظار الخير يمطره لك ا دون عناء منك..

" وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليـك رطبـا جنيـا " صدق ا العظيم..

فكيف لسيدة تعاني المخاض بكل آلامه أن تحصل علـى الرطب الجِني بمجرد هزة من يدها الواهنة لجذع نخلة..؟.. لكنها اليد التي تعمل وفوقها يد ا التي ترزق صاحب النيـة في العمل.. كان يمكن لإمامنا النابه أن يلتفت إلى سـر مـا حدث لمصر.. وأن يعرج بنا بفكره السديد إلى المربع رقـم واحد في مسلسل تركيع مصر.. مسلسل التركيع الذي يبـدأ بفكرة التجويع.. لماذا ترك العرب مصر تحـارب إسـرائيل بأموالها وأبنائها طوال ربع قرن منذ عام ٤٨ وحتـى عـام ٧٣؟.. لأنهم خافوا أن يحكمهم الفراعنة فيما لو تخلصوا من

إسرائيل ودانت لهم المنطقة.. خاصة وقد ظهرت شخصـية جمال عبد الناصر التي ألهبت أكف الشعوب وألهبـت نـار الغيظ والخوف في القلوب.. قلوب الحكّام.. حاولوا أن يقتلونا في اليمن ونحن ندافع عن شعب فقيـر مظلـوم خاضـع.. وأفسدوا وحدتنا مع سوريا كأول بادرة لفكرة القوة والوحدة.. وسهلوا لإسرائيل طريق القضاء على مصر عبد الناصر في ٦٧.. ألا يتنافى ذلك مع ما فعلوه وقدموه لصدام حسين ليصد عنهم غزوا فارسيا محتملاً جاءهم في شكل دعوة إسـلامية بازغة تنتهي إلى ما تحمله فكرة القومية عند عبـد الناصـر ولكن في ثوب جديد؟ ثوب إسلامي.. كم دفعوا لصدام حتـى يورطوه في وقف التيار الفارسي؟.. ولماذا لم يـدفعوا لعبـد الناصر حتى يساعدوه في وقف العاصفة الصهيونية..؟ كيف نطلب منهم الزكاة والتصدق علينا ونحن نعلـم أن أمـوالهم يوظفها الأعداء بأنفسهم ولأنفسهم.. كيف نطلـب مـنهم أن يقووا شوكة مصر؟.. والمطلوب هو كسر شـوكتها؟.. لقـد خضع لهم السادات بعد ثورة الجياع عام ٧٧.. الثورة التـي كادت أن تقتلعه والتي ذهب بعدها إلى أعدائه في عقر دارهم مرتديا ثوب القوة الزائفة مغلفة بديكور الكاميرا الأمريكيـة..

هذا هو التركيع بعد التجويع الذي أقصده والذي أؤكد لكم فيه أن مصر لن تعلو إلا بمصر.. وأن خروجنـا مـن الصـف العربي كان هو النتيجة الحتمية لحرص كثير من العرب على إزاحتنا من مقدمة هذا الصف.. ألا تعلمون أن الملك الحسن الثاني كان يبعث للموساد الإسرائيلي عبر أجهـزة التنصـت بكل ما يدور في مؤتمرات القمة العربية والإسـلامية التـي تعقد في عاصمة مملكته؟.. ألا تعلمـون أنـه كـان يثبـت الميكروفونات الناقلة لهمسات الملوك والرؤساء فـي نفـس اللحظة؟.. كان يفعل ذلك وهو يستقبل عبد الناصر المخدوع بالأحضان ويودعه بالأحضان.. ألا تعلمون أن الخـط كـان مفتوحا بين جولدا مائير والملك حسين ينبئها فيه بكل ما يفكر فيه عبد الناصر في حـرب ٦٧؟.. ألا تعلمـون أنـه كـان حريصا على إبلاغ اليهود بما يعرفه عـن حشـود مصـر وسوريا ضد إسرائيل عـام ٦٧؟.. ألا تعلمـون أنـه كـان حريصا على إبلاغ اليهود بما يعرفه عـن حشـود مصـر وسوريا ضد إسرائيل عام ٧٣؟..

هذا هو قدر مصر.. لم يقبلوها إماما فـي أول الصـف.. وتركوها تلعق جراح الإرهاق والفقر وهي في آخر الصف..

إن مصر تعيش بعيدا عن دورها.. رغما عنها.. وهـا هـم يكتشفون أنِ الدائرة تنقلب عليهم وتدور بهم وهم يـرون أن الاستجداء الذليل لأرض فلسطين لم يجدِ نفعـا.. وأن إلغـاء السلاح من أيدينا تحول إلى مخالب جديدة في أيديهم.. وهـا نحن نكتشف أن عبد الناصر أنعم ا عليه برحيل هادئ قبل أن تستفحل وحشية أعدائه.. وإلا كان قد تورط فيما تـورط فيه صدام حسين من ذل وهوان وفرار في حفرة العنكبـوت مختفيا من تلك الوحشية المستفحلة.. وما هو الذنب الذي جناه صدام على نفسه حتى يكبل بالحديد؟.. ذنبه أنه لـم يعتـرف بإسرائل ولم يركع لأمريكا.. أما ما جناه على شعبه فقد كان هو مدخلهم إليه.. وما جناه على جيرانه كان هو التصـريح المعلن لاجتياح أراضيه.. وما هم فـي الأصـل مهمومـون بعذاب الشعب ولا بألم الجيـران.. ولكـن همهـم إخضـاع الطرفين ضمن جميع الأطراف والتربع على عروش بترولهم وإطلاق يد إسرائيل في المنطقة.. تحـت مسـمى الشـرق أوسطية..

أعود فأقول إن مصر لم تمت.. ولن تموت.. وإن الجوع في مصر ليس كالجوع في أي مكان آخر.. فمصر لا يمكـن

أن تجوع إلا إذا جاع العالم كله.. ولا يمكن أن تزدهر الحياة عندهم ثم تذبل عندنا.. إذن فنحن نمر بحالة من الصداع الذي يوجع الرأس وإن رءوسنا لم تنفجر بعد.. ولن تنفجر.. نحن نتخبط لأننا مازلنا نبحث عن مشروعنا الحقيقي.. المشـروع الذي يستوعب كل عقولنا وسواعدنا وأرواحنـا.. المشـروع الذي يجب أن نعثر به ونعثر فيه على حقيقة أمرنا.. وكيـف كنا وماذا يجب أن نكون.. المشروع الذي يقول إن مصر لم تتعود أن تمد يدها للاستجداء ولكنهـا تمـد يـدها بـالعون والمؤازرة.. مصر التي تعودت أن تكون هي الأم الـرءوم.. وليس الابن الضال..

ومن هنا أعلن لكم أن حزب " مصر الأم " هـو الحـزب الذي نعمل على إعلانه مع نخبة من الوطنيين الشرفاء والذي نعكف على استكمال قاعدته التأسيسية بفكر وضمير أبناء هذا الوطن مستمدين الغرض منه وفكرته وبيانـه مـن أفكـار النابهين الغيورين الذين أرسل لهم نداء عبـر هـذا اللقـاء المحظوظ ليبادروا بالاتصال بنا.. بمكتـب الأسـتاذ أحمـد منصور ابن بلدكم المحامي الذي يعيش بهم هـذا الـوطن - مصر الأم - منذ شبابه.. مضحيا بكل ما يملك فـي سـبيل

إثبات أن البداية الحقـة هي التي تـأتي من اسـتلهام روح مصر الفرعونية.. مصر القومية.. مصـر التـي لا تعلـو بالعرب ولن يعليها العرب.. ولكنها عندما تعلو بنفسها أولاً.. ستعلى شأن العرب.. ثانيا.. "

وبكل ثبات وهدوء وقوة أنهى مفتاح الصاوي كلمته التـي أخذت من الحضور آذانهم وقلوبهم وكل خواطرهم الوطنيـة التي كانت راكدة فصحت.. وكانت غافية فاستيقظت.. ظهـر ذلك في حالة الانبهار التي سادت حوله فهـرول المصـلون نحوه عناقًا وتقبيلاً واستحسانًا حتى لقد شاهدوا الإمام نفسـه ينخرط بينهم محاولاً الوصول إلى صديقه الفنان الذي فاجـأه بهذه الخطبة العصماء ردا على خطبته التي طـاش تأثيرهـا وتبدد وانزوى مفعولها خجلاً وفتورا.. كانوا يسـألونه عـن عنوان مكتب الأستاذ أحمد منصور.. وكان يجيبهم بابتسـامة دمثة وهو يسير الهوينى بين صفين من المصـلين الوقـوف متأهبين للخروج معه.. واكتملت الحلقات خارج المسجد من أناس أدهشهم أن يسمعوا هذا الهجوم المؤدب علـى الحكـام العرب.. والهوان الذي ظل يجمعنا معهم في بوتقة من صنع أمريكا وإسرائيل..

الجزء الثاني

على حافة الحكم و... الهاوية..

(١)

" زدني علما بتعريف الفَشَل..أيها الشاعر"

لم يتسن لمفتاح الصاوي مشاهدة وحضور تلك الأفـواج من البشر الذين جاءوا - على إثر دعوته – لتسجيل أسمائهم ضمن مؤسسي حـزب (مصـر.. الأم).. ذلـك أن مفتـاح الصاوي كان رهن التحقيق في نفس الوقت أمام رجال أمـن الدولة الذين انتبهوا على عدة بلاغات من عيونهم المبثوثة في كل مكان تشير إلى ظهور شخصية يرونها لأول مرة تحمـل بذور الثورة والتمرد والتحـريض.. وأنـه – كمـا أوردت التقارير – " يرفض نظام الحكم الحالي.. ويرفض العلاقـة " الأخوية " مع أمريكا.. والتطبيع مع إسرائيل ويرفض الحكام العرب (خاصة الملوك).. ويرفض اتفاقية كامـب ديفيـد.. ويلعن السادات.. والأدهى من هذا كله أنه يدعو لإقامة حزب جديد أسماه حزب (مصر.. الأم) "..

وراحت التقارير السريعة تصف هذه الشخصية.. بدءا من اسمه مفتاح عبد المولى الصـاوي.. فنـان تشـكيلي علـى

المعاش.. لا يشاهده الناس إلا راكضا في الصـباح البـاكر وسط أشجار ومتنزهات القناطر الخيرية.. يعكف طوال وقته على الرسم والقراءة.. يزوره أبناؤه بشكل منتظم في أجـازة نهاية الأسبوع قادمين إليه من محل إقامتهم بالقـاهرة.. لـم يشاهد - إلا منذ شهور قليلة - يزور أحد مـن النـاس، أو يزوره أحدا.. لوحظ أنه وطد علاقته خـلال هـذه الشـهور بشخصيتين قريبتين من مزاجه الشخصي وتوجهاته الثقافية.. أحدهما أديب وشاعر مسيحي اسمه جورج مكسيم.. والثـاني هو المحامي الشهير أحمد منصور ".. ثم عرج التقرير على تسجيل نبذة سريعة عن جورج مكسيم هذا.. إذ أنـه " كـان محسوبا وبشكل بارز على الجماعات الشيوعية قبل تفككهـا ونزولها إلى باطن الأرض إما هربا أو تحفزا.. ولكنـه فـي مجمله يعتبر من المعارضين الذين يصفون أنفسهم بالتقدميين الذين لا يترددون في إعلان غضبهم على النظـام فـي أي مجال أو لقاء أدبي أو تجمع ثقافي يتيح لهم ذلك.. أما أحمـد منصور فهو: معروف لكم ولا نملك المزيد عـن تقاريرنـا السابقة عنه ماعدا ذلك " المشروع " الـذي جمعـه مـؤخرا بمفتاح الصاوي.. وجورج مكسيم!! "..

كان (إمام إمام) قد جاء ضمن من زحفوا على المكتـب.. متورد الوجه على غير عادته.. يفرك كفيه ببعضهما البعض كمن عثر على ضالته.. وراح يعيد على أحمد منصور قصة ما حدث أمس الجمعة في المسجد الجامع بالقناطر الذي يقـع على مرمى حجر من قسم الشرطة.. وكيف تمكـن الأسـتاذ مفتاح الصاوي من امتلاك نوازع المصـلين فـي مداخلـة سياسية اعتدل لها كل من في المسجد، ولم يحرصـوا علـى انصرافهم السريع الذي يؤدونه عقب كل صلاة.. وأنه عندما ختم مداخلته بإعلان الحزب الجديد وعنوان مقـره المؤقـت راح الجميع خارج المسجد يسألون عن العنوان لكي يسجلوا أسماءهم.. وأن الأعداد التي زحفت يوم الجمعة في المسـاء إلى المكتب – الذي وجدوه مغلقًا – تعتبر ضـعف الأعـداد التي حضرت اليوم السبت.. ومن المؤكد أنهم سيزدادون يوم الأحد القادم..

راح أحمد منصور وهو مذهول يدير قرص التليفون طالبا صديقه مفتاح الصاوي.. وعندما وصَفَتْ لـه الشغالة العجوز هيئة من زاروه واصطحبوه معهم أيقن أن صديقه المشـاغب

في زيارة – لابد منها – لجهاز أمن الدولة.. فاحتار في أمر نفسه وأمر صديقه وعمد إلى التليفون وطلبني..

- إنت فين يا جورج؟..

وقبل أن أرد عليه.. واصل حديثه..

- تعالى بسرعة.. المكتب مليان ناس جـايين يسـجلوا أسماءهم في الحزب.. وأنا متأكد دلوقت إن مفتـاح في أمن الدولة.. اسمع.. أنا حاستأذن مـن النـاس.. إنت تيجي تتكلم معاهم.. وتسجل أسماءهم وعناوينهم علشان يمشوا.. لغاية ما نتصل بيهم.. مش عاوزين تجمعات دلوقت في المكتب..

وانطلقت إلى مكتب أحمد منصور لأجد أن زوار الليلـة ليسوا هم زوار كل ليلة.. فهم ليسوا أصحاب قضـايا بيـنهم وبين بعضهم البعض.. ولكنهم أصـحاب قضـية الـوطن.. قضيتهم مع الديموقراطية والتنمية والعدالة الاجتماعية جاءوا يطلبون البحث لها عن حل..

لقد زاد عددهم عن حد استيعاب صالة المكتـب وغرفـه فزحفوا حتى ملأوا بسطة السلم ثم امتد زحفهم، إلى أن وقفوا

على درجات السلم وحتى مدخل العمارة بالشارع.. وتنـاثر بعضهم في عرض الطريق..

رحت أحدث الجموع، وأنا آخذ في الصعود أمامهم..

- فيه كشف حيمر عليكم.. كل واحد يسجل تليفونه واسمه وعنوانه.. وبإذن ا حنحدد لكم ميعاد أول اجتماع..

لا أنكر أنه قد أخذتني رجفة.. ولكني لم أجد لهـا سـببا محددا.. هل هو الخوف مما حدث فجـأة ودون انتظـار؟.. الخوف الذي يجعلك مرهونًا بزيارة مهينة من جهاز الأمن.. زيارة يشدك فيها أحد الضباط من ياقة قميصك أمـام هـذا الجمع المتألق ويدفع بك في مـؤخرة " البـوكس " محاطًـا بالحرس والسلاح كأي مهرب مخدرات.. ذلـك أنـك تقـوم بتهريب ما هو أدهى وأمر – في نظـر النظـام – تهريـب الفكر.. وطلب التغيير.. والرغبة في إيجـاد حـل لمأسـاة الوطن.. وجدتني غير آبه أو مهموم بحدوث تلك اللقطة التي رسمها خيالي فورا.. حتى لو حدثت – وهذا أمر وارد - فأنا في حال تقبل ورضا لها.. إذن.. فلم الرجفة؟..

هل هي رجفة الأب أمام غرفة التوليد يرتقب صرخة وليده المأمول بعد طول انتظار وملل وتململ سنوات طويلة مفعمة بالأسى والرجاء؟..

هل هي النبوءة التي صحت بعد أن كانت قد طُمرت تحت أنقاض خيبة الأمل.. والشعور باللاجدوى؟..

هل هو الشعور بالأمل المفاجئ.. بعد يأسٍ أسود وحال أشد سوادا ترسخت فيها سياسة الركود والبلادة.. سياسة الكذب والضحك على الذقون.. سياسة تورط الحكومات المتعاقبة في عقد صفقات البزنس مع رجال الأعمال على حساب أموال الفقراء وودائع الناس في البنوك؟..

هل هو الشعور بالفرحة بإطلالة مأمولة لغرسٍ، ربما يتناهى في أرضٍ خراب أخذنا الظن أنها – أبدا – لن تثمر زرعا؟..

تدافع الناس خلفي حتى تكدسوا داخل المكتب وامتدوا رغما عنهم خارجه عندما أطلق أحدهم قولاً محتواه إنني ثالث الثلاثة المؤسسين للحزب.. ووجدتني بحاجة إلى هدهدة نوازعهم بكلمة ما.. ووجدتني أبدأ معهم الحديث من حيث يجب أن أنتهي..

" أنتم تعلمون أننا مازلنا محكومين بقـانون الطـوارئ.. القانون الذي يجرم اجتماع أي عدد من الناس دون موافقـة مسبقة.. ورغم أن هذا القانون عار في جبين مصر وعار في جبين الحكم.. الحكم الذي لم يخجل من عدم الغاء هذا القانون ووقف العمل به طوال اثنين وعشرين عاما رغم صـيحات الاستنكار التي يطلقها أغلب السياسيين والمثقفـين الشـرفاء دون جدوى.. ومع هذا فنحن مضـطرون لاحترامـه علـى مضض.. والأخذ به دون اقتناع حتى لا نـُمكن أجهزة القمع من النيل منا.. ولذا فأنـا أطمئـنكم أن اسـتجابتكم لـدعوة الانضمام للحزب لم تثلج صدورنا فقـط قـدر مـا حملتنـا مسئولية تاريخية أمام أنفسنا بأن نمضى قدما بكـم ومعكـم لإخراج هذا الحزب إلى حيز الوجود.. وثقوا أننا لن نبحـث طويلاً، ونرهق أنفسنا في إعلان برنامج هذا الحزب.. يكفي أن نقول إن برنامجنا الناجح مقدما سيستمد نجاحه من تفادى أسباب الفشل التي تورطت فيها حكومات نظـامي السـادات وحسني مبارك.. الحكومات التي تضع برامجهـا لإرضـاء آلهة البيت الأبيض.. وطواغيت البنك الـدولي.. وصـندوق

النقد.. البرامج التي تدس السم في العسل، وتقدمه للشـعب.. البرامج التي عنوانها الرخاء.. وجوهرها الفقر والخيانة..

اكتبوا آراءكم.. أكتبوا اقتراحاتكم.. ليتخيل كل واحد منكم أنه ستواتيه الفرصة ليكون الوزير المسئول في وزارة مـا.. فليكتب ما يراه مناسبا لإنقاذ هذه الوزارة.. صحة.. زراعة.. صناعة.. تجارة.. تعليم.. إلـى آخـره.. مـن هـذه الآراء والمقترحات سنكثف برنامجنا، ثـم سـارعوا الآن بتسـجيل أسمائكم وتليفوناتكم وعناوينكم حتى نمهـد لمـؤتمر قريـب يجمعنا بكم..

ثم.. وفي عبارات مليئة بالتحذير رحت أوصيهم:

".. سارعوا يا سادة.. وانصرفوا قبـل وصـول رجـال الأمن، حتى لا يشغلوكم ويضيعوا وقتكم الثمين.. الوقت الذي نحن بحاجة إليه لإنجاز مهامنا القادمة.. المهام الكبرى التـي في انتظارنا.."

وبدلاً من بقائي أمامهم في المكتب.. اختـرت أن أهـبط أمامهم الدرج.. وأنا أردد:

... " لعلكم تعلمون أن مفتاح الصاوي الآن رهن التحقيق في نيابة أمن الدولة وأن أحمد منصور لحق به إلى هنـاك..

ولا يرضيكم أن أجلس هنا وكأنني تخليت عنهما.. فلتـأذنوا لي باللحاق بهما إلى سراي النيابة "..

لم أكن أعلم أن فكرتي بالذهاب إلى نيابـة أمـن الدولـة للحاق بمفتاح الصاوي وأحمد منصور والتي كان القصد منها هو تفتيت تجمع الأهالي في المكتب سـتتحول إلـى دعـوة لهؤلاء الأهالي بالذهاب خلفي لإنقاذ مفتاح وأحمد كما تراءى لهم.. وكانت الاستجابة الفطرية من هؤلاء القوم أكبر دليـل في نظري على صحوة وطنية تعيش بداخلهم ربمـا دون أن يحسوا بها.. ولكنهم وجدوا الذريعـة المناسـبة للاسـتجابة لنوازعها التي تعيش في قلق بدواخلهم.. كان لابد لي أن أقف أمامهم مرة أخرى وقرب مدخل بناية النيابة مخاطبـا لهـم وحاثـا إياهم على وجوب الانصراف.. " فنحن حتى الآن لا تجمعنا رابطة تجعلنا نتحدث ونحن نقف تحت لافتـه هـذه الرابطة.. تلك اللافتة التي نسعى إليها لتحمي كلمتنا.. وتوحد جمعنا.. وأن هذا اليوم يا سادة آتٍ لا ريب فيه.."..

وانصرفت مسرعا دون أن أتأكد مـن مـدى اسـتجابتهم لطلبي بالانصراف..

وما إن أرسلت ببطاقتي إلى السيد وكيل النائب العام طالبا المثول أمامه منضما إلى السيدين مفتاح الصـاوي وأحمـد منصور حتى شاهدت من يدلفون تباعا من رجال الأمن وهم يرسلون إلى نظرات شذرة مما أكد لي أنهـم فـي طـريقهم للإبلاغ عن شخصي وخطبتي القصيرة التي خاطبـت بهـا جمعا صغيرا من المواطنين أمام مبنى النيابة.. ولذا فقد كان السؤال الأول الذي واجهني به وكيل النيابة بعد أن صـافحته وصافحت مفتاح وأحمد..

- ما هو اليوم الذي هو آتٍ لا ريب فيه يا سيد جورج؟..

تذكرت أن هذه آخر كلماتي للجمع الصغير..

ابتلعت ريقي ابتلاعا لسرعة المفاجأة.. وقلت:

- اليوم الذي نعلن فيه قيام حزبنا الجديد.."مصر..الأم "..

ألقمني وكيل النيابة بسؤال مباغت:

- ومنذ متى أيها الشاعر تقوم الأحزاب قبـل تأسيسـها بتدبير تجمعات التحريض والإثارة والبلبلة؟..

قلت:

- لم نحرض.. ولم نـُثر البلبلة.. ولم نَدع إلى الثورة..

عاد فسألني بصيغة الاتهام:

- أنت منذ دقائق اتهمت الحكومات المتتابعة في نظـامي السادات وحسني مبارك بالفشل..

رددت على الفور:

- هي كذلك فعلاً.. وأنا لم أذكر سوى الحقيقة ؛ فمفهومي عن الإثارة والبلبلة هو الاتكاء علـى أكاذيـب مـن صـنع صاحبها.. وأنا لم أختلق أكاذيب لأستند إليها وأنـا أخاطـب الناس.. وما دام الأمر كذلك فأنا بحاجة إلى أن نتفق معا على تعريف: الفشل..

ندت عنه ضحكة ساخرة.. واستند بكرسيه إلـى الحـائط وصوب؟إلي نظرة فاحصة..

- إذن زدني علما بتعريف الفشل أيها الشاعر..
- الفشل هو ألا تصل إلى غايتك.. وفي أسوأ الحالات يكون الفشل هو تعثرك في المحافظـة علـى الحـد الأدنَى من النجاح.. أو تورطك فـي عـدم وقـف الانهيار.. وكلها حـالات لا يمكننـا أن نـدعي أن حكوماتنا الموقرة – وما أكثرها – نجحت فيها..

أشار وكيل النيابة للكاتب أن يتوقف عن الكتابـة.. وراح يتفحصني وكأنه حائر في صك سؤال جديد.. وهنـا عاجلـه أحمد منصور برأي سريع..

- اطلب منه أن يضرب لك أمثلة يا مرقص بك؟..

" مسيحي.. مثلي.."... هكذا قلت لنفسي.. عنـدما حانـت التفاتة من مرقص بك إلى أحمد منصور.. وارتسمت علـى شفتيه ابتسامة واسعة..

- أمثلة؟.. إنت عايزني أفتح خزان المياه اللي ورا السد.. أفتح سد ما يِنْسد..

ثم تنهد وهو يضع يده على جبهته كمن يتحسس صـداعا ألم به.. وراح يخاطب أحمد منصور وكأنه يخاطب نفسه:

- أكيد أنت شايف قد إيه أنا قدام حالة غير عادية.. أديب شاعر.. وفنان تشكيلي مشاغب.. ومحام محتـرم.. ونـاس وطنيين بكل معنى الكلمة.. وأنا دلوقت بس افتكرت هيكل لما رفض عنوان (تحقيق جنائي) كتعبير عن حالة المساءلة التي وضعوه فيها أيام السادات والتي خرج منها زي الشعرة مـن العجينة واعتبرها (حوار سياسي).. وأنا مش مستعد أعمـل معاكم (تحقيق جنائي) لأن مفيش حاجة اسـمها كـده.. ولا

(حوار سياسي).. لأني.. (وهو يضحك).. مش ناوي أدخـل الحزب معاكم..

ثم تنهد تعبا وإرهاقًا.. وراح يكمل:

- انت يا أستاذ أحمد.. مع الأستاذ مفتاح كتبنا وراكم أكتر من سِتين صفحة.. وواضح إن السيد جورج عنده اسـتعداد يمللي سِتين صفحة كمان.. (وراح يضحك).. شوف انطلـق ازاي وهو بيعرف الفشل.. وا ولا الشيخ الشعراوي.. زي ما يكون حافظ إجابة السؤال قبل ما نسأله..
ثم صمت قليلاً.. وراح يكمل مخاطبا أحمد منصور:

- التقارير اللي عندي خطيرة لدرجة الإحراج.. الإحراج اللي يجبرني إني لازم أخليكم تحت الـتحفظ حتـى انتهـاء التحقيق.. ولأني فعلاً ألمح براءة المقصد.. فأنا حاعمل لكـم انصراف من سراي النيابة على وعد إني أشوفكم بعد بكـره الساعة سبعة مساء..

- كان وكيل النيابة مهذبا إلى حد الدهشة.. فقد اسـتعمل الكلمات البديلة التي تحمل أدب المتهذب فبدلاً من أن يقول " أخليكم في السجن حتى انتهاء التحقيق " اختار كلمة " تحـت التحفظ ".. بدلاً من السجن.. وبدلاً من أن يقول " إفراج مـن

سراي النيابة " اختار كلمة (انصراف) فكلمة إفراج تعني أننا كنا رهن الحبس..

قال لنا أحمد منصور أن " مرقص بسـتخاروس " هـذا مشهور بأدبه.. وأننا محظوظون لأننا (وقعنا) أمامه.. ولـم يقل لنا أحمد منصور أن مرقص هذا نصحه سرا بالمسارعة بتقديم طلب إنشاء الحزب غدا في الصباح حتى يأتي له بعـد الغد في المساء، ومعه الأوراق التي من الممكن أن تسـاعد على إنقاذه وإنقاذنا بالتالي من براثن التحقيقـات التـي مـن الممكن أن تصل بنا إلى المحاكمة ذلك أنـه سيسـتند فـي التحقيق إلى أننا حزب تحت التأسيس..

وفي المساء وعندما اجتمعنا بعيـدا عـن مكتـب أحمـد منصور ومرسم مفتاح الصاوي كان لمفتاح الصـاوي رأي آخر:

- يا ابن منصور.. كان لازم تفهمها وهي طـايرة هـو صحيح الأستاذ مرقص راجل أخلاق ما قلناش حاجة.. وابن بلد.. برضه مقلناش حاجة.. بس الأربع تيـران اللـي جـم ودخلوا عليه أكتر من مرة يوشوشوه مرة.. ويتكلموا معـاه على جنب في الأوضة التانية مرة.. كانوا بيبلغوه أول بـأول

باللي بيحصل في مكتبك.. وهجمة الناس غيـر المتوقعـة.. وزحف الناس اللي في المكتب ورا عمنا جورج وهو جـاي لنا النيابة.. ظهور الناس فِرِقتْ معـاه.. الظهـور المفـاجئ للشعب لخبط الدنيا معانا ومعاهم..

وبهدوء راح يسأله أحمد منصور:

- عاوز تقول إن السلطة عملت حساب للجماهير؟..
- السلطة هربت من احتكاك مـا لـوش داعـي مـع الجماهير..
- دا تفسيرك؟..
- طبعا.. إنت وانت خارج من النيابة كان فيه ناس قد إيه واقفين ينتظرونا ويسـألوا عننـا؟.. النـاس دي أغلبها ما يعرفناش.. ما شافوش وشنا عمرهم قبـل كده.. هو دا اللي يخوف السلطة.. واحد عطاك ثقته وبيخاف عليك من أول لحظة.. وبدون تـردد.. دي معناها إيه؟.. معناها إنك دخلت جواه.. وإنك بقيـت حِتة منّه.. مش هِي دي الزعامة..؟..

وبعدها راح مفتاح الصاوي يؤكد.. أن ما يدور الآن فـي المنطقة العربية من تحفز وتنمر تقوم به الشعوب حاليا فـي

مواجهة الحكام استنادا إلى ما قامت به أمريكا مـن كشـف المستور حول فساد أنظمة هؤلاء الحكام وتورطهم في قمـع شعوبهم وسرقة خيراتهم جعل بعض الأنظمة تعمد إلى تجميل وجوهها الملطخة وتتمسح خجلاً وخوفًا في إعـلان بعـض الإجراءات التخفيفية.. تخفيف قسوة الأظـافر الناشـبة فـي الحلوق الظامئة للكلمة والجائعـة للطعـام.. وراح يضـرب الأمثلة بما حدث عندنا في مصر من تخفيف بعض القـوانين العسكرية المقيدة للحريات والمصالح المدنية.. ثم إلغاء محاكم أمن الدولة.. ومنح الجنسيات لأبناء الأجانب من أم مصرية.. إلى آخر تلك القشور التي لا ترقى إلى ما يصبو إليه الناس، من إطلاق عام للحريات المدنية، وتدمير الكـرة الحديديـة المعلقة في رقاب الناس ألا وهي قانون الطوارئ..

قلت له:

معنى هذا في نظرك أن وكيل النيابة كـان يسـتند إلـى تعليمات نُصح بها للتخفيف عن الماثلين أمامه..

قال لي:

- إذا قلنا إن كل من يمثـُل أمامه ليس شرطًا أن يكـون مجرما أو مدانًا، فإنه بجانب صلاحيته الشخصـية وقناعتـه

الداخلية يمكنه بهما - وبما لديه من تعليمات - أن يتخذ مثل هذا الموقف المتحضر الذي واجهنا به..
ثم أضاف:

- ولكنه من المؤكد سيكون على خلاف ذلك تمامـا مـع آخرين تورطوا بالعمل ضد الدولة بتنظيم مسلح..

ردد أحمد منصور:

- طبعا.. طبعا..

ثم التفت إلي وسألني:

- الكشوف التي بها أسماء الناس موجودة بالمكتب؟..

أجبته:

- موجودة مع الموظفين..

قال وهو يهم بالنهوض:

- يلاّ بينا.. عندنا شـغل كتيـر.. يـا دوب يخلـص ع الصبح..

* * * *

(٢)

" اختصار المسافات بحصان كأنه البراق "

ولأن أحمد منصور لم يكن قد انفصل عن حلمـه القـديم بتأسيس حزبه المأمول فإنه وبسبب مطاردته لهـذا الحلـم.. ومطاردة هذا الحلم لـه أصبح يملك كمية هائلة من الأوراق والوثائق الحاملة لمشروع حزب (مصر.. الأم) والتي لم يبق سوى أن يمهرها بتوقيع المؤسسين وعناوينهم ووظائفهم..

فبرنامج الحزب الذي تمتع طـوال السـنوات الماضـية بحالات كثيرة ومضنية من إعادة الصياغة، وحذف فقـرات كاملة منه بعد إضافة عديد من الفقرات الجديـدة، وتكثيـف المعاني في بند ما على حساب الإيجاز في بند آخر.. كل هذا كان يفعله أحمد منصور، وكأنه يخاطب نفسه في غرفة مغلقة وبناء على المتغيرات الحياتيـة التـي تجبـره علـى تلـك المتغيرات في نمط السلوك الاجتماعي والثقـافي والسياسـي الذي يعتمد على عامل الصدفة وليس على عامل التخطـيط المسبق..

طرح أمامنا أوراقه.. وخاطب مفتاح الصاوي وهو يقـدم لـه ورقة بيضاء:

- ارسم حصانك الجامح أيهـا الفنـان.. وضـع أسـفله شعاركما المختار أنت وجورج " إن قلت كلمتك.. لا تمض " سنطبعه أعلى كل الأوراق..

ثم خاطبني قائلاً: هل يمكنك استدعاء الدكتورة راوية عبد العظيم الآن..

تذكرت الحوار الذي دار بيني وبين راويـة أمـس فـي المساء حول ما تناهى إلى سمعها من مقارعـة دارت فـي المسجد بين إمامه الشاب الشيخ صلاح السقا وبـين مفتـاح الصاوي الذي كانت تعرفه من خلال حديثي عنـه.. كانـت راوية قد عرفَتْ مني أن مفتاح الصاوي يحمل فـي داخلـه شخصية مشاكسة، ترفض التبلـد والركاكـة والتصـرفات التافهة، وتكره كل ما يمت للزيف والمداهنة بصلة، ولذا فقد كان غريبا في مجال عمله ولا يتحسر علـى ضـياع حقـه المكتسب، عندما يتجاوزه إلى شخص آخر لا يسـتحقه.. " ولأنك جربت يا دكتورة راوية الظلم وسطوة الضلال عندما يزيح الحق جانبا وكادت حياتك تتحطم أمام قسوة البشر؛ فإن

مفتاح الصاوي وهو يواجه مثل ذلك العنت كان يبـدو لمـن حوله أنه يذوق طعم القسوة بتلذذ، حتـى أنـه أفسـد علـى القـُسـاة تلذذهم بغزواتهم الظالمة ضده.. تلك هي قوتـه.. قوته في ألاّ يبدو ضعيفًا أمام من يمتلكون مفاتيح القوة.. ولا يستجدي بعض اللين من قوتهم حتى لو دنا من الموت.. ولم يعرف عنه الناس أن هناك ما يشغله ويسعى لامتلاكـه مـن متاع الدنيا سوى الفن.. إذ قال عن نفسه: " أنا أعيش الحيـاة وكأني أرسم لوحة "..ثم قال: " وهناك فرق أن تأخذك الـدنيا من فراشك الهنيء.. أو تُلقي بها أنت من الشـباك قبـل أن تنام"..

ويضيف: " تعودت أن أنسى كل شيء قبل نومي.. ولكني أقوم فجأة مفعما بالحبور إذا ألهمتني قريحتي بإضافة لمسـة معينة إلى لوحة معينة.. ربما يستغرقني ذلك دقائق معـدودة أو ساعات طويلة أنسى فيها فراشي وكل ما يحيطني ويهمني حتى موعد الذهاب إلى عملي.. تلك هي سعادتي "

قلت لأحمد منصور:

- الدكتورة راوية تتابع ما يحدث منذ الأمـس.. وهـذه السيدة منذ فكرنا فيها كشخصية قويمة جديرة بكسب احتـرام

وحب الناس فيما لو انضمت إلينا، وأنا أدنو منها قليلاً قلِـيلاً حتى استطعت أن أجعلها تعيش بعض أحلامنا.. لقد ساعدني على ذلك عوامل المرارة، التي راحت تفيض من نهر حياتها التي رهنتها للمستشفى ودار الأيتام.. كانت تقص علي بكـل ألم ما تسمعه عن الفساد الرهيب في وزارة الصحة، وكيـف أن التغيير المفاجئ لوزيرها بشكل لم يتعود عليه النظام أو لم نتعوده من النظام إنما حدث لأن ما كان يحدث من فساد زكم أنف النظام نفسه.. وجعل بعض كُتاب السلطة يخرجون عن خطوطهم المرسومة ويسألون الوزير علنًا: لماذا تذهب إلـى سويسرا علنًا كل عدة أسابيع في طيـارة المليـونير رامـي لكح؟.. ورامي لكح هذا أحد لصوص البنوك، ولكنه سطا بعد ذلك على وزارة كاملة بواسطة وزيرها.. وبعد ذلك فرقتهما الأيام يا ولداه.. رامي يعيش هاربا في بـاريس.. والـوزير المفدى أُقيل منذ عامين.. وكلاهما يهنأ ولا شك بغنيمته..

ثم أكملت لأحمد منصور:

- راوية تكاد تموت من الغيظ.. لا تصدق مـا يحـدث.. وتتساءل: أنا في مجالي بالطب اكتشفت وشاهدت وسـمعت هذه المهازل، وهناك كثيرون مثلي يشـاهدون مثـل هـذه

المهازل كل في مجاله.. أليس هذا ما يقولون عنه: استشراء الفساد؟.. من يوقف هذا الطوفان؟.. من يجعل هـذا الـوطن يثوب إلى رشده؟.. وكيف يقف الرئيس نفسه موضحا أن مثل هذه التجاوزات موجودة في كل بلاد العالم؟.. هل يقصد بذلك أن الفساد صار عملة عصرية؟.. ولماذا لا نتشـبه بالعـالم الخارجي إلا في خيبة الأمل؟..

وكثيرا ما تساءلت راوية عبد العظيم في جلساتي معها ما الذي يمكنك أن تصبو إليـه وتتمنـاه لهـذا الـوطن أيهـا الشاعر..؟.. ما الذي يمكنك أن تختاره إذا وضـعوا أمامـك أحد خيارين:

دستورا سيئًا مع رئيس عادل وشجاع؟.. أم دسـتورا عادلاً ورئيسا سيئًا؟.. فأنت لا يمكنك في العـالم الثالـث أن تحلم بتلك الرفاهية.. لا يمكنك أن تطمع في دسـتور عـادل ورئيس عادل وشجاع.. وكم من الوقت سيمضي علينا لنصل إلى هذا الحلم أو هذا المطمع: نظام عـادل يحمـي دسـتور عادل؟.. أو دستور عادل يحميه نظام شجاع؟..

قلت لها: الدساتير العادلة أُخذت من السـلوكيات العادلـة للزعماء المعتدلين.. وكم من نظام أعـاد تعـديل الدسـتور

لصالح شعبه.. ولعلك تذكرين أن عمر بن الخطاب سن أسس العدل والعدالة من خلال ضمير وضاء، ولـيس مـن بنـود الدستور.. وكذلك عمر بن عبد العزيز...

قالت لي مقاطعة:

- كان ضميرهما القرآن.. والسنّة..

قلت لها:

- بل كان سلوكهما البشري يستمد طهره ونقاءه وقوته من روح القرآن.. السلوك أولا.. أنظري إلى سلوك كـل مـن جاءوا بعدهما..

هز أحمد منصور رأسه موافقـًا.. وراح يرنو إلى صديقه مفتاح الصاوي المنهمك توا فـي رسـم شـعار الحـزب.. الحصان الجامح الواقف على رجليه الخلفيتـين فـي لقطـة انسيابية ركزت على تكبير رأسه المفتون الشامخ ثم جسـمه ورجليه اللتين التقيتا كرأس السهم عنـد نقطـة مـا علـى الأرض..

التفت؟إلي أحمد منصور وبيده كمية من الأوراق كانـت تحمل أسماء الجمهور الذي تدفق اليوم لتسجيل اسـمه فـي الحزب.. وما زال يرى بعضهم منتشرا هنـا وهنـاك فـي

المكتب يتعامل مع الموظفين الشباب مـن طـاقم المكتـب ملاحظًا أن من يخرج منهم كان يحمل في يده الورقة التـي بادر أحمد منصور بإعداد نسخ كثيرة منها، والتـي تحمـل برنامج الحزب لتوزيعها على الناس.

قال لي:

- أمامنا ساعات محدودة لنجهز ملف التقـديم.. لـدينا أكثر من خمسمائة اسم من كافة طوائـف الشـعب.. بعضهم كتب اسمه وعنوانه ووظيفته وقام بـالتوقيع في نفس السطر.. والبعض وضع بياناته ناقصـة.. ولم يوقع.. البعض خطه مقروء والـبعض الآخـر خطه يقرأ بصعوبة.. يهيأ لي أن هذه الكشوف نفسها التي لا تحمل التنسيق الكافي، هي التـي يجـب أن أرفقها كبيان بأسماء المؤسسين..

هتف مفتاح الصاوي من بعيد..وهو يمد يده اليمنـى فـي الهواء أمام ناظريه وبها رسم الشعار آخذًا في تأمله:

- الكشوف دي تروح "يعبلْها " بعرق الفلاّح.. وشـحم الميكانيكيي.. وزيت البقال.. إوعوا تعملوا كشـوف جديدة على الكمبيوتر.. الكشوف اللي الناس وقّـعوا

عليها هي دي الوثيقة الحقيقية.. أي كشـوف تانيـة حتكون فعلاً منظمة ومرتبة ولامعة.. بس في نظري مش نضيفة.. وبعدين.. إنتَ ناسي إنك لـو نسـخت كشوف جديدة لازم تجيب الناس توقّع عليها؟.. الناس خلاص وقّعوا.. مفيش داعي لتزويق الورق.. زوقوا الهدف.. بروزوا المصلحة.. هو دا المهم.. الـورق اللي معاكم ده أنضف ورق.. إوعوا تغيروه..

كنت أتحدث مع راوية في التليفون وأنا أستمع إلـى مـا يقوله مفتاح الصاوي.. وكنت أهز رأسـي بالموافقـة علـى شيئين في وقت واحد.. ما تقوله راوية في التليفـون.. ومـا يقوله مفتاح الصاوي الآن:

- أنا شخصيا موافق.. إديني فرصة أعـرض الـدعوة دي على أحمد ومفتاح.. ربع ساعة واطلبك تاني..

اقتربت منهما وكانا قد تجاورا على مائـدة الاجتمـاع.. رحت أتأمل رسم الشعار الذي لم يبق من تعبيره القوى سوى أن يصدر الحصان صهيلاً.. جلست في مواجهتهما ووجهت حديثي إلى أحمد منصور:

- الدكتورة راوية قدمت اقتراحا لا بأس به..

ثم واصلـْت:

- هي عندها صالة نشاطات واسعة في دار الأيتـام.. قالت إن المكتب عندكم أكيد مش حايتسع لأي اجتماع بتفكروا فيه.. فهي بتقتـرح إننـا نعمـل اجتمـاع تحضيري نقعد فيه مع الناس اللي سجلوا أسـماءهم وتليفوناتهم قبل ما نقدم طلب إنشـاء الحـزب.. إذا وافقنا على الاقتراح ده هي مستعده تخْلـي الصـالة وتزود الكراسي في ظرف ساعة واحدة من دلوقت..

هتف مفتاح الصاوي من كل قلبه:

- ا .. ا .. قد إيه حايكون فيه معنى فنـي وإسـقاط أدبي له دلالات عالية لانطـلاق الحـزب مـن دار أيتام.. أنا شخصيا موافق..

وهز أحمد منصور رأسه موافقـًا وقد داعبـت ملامحـه ابتسامة تحمل علامات الرضا والامتنان.. وأشار لمحامٍ شاب كان على مقربة منا:

- يوسف.. يوسف.. تعالى.. إمسـك الكشـوف دي.. واتصل بأصحاب التليفونات المسجلة فيها.. وعرفهم إن فيه اجتماع تمهيدي بكره الساعة خمسة مسـاء..

في مبنى دار الأيتام اللي جنب مستشـفى الـ دكتورة راوية.. واوصف لهم المكان.. المكان مش بعيـد.. في مدخل القناطر.. واتصل أول اتصـال بـ المعلم إمام.. تليفونه عندك.. ييجي على هنا.. دلوقت..

ثم وجه نظراته إلينا.. وهتف:

- فكرة عظيمة.. إيه اللي بيحصل ده؟..

أحمد منصور يريد أن يقول:

انتظرنا سنوات طوال.. نحلم ونفكر وندبر ونتمنى ونتردد ونتحدث.. ونقدم أرجلنا للأمام ثم نسحبها للخلـف.. تأخـذنا متاهة الأيام.. ويأس الحال.. وفجأة تتحرك الأمـور دفعـة واحدة.. وما كان من الممكن حدوثه في شهور طويلـة مـن العمل التنفيذي يحدث الآن في ساعات محدودة كل هـذا لأن طرقة رفع الستار جاءت طبيعية وفـي موعـدها ومكانهـا الصحيحين.. حزبنا الموعود هذا.. فكرنا فيـه مـن أجـل الجماهير.. سياسته وبرنامجه وأهدافه كلها من أجل مصلحة تلك الجماهير.. وكنا نفكر نيابة عنهم وهم في غيبـة عنـا.. والواقع أننا كنا في غيبة عنهم رغم مـا نتعـذب فيـه مـن أجلهم.. إلى أن جاء هذا الفنان المشاكس فحـرك النـاس..

حرك مشاعرهم فتحركت أقدامهم إلـى هنـا.. لـك ا يـا مفتاح!.. لقد جئتنا بالمفتاح.. فعلاً..

ثم التفت إلى مفتاح وردد مرة أخرى:

- إيه اللي بيحصل ده؟.. إيه اللي انت عملته ده؟..

ابتسم مفتاح في ثقة:

- ولا حاجة.. أنا نطّيت ركبت الحصان..

قلت له:

- لأنك فارس.. فارس اختصر المسافات فـي خطـوة واحدة بحصان كأنه البراق..

* * * *

(٣)

" بطل أكتوبر.. الجائع المنسي "

كان البرنامج الذي عرضناه على الجمهور صادما لما به من جرأة.. وشائقًا لما به من أمل.. وسـهلاً لمـا بـه مـن منطق.. لقد تطرق أحمد منصور إلى الحديث عـن سياسـة الحزب، فيما يتعلق بالعلاقات الخارجية وأولها العلاقـة مـع إسرائيل، كدولة جوار تم توقيع معاهدة صلح معها منذ ربـع قرن مضى.. وهذه المعاهدة ملزمة لطرفيها بميثـاق دولـي ترتب عليه قيام أمريكا بضمان سريان المعاهدة مما فرضـها كطرف ثالث.. وطبائع الأمور التي تعودنا على قبولها رغم أنوفنا هو أن إسرائيل في مأمن حتى لو كسـرت المعاهـدة واعتدت على أراضينا.. فميزان القوة دائمـا معهـا بحكـم الهيمنة الأمريكية على الكون.. وبحكم دخولها كطرف يحمي إسرائيل حتى لو تجاوزت حدودها إلى حدود الجيران ومنهم مصر..

لا نريد أن نبكي على اللبن المسكوب، ويلعن بعضنا أنور السادات لأنه علق في رقابنا وأرجلنا أثقالاً من الحديد أوقفت

فينا حتى محاولة التحرك لسبر أغوار هذا العدو الذي تحول على يدي السادات إلى صديق رغما عنا.. لقد مات السادات قبل أن يتعرف على حقيقة الشعور الشعبي تجـاه الصـديق المزعوم إسرائيل، وأن حلمه بإنهاء كلمة الحرب بيننا وبـين هذا الصديق لم يكن سوى الوهم الساذج الذي اشتراه رجـل ريفي من عصابة في المدينة..أين سـيناء؟.. هـي معنـا.. وليست في أيدينا.. إنها مساحة خالية من القوة الحقيقية التـي تحميها.. نصفها فراغ، ونصفها الآخر تجوسه قوات الأمـم المتحدة ونزرع على شواطئه – وعلى اسـتحياء – بعـض القرى السياحية.. وكل هذا مرهون بوثبة شارونية مجنونـة يجعل فيها سيناء مرة أخرى عازلاً جغرافيا آمنًا بين إسرائيل وعدوها الحقيقي مصر.. ولأننا الآن لا نملك قوة لعمل وثبة مضادة؛ فيجب أن ندرأ عن أنفسنا وعـن الأجيـال القادمـة السقوط تحت سنابك الجنون الإسرائيلي، والغرور الذي ران على سياستها بعد تحطيم كافة الأصابع في قبضة المواجهة.. وكافة الأسنان في ترس الآلة العربية.. وتأملوا معي الخريطة الجديدة.. أين مصر؟.. أين العراق؟.. أين ليبيا؟.. وقريبا جدا سنتساءل: أين سوريا؟..

لا يكفي أن نعترف بالواقع الأليم ونستسلم له.. فهذا هـو الهوان المضاعف.. ولا يكفي أن نتحاشى إغضاب الصديق المزعوم حتى لا يجد فرصته في أن يتحول بين يوم وليلة إلى عدو غادر في مواجهتنا كالأمس القريب.. ولا يكفي أن ننظر بعين الحسرة إلى أرضنا الحزينة سيناء تلك الممنوحة لنا على طبق معاهدة، لا تحمل شرعية الموافقة الحقيقية من الشعب.. فلعلكم تذكرون أن من مهازل الديكور الساداتي أنه استفتى الشعب على هذه الاتفاقية بعد أن قام بتوقيعها وعاد من أمريكا تحت أقواس النصر الخادعة المخدوعة..

حزبنا لن يرفض الاتفاقية.. ولن يتورط في محاولة إلغائها من طرفنا.. ولكننا سنطالب تعديلها بما يؤكد استمرارها، وبما يشير إلى حسن نيتنا في العمل بها وترسيخها مدى الحياة..

وهنا حدثت همهمة بين الحضور.. وتعالت بعض الأصوات الرافضة.. مما جعل أحمد منصور يتخلى عن أوراقه ويصمت طويلاً إلى أن يهدأ اللغط ويقول:

- حزبنا منذ ولادته اليوم يتحيز للديموقراطية وقبول الرأي الآخر وسوف يأخذ كل منكم فرصته في الحديث والمعارضة.. فقط دعوني أُكمل رأيي.. كل ما أرجوه منكم

أن نتخلى عن الصياح والتصفيق.. مصيبة السياسة في مصر أنها غير مفهومة، ومع ذلك فهناك من يسبها بتشنج.. وهناك من يصفق لها بجنون.. وهذا دليل على إصابة شعب بأكملـه بحالة انفصام شديدة في الشخصية..

وهنا تدخل مفتاح الصاوي بحديث كله مرح وقدر كبيـر من خفة الدم:

- على فكرة التصفيق على الفاضي والمليان أصبح عادة مصرية سيئة لأنه لا يوجد ما يدعو إليه.. لا شـيء حولنـا يثير الفرحة وبالتالي يجبرنا على التصفيق.. وعشـان نعلّـم كفوفنا الأدب أنا حاقترح فرض عقاب على أي واحد يُمسـك متلبسا بالتصفيق يدفع جنيه غرامة.. على الأقل نبـدأ نعمـل حصيلة للحزب من دلوقت.. إيه رأيك يا أستاذ أحمد؟..

ضحك أحمد منصور في رزانة ووجد أن صديقه الجميل امتص سحابة الحزن المنعقدة فوق الرءوس، بتلـك الطُرفـة العبقرية؛ فانبرى لتأييده قائلاً:

- إنت فكرتني بمجلس قيادة الثورة.. لما لغـوا الألقـاب ومنعوا كلمة " باشا ".. وكلمة " بك ".. كان بعضهم بينسـى وينادوا بعض بالألقاب دي.. فاقترح جمال عبد الناصر بنفس

خفة دمك دي يا مفتاح إن اللي يغلط ويسـتخدم الألقـاب دي يدفع غرامة قرش صاغ.. (اللي هو زي الجنيه الأيام دي).. فضحك الحضور.. وكادوا أن يصـفقوا.. فـانكتم صـوت التصفيق فورا.. وحل محله نوبة من الضحك المتواصـل.. لأنهم خافوا من التلبس بالتصفيق.. ودفع الغرامة، وعنـدما هدأت الصالة كان الهدوء ينطق بما معناه " نعود إلى الجد.. أكمل يا أستاذ..

فأكمل أحمد منصور:

- أقول.. إننا نطالب بتعديل الاتفاقية بما يؤكد استمرارها، وإلى حسن نيتنا في العمل بها.. وترسيخها مدى الحياة وذلك بالآتي:

- المطالبة بسحب قوات الطوارئ من المنطقة العازلـة بين الحدود.
- السماح لإسرائيل ببناء جدار عـازل علـى طـول الحدود بينا وبين مصر.. حدود ١٩٦٧..
- عمل نقطة اتصال برية واحدة بين الطرفين كبوابـة دخول ونقطة جمارك للتبادل التجاري..

- إلغاء أي بنود تتعلق بتحديد القوات وعـدد السـكان والنشاطات المدنية في صحراء سيناء..
- توجيه التكاليف المالية الخاصة بقوات الطوارئ إلى بناء الجدار العازل.
- إطلاق حرية دخول أبناء الشعبين للعمـل والتجـارة والسياحة..

هذا فيما يتعلق بتعديل الاتفاقية.. أما فيما يتعلق بتوظيـف هذا التعديل لصالح مصر.. فهو الهدف الكامن خلـف هـذا التعديل.. إذ يجب أن تتحول سيناء إلى دلتا أخـرى.. دلتـا تتمثل فيها كافة المحافظات حيث تقوم كل محافظة بترحيـل جزء من سكانها الشباب في مسـاحات معروفـة تخصـص مسبقًا لكل محافظة.. لإحداث تنافس يسمح فيـه للمحـافظين بعقد اتفاقيات عالمية مع الشركات العملاقـة للعمـل بنظـام الـP.O.T.. تقديم الخبرة ورأس المال وتوظيـف الأيـدي والعقول المصرية مقابل الحصول على نصف الأرباح لمـدة خمسة وعشرين عاما..

نحن نصبو إلى إنشاء دولة حديثة بكل مقومـات الدولـة داخل هذا المثلث الفقيد.. وزرع ميناء عملاق على كل ضلع

من أضلاعه.. شمالاً على البحر الأبيض جنوبا عند الـرأس المدبب بالبحر الأحمر.. وغربا عند منتصـف طـول قنـاة السويس..

ليتذكر أي منكم مقومات أي دولة خليجية منـذ خمسـين عاما.. مثل الكويت.. أو قطر.. أو الإمارات.. ولننظر إلـى ما جنوه من ثمار التنمية الطليقة.. ستقولون إنه البتـرول.. وأنا أيضا أؤكد أنه البتـرول.. وهـل سـيناء خاليـة مـن البترول..؟.. سنجعل بترول سيناء لتنمية سيناء.. ولتتسـابق الشركات في إخراجه لنا ولهم بالحصة المتفق عليها..

وأشعل أحمد منصور سيجارة وهو يتأمل وجوه الحضور وهز رأسه شاكرا للدكتورة راوية عبد العظيم التـي تجلـس بجواره، عندما حركت بيدها منفضة السجائر قرب سيجارته في لمسة لطيفة.. وراح يتحدث بعيدا عن أوراقه:

- أريد أن أقول إن روح هذا الحزب تنبـع بالدرجـة الأولى من روح مصر الفرعونية.. وأننا نصبو إلى إعادة هذه الروح إلى أجسادنا الميتة.. الفراعنة لـم يسجل التاريخ ضدهم أنهم اعتدوا علـى الجيـران.. ولكنهم صدوا العدوان الواقع عليهم.. وسيناء نفسـها

تشهد بذلك.. وفكرة الجدار العازل راودتني عنـدما اكتشفت إلى أي حد مازالت الذائقة اليهودية كما هي، لم ولن تتغيـر منـذ خلقهـم ا .. فـرغم تقـدمهم التكنولوجي.. وآلاتهم العسكرية الجبارة.. وذراعهـم الذي صار أطول مما يجب.. إلا أن الخوف ما زال يتملكهم داخل أراضيهم بل وداخـل بيـوتهم.. وإذا كانت قريحة شارون الشرسة التي تلهمه ابتكاراته في القتل والتدمير وحرق الزرع والنسل هي نفسها التي ألهمته بالاحتماء في جدار من الخرسانة راح يرفعـه بمقدار ارتفاع حجر صغير يلقيـه طفـل فلسـطيني عليهم فإن هذه القريحة الجهنمية ما زالت تبحث عن الأمن رغم جبروتها.. فهل له أن يأمن جانب مصر برفع مثل هذا الجدار بين حدودنا وحدوده؟..

نحن بهذه الفكرة لا نعزل مصر، ولكنـا نمـنح جيراننـا مزيدا من الأمان والثقة.. الطـائرات لا تكسـب أرضـا.. الدبابات هي التي تكسبها.. والمصريون عندما أزاحوا خـط بارليف بأقدامهم.. إنما فعلوا الحل الصحيح في ركل بـابهم للدخول إلى منازلهم.. إذ أننا لم نتعود علـى ركـل أبـواب

الآخرين واقتحام منازلهم.. تلك هي الذائقة المصرية والروح المصرية التي كانت تستعد للمحاسبة في الآخرة بحفظ وتلاوة هذا القسم: أقسم إنني لم أؤذِ إنسانًا.. ولم أقتل حيوانًا.. ولـم أعطش زرعا.. أليست تلك هي الحضارة الحديثة.. الحضارة التي تحمي القطط والكلاب في أوروبا وأمريكـا.. حضـارة تقدم لمسات إنسانية في مواجهة القطـط والكـلاب تقابلهـا وحشية بربرية في مواجهة الإنسان.. الإنسان في أفغانستان.. وفلسطين.. والعراق.. لقد سجلت حضارتنا ما هو أفضـل.. ولذا فقد ورثنا ما هو أفضل.. ونحن نتعامـل حاليـا بهـذا الموروث..

هذا من ناحية..

الناحية الأخرى الهامة.. هي نوع الفكـر الـذي يقدمـه الحزب.. ما أكثر الأفكار الموجودة على السـاحة..! أفكـار مختلفة تأخذ عناوين مختلفة تحـت مسـميات أيديولوجيـة مختلفة.. ولكنها في النهاية تصب في القالب البـريء الـذي ينتهي إلى الأخذ بمصلحة البلد.. ولكن العيب الـذي يلمسـه المرء في هذه الاختلافات هو التناحر ورفض الـبعض لمـا يعلنه البعض الآخر.. بل وتسفيه موقفه وموقعه.. فهناك من

يستمد روحه مـن الفكـر اليسـارى.. أو الأصـولي.. أو الناصري.. وهناك من بحث عن عنوان مخالف (التقدمي).. وكلهم يحشرون كلمة (العربي) في عناوينهم.. حتى لا يطالهم النقد من أنهم ليسوا (وحدويين) أو (قوميين).. ونحـن لـن نتمسح في كل هذه المسميات بل جئنا لنذكّر الجميـع بأننـا (مصريون).. إيجبت.. القبط.. ولذا فاسم حزبنا يبدأ بكلمـة (مصر..).. ثم (الأم) أي السيدة الرءوم الحاضنة لكل هؤلاء الأبناء على اختلاف مشاربهم وأفكارهم، والدليل على ذلـك هو هذا الاجتماع المنعقد حاليا والذي لم يتم التحضـير لـه بالشكل الذي كان يضمن هذا النجاح فـي الحضـور.. لقـد سارعتم إلى مكتبي لمجرد أن أشار لكـم صـديقي مفتـاح الصاوي إلى باب يحمل كلمة مصر. لو قال لكم اسما آخر ما كنتم حضرتم.. ولعل كمية الكرامة التي حملها مفتاح دفاعـا عن مصر عندما اقترح الشيخ صلاح السقا أن تنال نصـيبها من زكاة مال العرب، كانت هي الدافع الحقيقي......

- لا مؤاخذة يا شيخ صلاح..

لقد كان الشيخ صلاح السقا إمام المسـجد جالسـا بـين الحضور.. وهذا ما لم أكن أعرفه.. ولما رفع الشيخ صـلاح

يده طالبا الكلمة أشار لـه أحمد منصور براحة يده اليمنـى فـي احتـرام أن.. تفضـل.. فـانبرى الشـيخ صـلاح في تقديم ما لديه وهو واقف في نفس مكانه:

- لعلك تعلم يا سيدي أن أخاك الفقير إلى ا لا يخشـى في الحق لومة لائم.. ووجودي هنا بينكم يدل على ذلك.. فأنا تعاملت مع نفسي في هذا الحضور كمواطن مصري، وليس كموظف في وزارة الأوقاف يمكن أن يطاله العقاب الوظيفي الغبي مقابل مثل هذا التعامل مع النفس.. ولكني كنت صادقًا مع نفسي عندما تحركت إليكم مع هذه الجموع الصادقة.. لقد أعجبني هذا التشخيص الذي قدمته لنا أنت والفنـان مفتـاح الصاوي.. تشخيصكم لمرض راح يلم بالشعب المصـري.. الشعب الذي لم يعثر على الحد الفاصل بين الشعور بالسخط والشعور بالرضا، ولذا فهو يصفق حينًا ويلطم أحيانًا.. وذلك لغياب فضيلة الصدق عن كل ما يمر بحياته.. وما نمر بـه الليلة هو بداية العثور على الشـيء المفقـود الـذي اسـمه الصدق.. ولذا فقد جئت وفي نيتي المشاركة والانخراط فـي هذا الحزب، كما أن في نيتي الاعتذار عما بدر مني بالأمس من رأي لا يحمل إلا الشطط والهوان.. الرأي الذي جـرؤت

فيه أن أؤجر ثدي مصر الحرة مقابل أن أدفع عنها الجوع.. ووجدت الآن أنه من الأفضل لها أن تجوع.. الجـوع الـذي تدربنا عليه حتى اعتدناه..

واسمح لي يا أستاذ منصور أن أعلق على برنامج الحزب حول علاقتنا بإسرائيل..فمن المعروف أن دلتا مصر كانـت ومازالت الفخ المنصوب لأي معتـد علـى أرض الكنانـة.. فكلهم يتحاشون التورط في إدارة معـاركهم علـى أرضـها فأرضها المنبسطة الكاشفة وما عليها من شبكة معقـدة مـن الطرق والترع والمصارف والسـكك الحديديـة والجسـور تجعلهم أسري بين أيدينا قبل أن يديروا ضـدنا حـربهم إذا حاربوا.. ودلتاك الجديدة في سيناء ليست سوى فـخ جديـد، على مقربة منهم، هذا لمن يحسن قراءة فكرتكم بعيدة النظـر ناهيك عما بها من سماح بالتبادل التجاري عبر بوابة وحيدة بالجدار العازل.. إنه العمل بالمثل المصري الحكـيم (اللـي تخاف منه خليه في حضنك).. ولهذا فأنا أرى أن الصـهاينة بما لديهم من لؤم شديد وتمرس تاريخي في التآمر لن يقبلـوا هذا التعديل..

ثم أنهى الشيخ صلاح كلمته وجلس في هدوء، وهو ينـال كلمات الاستحسان بدلاً من التصفيق الذي تمكن الحضور من الوفاء باتفاق المؤتمر على اجتنابه..

شكره أحمد منصور وأحاطـه علمـا أن مصـر التـي استطاعت بكفاءة عدد محدود من أبنائها العباقرة في كسـب معركة التحكيم الدولي في قضية طابا سيمكنها تجنيد العـالم الحر في مناصرتها للحصول على استرداد حقيقـي ودائـم وآمن وغير مهدد لأرض سيناء، بطرح هذا المشروع الـذي يحمل كل وجه فيه مصلحة لكل طرف من طرفي التعامل.. الأمان الحقيقي والنهائي لإسرائيل عند حدودها مع مصـر.. وضم سيناء كأرض مصرية إلى باقي الأراضي المصـرية ضما كاملاً غير منقوص يسري عليها كل ما يسـري علـى أرض الوطن من حرية واستقلال لا تقيده بنود أو لـوائح أو قوات طوارئ..

وباختصار يا سادة نحن أمام بركة من المياه الراكدة التي تزداد عفونتها يوما بعد يوم.. وإلقاء حجر واحد فـي هـذه البركة هو البداية.. أما تحريك المياه لطرد عفونتها ومن ثـم

إيجاد مخرج لها فهو الأمل المنشود.. الأمل الذي يبدأ تحقيقه بإلقاء حجر ما.. هذا ما نحاول أن نفعله..

لأن برنامج العلاقات الخارجية مع مختلـف دول العـالم استولى على الجلسة ولأن البرنامج بدأ بالحديث عن علاقتنا بإسرائيل فإن سخونة الموضوع ألهب حماس القلوب، رغـم أن فكرة الإيمان بالأمر الواقع لـم تنـزل بـالبرد والسـلام الكافيين على كل القلوب.. التي كانت تتميز غيظًا وهي ترى أن وجود إسرائيل أصبح أمرا مسلما به.. وأصبح الانتقـال بالحديث إلى برنامج الحزب وعلاقته مع باقي دول العالم لا يعدو أن يكون نوعا من تحصيل الحاصل.. فالأمر لا يحتاج إلى برنامج، فمصر المنفتحة بحب على العالم ستظل كـذلك، وزيادة خاصة عند تفعيـل دور السـفراء وأطقمهـم مـن الدبلوماسيين بالتخلي عن الأدوار الروتينية التـي يؤدونهـا بحماس فاتر تغلب عليه المصالح الشخصية، بـدلاً مـن أن يكون حماسهم منصبا على تعلية اسم مصر وتعزيز مكـان، ومكانة أبنائها في الخارج..

هتف واحد من الصفوف الأخيرة:

- السودان؟.. شقيق اليوم سيتحول بفعل التـآمر إلـى عدو الغد وبعد الغد.. احذروا نسيانه..

سانده هاتف آخر:

- سيفتحون لنا كتاب المياه..

وهتف الشيخ صلاح:

- يجب أن نتصافح من الآن على حافة البئـر ونتفـق على الشراب الهنيء.. ولا ندع الفرصة للمجـرمين أن يسمموا مياهنا بعد أن سمموا حياتنا..

وانبرى رجل سقيم في آخر القاعة فاعتلى كرسـيا حتـى يراه الجميع، وراح ينادى بصوت عـالٍ خـرج مـن فـم ممصوص وأسنان متكسرة:

- الذين سمموا حياتنا ليسوا بعيدين عنا.. إنهم هنا بيننا.. يهنأون بالحياة ونحن نرسف في الذل.. من يصدق إنني مـن أبطال حرب أكتوبر؟.. لقد أصبحت أكره الاحتفال بـذكرى هذا اليوم.. لأن ما أتذكره دائما هو أن منزلـي خـالٍ مـن الطعام.. وجيوبي خالية من النقود.. وأعيش بلا عمل بعد أن أحالوني على المعاش الاختياري منذ سـنوات.. وضـاعت

المكافأة كما ضاعت الوظيفة في شربة ماء.. منهم .. منهم ..

ثم استوى على مقعده وهو مازال يردد كلمته الأخيرة إلى أن ران صمت حزين على القاعة..

عمدت الدكتورة راوية إلى الميكروفون وراحت تتحـدث بهدوء:

- ليس صدفة أننا نجتمع هنا لنؤسس حزبـا.. حزبـا يحمل آمالكم ويخفف آلامكم.. آمالكم التي هي آمـال مصر.. وآلامكم التي هي آلام مصر أيضا.. وفـي ظني أننا لو فتحنا الباب لاسـتقبال كـل الشـكاوى والعذابات الشخصية لما انتهينا إلى نهاية.. أنا مقتنعة بأن كل واحد (فيه اللي مكفيه).. كفاية انك بتنام فـي حضن مشاكلك الشخصية، وآخر حاجة بتشوفها هي تدمير العراق بشكل لحظي في الفضائيات.. بتشوف مهزلة عصرية جديدة.. مهزلة سرقة شعب بأكمله.. دولة بحالها بتتسرق قدامنا واحنا واقفـين نتفـرج.. فلسطين انسرقت خلاص كل اللي بنحاول فيه إنهـم يسيبولنا حته مسروقة نعيش فيها.. بنتحايـل علـيهم

علشان يسيبوا حته.. يقومـوا يضـربونا ويقولـوا مفيش.. العراق في طريقها إنهـا تكـون فلسـطين تانية.. وبكره نتحايل عليهم بـنفس الطريقـة إنهـم يسيبوا للعراقيين حتة يعيشوا فيها.. صـحيح الأمـل بيرجع تاني جوانا لما بنشـوف المقاومـة بتحـاول وبتقدم شهداء كل يوم.. بس مادام الأمريكان أطلقـوا عليهم إرهابيين فمعنى كـده إنهـم بيتحـالفوا ضـد المقاومة تحت هذا المسمى الكاذب ومش حيسيبوهم.. عارفين ليه؟.. لأن العالم العربي في حالـة عجـز كامل.. حالة..

ثم ركنت إلى الهدوء قليلاً وعادت إلى الحديث:

- خللونا في برنامجنا.. الأستاذ أحمد منصور حيكمـل قراءة باقي البرنامج.. وبعد إعلان الحزب بـإذن ا حنعمل لقاءات دورية نطرح فيها كـل المشـاكل.. العامة والخاصة.. اتفضل يا أستاذ أحمد..

ثم قربت لـه الميكروفون بهدوء، وعلامات الأسى تبـدو على وجهها، وعيناها تفحصان الرجل المطعون، الذي فـي آخر المقاعد.. بطل أكتوبر الجائع المنسي.. وكان من السهل أن نعرف أن هزات الرأس التي صدرت منها أسيانة حزينة كانت.. من أجل هذا الرجل..

* * * *

(٤)

" ورقة الدكتورة راوية "

كان:

الفن التشكيلي..

والحس التشريعي..

والذوق السياسي..

والروح المصرية البحتة..

وقوة البحث عن العدالة..

والأمل في الوصول إلى ميزان الحق..

كل ذلك كان هاجسنا، ونحن نصل بعد جهد شاق إلى هذا التكوين البياني المرسوم لمائدة.. قاعدة الحزب والتـي قـام مفتاح الصاوي برسمها:

إنه رسم يلخص مجلسنا.. وعددنا.. وفئاتنا.. ووظائفنـا.. رسم يشير لكل منا عن مكانه.. لا على مكانته..

رسم يستوعب حضورنا نحن الخمسـة.. القاعـدة.. و.. الارتفاع..

١ – أحمد منصور	الذي عاش مؤرقًا يبحث عن حزبه في الظـلام.. ظـلام الزيف والغيبوبة..
٢ – راوية عبد العظيم	الطبيبة التي تربي الأيتام وهى مقهورة..
٣ – مفتاح الصاوي	الحصان المشاكس والفنان الحر..
٤ – إمام إمام الإمام	ابن البلد الذي ساس قلـوب الآلات دون قلوب البشر.
٥ – جورج عزيز	الشاعر القبطي الذي تسكنه روح فرعون..

رسم في جناحيه – الأيمن والأيسر – تهيئة لاستقبال كـل أبناء الشعب نساء وعمالاً وفلاحين.. مسلمين وأقباطًا..

الجناحان يرفرفان دوما، ويتغيـر ريشـهما كـل شـهر متجددين أبدا..

هذا ما تخيلناه عن مجلس الحزب..

الديموقراطية هي الأساس في طرح الآراء.. والتصـويت عليها يتم بمنتهى الشفافية.. والرأي الصائب هو الذي ينال ٦ أصوات على الأقل من أحد عشر صوتًا وهم:

نصف القاعدة	٤ ÷ ٢	= ٢
+ الارتفاع (الرئيس)		= ١
+ نصف مجموع الجناحين	٦ ÷ ٢	= ٣

المجموع		٦

المنضدة مثلثة كدلتا النيل..

رأسها مدبب.. ينتهي إلى مقعد الرئيس..

قاعدتها منبسطة.. تزدان بمقاعد القاعدة..

الجناحان يطلان على الرأس والقاعدة في جلال..

وتساءلنا.. بصوت عال:

* هل تكون الغلبة للجناحين..؟

- أجل.. لأن مجموع الجناحين يزيد واحدا عن القاعـدة والارتفاع..

* هل تكون الغلبة للقاعدة؟..

- لا يمكن إلا إذا تعززت بصوت واحد من الشعب..

* متى تفشل القاعدة والارتفاع؟..

- تفشل القاعدة والارتفاع إذا فقدوا أصـوات الجنـاحين بالكامل..

* ما كيفية اختيار الجناحين؟..

- بأسبقية التسجيل في الحزب..

فبأيدينا الكشوف التي تحمل أسماء النساء والأقباط والعمال والفلاحين.. ويتم الاختيار بالترتيب.. ويتم التغيير كل شـهر ميلادي للجناحين..

لقد قلنا في مداولاتنا إن المقاعد الدائمة لا يعني دوامهـا الاستقلال بالرأي.. وإنما يعني مراقبة البناء ومعايشـته وأن المقاعد غير الدائمة لها فعل ترسيخ رأي القاعـدة إذا كـان صائبا.. أو رفضه إذا كان به شطط..

* ومقعد الرئيس هل هو المقعد الدائم كما تعود الناس؟..

- هذا المقعد يستمد شرعيته بطرح الثقة فيه كـل أربـع سنوات..

* ولماذا لا نهرب من فكرة الاستفتاء المعيبة التي ملهـا الناس؟..

- إذن ليس هناك سوى اللجوء إلى الانتخاب..

* ومن هم المرشحون؟..

- المرشحون على الأقل اثنان من ثلاثة أعضاء: عضـو من القاعدة.. وعضو من الجناحين والرئيس الحالي.. ليصبح المتاح لهم الترشيح فـي كـل دورة.. ثلاثـة.. ولا يلغـى الانتخاب إلا في حالة تنازل المرشَحين للرئيس..

* وهل يملك المجلس سلطة إزاحة الرئيس؟..

يعود الأمر في ذلك إلى الجمعية العمومية التـي تخـول المجلس سلطة إعادة النظر في استمرار الرئيس من عدمه.. وللمجلس إجراء التصويت عليه بنفس الطريقة المتبعـة فـي التصويت على أي قرار يعرض عليه..

لقد مارسنا لعبة الديموقراطية نحن الخمسة ونحن نضـع القواعد الهامة التي يسير عليها الحزب.. والتي ستكون هـي نفسها القواعد التي سنستمد منها دستور الأمة إذا وصلنا إلى الحكم..

ولقد كانت هناك بعض الثوابت التي لا يمكن المساس بها لأنها ملك الأمة والتاريخ والذائقة الثقافية المصرية على مـر العصور.. مثل المصدر الرئيسـي للتشـريع وهـو الـدين الإسلامي لكونه حقًا يجب أن يظلل أمة أغلبها يعتنق الإسلام دينا..

ومع هذا فقد طرح أحمد منصور هذا الأمـر للتصـويت عليه كتابة طالبا منا وهو يمد يده لكل واحد بورقة تشبه باقي الأوراق نوعا وحجما:

- ستصلني غدا آراؤكم مكتوبة علـى هـذا الـورق ولا يهمني معرفة صاحب الرأي لأنكم لن تكتبوا بخطوط أيـديكم وأنا مثلكم سأكتب رأيي على جهاز الكمبيوتر.. إنني أريد أن أدفع عن أي صاحب رأي مخالف الشعور بالحرج.. يكفـي أنه كتب رأيه حتى لو لم يتمتع بالأغلبية التي سنلجأ إليها في إقرار الرأي الذي سيؤخذ به..

وفي اليوم التالي كانت أمامه الأوراق التـي أوصـانا أن نسقطها في صندوق ما حتى تختلط ويصعب التعرف علـى صاحبها..

وراح يقرأ الورقة الأولى:

- " المصدر الرئيسي للتشريع هو الدين الإسلامي الـ ذي يكرس الاعتراف بوحدانية ا ، والاعتراف بملائكته ورسـ له وكتبه وبيوم البعث وحساب الآخـ رة مـ ن جنـ ة للأطهـ ار الأسوياء ونار للظالمين الأشرار.. ويشرفنا ونحن نقر بهـ ذه الثوابت أن ننفذ التعليمات الإلهية بقطع يد السارق بما يساير روح العصر، ويؤكد فاعلية العقاب باحتواء معنـ اه وتغلـ يظ العقوبة الموازية، وليست البديلة، لأننا لا نملك اسـ تبدال مـ ا أمر ا به ولكنا نصبو إلى استعمال المعنى المقـ دس الـ ذي فرضه ا لإدخال عباده في طاعته ولتعميـ ر الأرض.. وإن كان خليفة المسلمين عمر بن الخطاب قد هداه عقلـ ه القـ ويم وضميره الحي أن يوقف استخدام هذا الحد في عام حالك عز فيه الرزق على الناس فهو لم يكن يتصـ دى لوقـ ف تعـ اليم السماء الرحيمة ولكنه استمد من رحمة ا الواسعة رحمـ ة مطلوبة للعباد.. وللمرء أن يـ رى بعـ ين الحـ ب والوقـ ار إرهاصات نبيلة سرت في قلب الخليفة النبيل، وهو يسـ تأذن ربه الرحيم في إرجاء عقوبته حتى لا تجتمع قسـ وتها مـ ع قسوة الحياة.. ولعل تلك الإرهاصات النبيلة سانده في تألقهـ ا استخدامه لرخصة شريفة أمهرها رسـ ولنا الكـ ريم بقولـ ه

المقدس " أنتم أدرى بأمور دنياكم ".. لن أتمسح فيما يأخـذه الغرب علينا من أن عقوبة السرقة فيما لو اسـتتب سـريانها على كل سارق فسوف تنحسر الأيدي المنتجة.. ووا ما كان مني التفات نحو هذا القول المردود عليه بقول قاطع يقول:

ومتى كانت يد السارق يـدا منتجـة؟.. فالإنتـاج يعنـي الزيادة.. والسلب يعني النقصان.. نقصان في مـال المنـتج وزيادة خبيثة في مال السارق..

من هنا وجب القول أن إفشاء نور العدل والحق والثـواب والعقاب والقِصاص والإرث وحفظ الحقوق لأصحابها ونشر العدالة الاجتماعية والنهوض بزينة الأرض، وسلام البشـر، وكل ما يحنو على الناس بالحب والخير والجمال، يجـب أن نستلهمه من تعاليم ا بما يحقق الغايـة منهـا والخضـوع لروحها والتسليم بنبلها ورحمتها.. وا الموفق..

" وعمد أحمد منصور إلى الورقـة الثانيـة فسـحبها – وتأثـره بالحديث المكتوب في الورقة الأولى صار باديا على ملامحه التي كساها بعض الرضا والوقار والصمت المتأمل، الآخذ في استعادة ما قرأه توا، واستملاح صداه الطيب..

وراح يقرأ الورقة الثانية:

- أرى أن الدين الإسـلامي هـو المصـدر الـرئيس للتشريع.. للأسباب الآتية:

١ – إننا لا نملك أي مصدر آخر خـلاف هـذا المصـدر المقدس.

٢ – لا يتناقض تمسكنا بالشريعة الإسـلامية مـع تمسـكنا بالأصالة المصرية التي نصبو إلى إحيائهـا وتكـريس مفهومها لدى الناس وأولهم الشعوب العربية الـذين لا يفتأون يتذكرون في بعض المواقف أننا فراعنة.

٣ – إن لم نتمسك بالدين الإسلامي فسوف نتهم بأننا نؤسس لدولة " عالمانية " لا تعترف بالأديان ولم تكن مصـر العظيمة ذات يوم إلا الشاطئ العظيم لازدهار الوحدانية والدين منذ سرت نحو السماء همهمات إخناتون المبجلة وهو يرنو إلى الأفق البعيد باحثـًا عن سـر ا فـي الملكوت..

٤ – ولأن الدين الإسلامي يحترم ويبجـل كافـة الأديـان السماوية فإن انعقاده - كراية ظليلة فوق الهامات التـي تؤمن با على أرض وادي النيـل - يـذكرنا دومـا

بالحرية التي ينعم بها الناس منذ ولادتهم وعلى اختلاف مللهم بتلك الحرية التي منحهـا ا لعبـاده، والتـي لا يفقدها من يفقدها إلا بفعل ثلة من الأشـرار أو حـاكم جبار.. هؤلاء الذين لم يلتفتوا إلى قوله تعالى.. " لكـم دينكم.. ولي دين.. "..

٥ – من هنا فإن ما ينعم به المسلم على أرض مصر، هـو نفس ما ينعم به المسيحي، ولو كان الخليفة العظيم عمر بن الخطاب قد صلى داخل الكنيسة ولم ينتقل خطـوات قليلة، ليؤدى صلاته خارجها لضاع الخط الفاصل بـين خصوصية العبادة تلك التي حافظ عليها عمر.. ولعـل هذه الخطوات القليلة تشير لنا إلى عدم تعـاظم الهـوة بيننا.. أو لعل الهوة بيننا لا تعدو أن تكون هـي تلـك الخطوات القليلة.. إذن فالمسجد والكنيسة متقاربان إلى الحد الذي يتيح لنا أن تنعم رءوسـنا بالظـل الظليـل لشجرة السماء..

تنهد أحمد منصور.. وقد راحت عينـاه تلمعـان ببريـق الإعجاب والسكينة..

- ا .. ا .. لو جاءت الورقة الثالثة بمثل ما جاءت بـه الورقتان السابقتان لانتهينا إلى رأي في هذه النقطـة.. لحصولنا على الأغلبية مع احترامنا لما يكون قد جـاء في باقي الأوراق..

ضحك مفتاح الصاوي ضحكته الجذلى وهو يقول:

- أنت الآن تطبق قوانين الكرة فـي ضـربات الجـزاء الترجيحية..

وقالت الدكتورة راوية:

- ومع هذا.. لا مانع من الاطلاع على كـل الآراء فقـد نعثر على حالة إجماع تاريخية.

وقلت أنا:

- أنا أؤيد الدكتورة راوية..

لقد كان من السهل حينئذ أن يفهم الباقون إنني والـدكتورة راوية في انتظار أن تُقرأ ورقتان.. ولقد كان من السهل أيضا أن يفهم من ذلك أن ما جاء بالورقة لأولى والورقة الثانية هو ما كتبه اثنان من ثلاثة.. أحمد منصور ومفتـاح.. أو أحمـد منصور وإمام.. أو مفتاح وإمام.. ولأن الأسلوب الرصـين الذي جاء في الورقتين لا يمكن أن يرقي إليه أسـلوب إمـام

فإن واقع الحال يقول إن ما سمعناه هو الرأي القاطع لأحمد منصور ومفتاح الصاوي في هذا الأمر..

مد أحمد منصور يده فالتقط الورقة الثالثة وراح يفردها بهدوء:

- الدين مهم للإنسان لأنه يحدد العلاقة بين الإنسان وربه.. وعلاقة الإنسان مع الإنسان الآخر.. والدين مكانه القلب.. كما أن الدين هو المعاملة.. ولقد رأيت بعض الشيوخ المنافقين يواظبون على الصلاة ونصيحة الناس ويقومون بمخالفات فظيعة " يندا " لها الجبين.. (على فكره يندى بالياء وليست بالألف.. هكذا قال أحمد منصور وهو يخرج عن النص) وفي نفس الوقت رأيت خواجات يعطون لكل شيء حقه ولكل إنسان حقه ولا يتكلمون عن الدين ليلاً ونهارا وكنت أظنهم لا يصلّون إلى أن اكتشفت أنهم يقومون بعبادة ا قبل كل طعام وقبل النوم بدعاء يحفظونه ويعلمونه لأولادهم.. ولقد فهمت منهم أن سر تقدمهم أنهم فصلوا الدين عن السياسة..

ومادمنا نريد التقدم فلماذا لا نفعل مثلهم؟.. لماذا لا نبعد الدين عن تجار السياسة ونجعله في مكانه المحترم ومكانته اللائقة..؟

فالبيت المحترم المتدين سيقدم للمجتمع والناس شخصا محترما متدينًا يتقى ا في عمله ويحافظ على حقوق الدولة وحقوق الناس..

لقد عرفت من والدي أن الإنجليز زمان كانوا يفرحون عندما يسهر المصريون في الموالد ولا يسهرون في المصانع.. والقصد من ذلك أن يقوم الإنجليز بتصريف وبيع إنتاجهم لنا.. لأننا طبعا لا ننتج مثلهم.. ولأنهم غير مشغولين مثلنا بالموالد وحلقات الذكر..

في رأيي يجب أن نبحث عن حل مناسب لهذا الموضوع ولا ننخدع في المظاهر..، ونركز على جوهر الدين الذي يدعو إلى التقدم حيث إن الرسول الكرم " يحسنا " على طلب العلم ولو في الصين.. (وعلى فكرة يا عم إمام يحثنا بالثاء وليست بالسين.. [هو يعني الواد بتاع الكمبيوتر مش عارف يصلحها من نفسه؟..)..

علت ضحكاتنا التي احمر لها وجه إمام الطيب الهـادئ.. وحتى يرفع منصور عنه الحرج بادره قائلاً:

- إنت كشفت عن نفسك يا طيب.. ليس بأسلوبك ولكـن بالأخبار التي قلتها عن الخواجات ووالدك وعلى كـل حال أنت أثرت موضوع مهم اختلفت عليه دول وأزمان وفيه عباقرة مشهورين بيحملوا رأيك ده.. وأعتقد أنه لو العباقرة دول ازدادوا واحدا فهو الأسطى إمام..

انبرى إمام فيما وجهه المحتقن نحونا، وهو يسحب صوته الذي تحشرج فعاجله بنحنحة خفيفة..

- متآخذونيش أنا كتابتي على قدي.. وجايز مـش قـادر أوصل معلوماتي (وبعد فترة صمت).. إذا كان فيه معلومات أصلاً.. لكن أنا حزين على اللي شفته بره.. واللي باشـوفه هنا.. العجيب اللي شفته ما كـانش فـي أمريكـا ولا فـي أوروبا.. لأ.. دا كان في دولة مستعمرة.. جنوب أفريقيـا.. ومن ناس مستعمرين.. يعني مستغلين.. ومن ٢٥ سنة.. وما عدا مظاهر التفرقة والعنصرية كنت با تعجب من نظامهم في العمل والدقة والإخلاص والنظافة.. طيب ما هو الدين بتاعنا بيطلب مننا كل الحاجـات دي.. والكـذب؟.. إلا موضـوع

الكذب ده.. أكبر جريمة عندهم.. للأسف احنا عندنا ناس قدام المحاكم جاهزين يدخلوا المحكمة، ويقفوا قدام القاضي علشان يشهدوا شهادة زور بالإيجار.. طبعا دول ناس غلابة مـش لاقيين ياكلوا بيبيعوا ضميرهم بتمن الأكل.. والواحد مبسوط من الكلام اللي مكتوب في الورقـة الأولـى أن عمـر بـن الخطاب أوقف حد السرقة في العام الحالك.. اللي هو طبعـا عام الرمادة.. علشان الجوع أسوأ مصيبة يمر بيها الإنسان.. وأسوأ جريمة تقع فيها دولة أو نظام.. والحاكم اللـي شـعبه يجوع مايستاهلش يقعد على كرسي الحكـم دا ان ماكـانش يستاهل حبل المشنقة..

(وعندما وجد إمام نفسه يستطرد مستهلكًا وقت المجلـس انتبه إلى ذلك وهو آخذ في إشعال سيجارته التي دسها فـي طرف مبسمه المذهب الرقيق)..

- على كل حال.. شوفوا حل.. الدين مهم.. وأمور الدنيا مهمة.. تجمعوا إزاي بين الدين والدنيا؟.. إنتم أسـاتذة كبار وناس مثقفين و..

قاطعه أحمد منصور: رأيك وصل يا سيد إمـام.. علـى فكرة.. أنا محتار تحب أناديك بإيه؟.. المعلـم إمـام؟.. ولاّ الأسطى إمام؟.. ولاّ السيد إمام..

ضحك إمام ضحكة رزينة:

- هو لازم ألقاب يعني؟.." إمام " كفاية.. وإذا كان ولابد:" المعلم إمام " بتعجبني.. خصوصا لما عرفت إن عثمان أحمد عثمان اختار لنفسه اللقب ده.. المعلم عثمان..

باغته أحمد منصور مقاطعا:

- ماشي يا معلم.. إنت تؤمر يا معلم..

تبادلنا الضحكات بفرح عندما لاحظنا أن إمام الطيب زال عنه الحرج.. ومع خفوت الضحكات كان أحمد منصور يمد يده ليسحب الورقة الرابعة.. ويقرأ:

لم يكن الدين عائقًا في يوم ما في طريق تقـدم البشـرية وطالما أعجبني تشبيه الشيخ الشعراوي رحمه ا من أن ا خالق الإنسان وأنزل معه كتابه الذي يصونه.. ولكي يقـرب ذلك لملايين العامة الذين يعتدلون أمـام جهـاز التلفزيـون لسماعه ذكرهم بما يحدث معهم عنـدما يبتـاعون جهـازا كالتليفزيون أو الفيديو أو يشترون سيارة من صـنع شـركة

ما.. فإنهم يحصلون من الصانع على كتالوج يوضح كيفيـة إدارة وصيانة وتشغيل هذا الجهاز أو تلك السـيارة.. وهـو بذلك يريد التأكيد على أن الكتب السماوية من قرآن وإنجيـل وتوراه إنما أنزلها ا – عز وجل - لحفـظ صـنعته فـي خلقه.. ولا يملك المخلوق تقويم نفسـه بعيـدا عـن تعـاليم الخالق.. وكم من قوانين أرضية راحت تتآكل ويعلوها البوار كلما تقدم بها الزمن وانتهت صلاحيتها فركن أصحابها إلـى تغييرها.. وكم من قوانين ثبت أنها تخدم بعض الناس علـى حساب البعض الآخر.. ولكن لأن الناس سواسـية أمـام ا كأسنان المشط فإن رحمته جلت قدرته ظللتهم وهم في رحـم الغيب، أما قوانين البشر فقـد عـذبتهم وهـم فـي سـعير الحياة..فاختر لي قانونًا يمتد مداه حتى يصل إلى أفق الدين.. واختر لي قانونا ينبع منطوقه القويم من نبع الدين تجدني قـد أسلمت لك قيادي وطهرت لك قلبي ومنحتك وجداني شـهيا على مذبح الرب..)

كانت ابتسامة أحمد منصور التـي تبادلهـا مـع مفتـاح الصاوي تعني أنهما قد فهما أن هذا أسـلوبي وأن ورقتـي شاعرية النص وهائمة البيان كانت تشير إلى شخصـي أنـا

المسيحي الوحيد الذي يمثل خُمس المجلس.. والذي لم ينكـر إعجابه بالشيخ الشعراوي.. واحترامـه لكـل الأديـان وأن موافقتي على هذا الأمر جاءت ضمنًا حتى لو غلّفها التلميح..

لم يشأ أحمد منصور أن يعلق على صيغة البيـان وإنمـا فضل كما بدا لي أن يعززه بقول رقيق:

- تلك هي الموافقة الثالثة التي تتيح لنا الأغلبية..

قال مفتاح الصاوي:

- ولكنها تفتقد إلى الصراحة..

رد أحمد منصور:

- ولكنك لا تستطيع أن تضعها في جانب الرفض الـذي أظهره المعلم إمام.. شتّان بين هذا.. وذاك..

قال مفتاح الصاوي:

- أرجو أن تعلقها حتى نطّلع على الورقة الأخيرة: كنـت أنا – على الأقل – من فهم أن الورقة التـي سـيتلوها أحمد منصور توا هي ورقة الـدكتورة راويـة عبـد العظيم.. والتي سارع أحمد منصور بسحبها في شغف مما جعلني أوقن أن شغفه ليس مرجعه – فقط – البـت في أمر الدين الإسلامي كمصدر رئيسـي للتشـريع..

وإنما لمزيد من التعرف والامـتلاء بمـذاق شخصـية راوية التي يبادله وتبادله كل الاحترام والتقدير والتفاهم الطيب الذي يشير إلى وجود كثير من نقاط الالتقاء التي تجمعهما..

تنحنح أحمد منصور ثم راح يقرأ:

- بسم ا الرحمن الرحيم..

١ - مفتتح: لعل أسوأ الأيام في تاريخ مصر هو يـوم ٥ يونيه ٦٧ عندما انهارت حدود مصر وبعض الدول العربية أمام اليهود فدخلوها عنوة..

وما لا يعرفه الناس أن هناك ٥ يونيه آخر أسـوأ حـالاً انهارت فيه فكرة الامتلاك والمِلْكية بمنتهى الرضـا عنـدما استولت أمريكا على آبار البترول في البلاد الحجازية بعقـد أبدى وقّعه عبد ا السليمان وزير المالية السعودي (ولويـد هاملتون) مندوب أمريكا يوم ٥ يونيه ١٩٣٣ يقضـى ببيـع ثروة البلاد وأرضها للولايات المتحدة..

٥ يونيه المصري حدث عندما غاب المصريون عن دينهم وبحثوا عن غطائهم لدى السـوفييت ولـم يتغطـوا بالـدين والقرآن.. فانكشفت سوءاتهم لكل الدنيا..

أما ٥ يونيه السعودي فقد حدث عندما بـاع السـعوديون ثرواتهم لأمريكا ثم غطّوا نظامهم بغطاء الدين..

وهذا يدل على أن ولاة أمر المسلمين إما أن يهملوا دينهم عمدا أو يستخدموه لأغراضهم – أيضا – عمـدا.. والـدين منهم في كلتا الحالين بريء..

٢ – وفي بحثنا المهم عن مصادرنا التشريعية فإن أول ما يتبادر إلى ذهن المرء أن ديننا الإسلامي الحنيف هو مصدرنا المقدس للتشريع وأصول الحكم، ولكن مـع تطور الفكر البشرى الذي يستمد تطوره ولا شك من كثير من الروافد الثقافية المتصاعدة والتـي يـدين أغلبها لروح الدين ؛ فإن اعتبار الدين الإسلامي أحد المصادر الهامة للتشريع سيفتح الباب لقبول ما تيسر لنا قبولـه من مصادر حضارية أخرى يحـق لنـا الأخذ بما يعن لنا أخذه منها.. فاعتمادنا على أغلـب القوانين التي سنّها المشرعون استنادا لما راق لهـم من مواد القانون الفرنسي، شيء يتناقض مع ما هو معلن في الدستور من أن الـدين الإسـلامي هـو المصدر الرئيسي للتشريع.. ومادام الأمـر كـذلك

فلماذا لا نقر الواقع ونسجل حقيقة ما يحدث ونفتح الباب للأخذ بكافة المصادر التي تتسق مع ما نصبو إليه من تطوير وتجديد؟..

٣ – وبما أن الإيمان الحق موهبة يسديها ا لعبد دون عبد آخر.. وأن السمو البشرى والترفع عن الدنايا ما هو إلا إبداع تتحلى به نفوس سوية عن نفوس أخرى تنخرط في الرذيلة.. ولذا فإن الفرد الذي هو أساس المجتمع يجب أن يرقي بنفسه إلى ذائقة النحلة الضعيفة التي تهيم سابحة في ملكوت ا تنتقي لنفسها من مختلف الورود والأزاهير ما تختزنه لتمجه عسلاً مصفي للناس بعد حين، فهلاّ فتحنا الباب للنحلة البشرية / الإنسان ليجد أمامه باقات الفكر مرصوصة وأزاهير الرأي موضوعه ينتقى منها ما يعينه على الكمال؟..

وأمام هذا البيان المليء بالصور البلاغية أخذتني الحيرة.. إذ كنت قد ورطت نفسي في اعتبار أن الورقة الأولى والثانية هما لأحمد منصور ومفتاح الصاوي.. وأن ورقتي وورقة إمام انكشف أمرهما.. وأن الورقة الأخيرة هي بلا شك ورقة

راوية.. ولكن أمام هذا البيان الساحر أحسست أن هذه المرتبة من اللغة لا يمكن أن تملكها راوية قياسا بمرتبة أحمد منصور أو مفتاح الصاوي فراوية إحدى الوافدات حديثًا على الثقافة التي لم تكن من أركان اهتماماتها قبل حادث زوجها رحمي وأنها راحت تنهل منها بشغف في وقت متأخر من عمرها.. وأنها لا يمكن أن تكون قد تمكنت من هذه اللغة في تلك السنوات القليلة.. ولكن ما زاد من حيرتي هو الاعتقاد مرة أخرى بأن هذه الورقة هي ورقة راوية بسبب ما ورد فيها من خبر خطير حول بيع ولاة الأمر في السعودية لثرواتهم للأمريكان منذ سبعين عاما.. وأنها ما طرحت ذلك إلا لأنها تكره هؤلاء القوم ولا تؤمن بما يعلنونه من إسلام يحكمون في ظله البلاد.. وأنها قالت لنا ذات مرة إنهم يتحكمون ولا يحكمون.. فمن منا كان يعرف تلك المعلومة عن يوم ٥ يونيه السعودي؟.. يوم الهزيمة المختارة التي تمتد آثارها بالخير العميم على الأسرة المالكة والاستسلام المقيم لكل الشعب السعودي..

لاشك أن راوية منذ أن عذبوها وتسببوا في موت زوجها وهي تحمل لهم من الكراهية ما جعلها تحتفظ في ذاكرتها بكل ما تقرأه عن مثالبهم ولعلها تضيف على هذه المثالب..

مثالب أخرى من صنعها زيادة في الحنق والتشفي..

إذن فهي ورقة راوية..

قلت لنفسي: لا يهم.. وليظل هذا الاختلاط نافـذًا.. بلـه الأفضل أن يظل كذلك.. حتى تختلط الألوان وتمتزج في لون واحد.. وحتى تجمتع كل ألوان الطيف في لوحـة واحـدة.. وحتى يقال عنا حقًا ودون مبالغة إننا قد توصـلنا فـي أول اجتماع لنا إلى ما لم يصل إليه من سبقونا وهـو أننـا قـد أصبحنا: " الكل في واحد "..

لقد أنهى أحمد منصور الاجتماع.. وهو يردد:

- إذن يا سادة يجب أن نضع هذا البنـد هكـذا:" الـدين الإسلامي أحد المصادر الهامة للتشريع ".. وعنـدما تلقـى موافقـاتنا بهزات متتالية من رءوسنا رمق راويـة بطـرف خفي وكأن لسان حاله يقول:

إنك – وا - لامرأة وسطية.. والإسلام يحب الوسطية..

وعندما هم أحمد منصور واقفًا بادرنا قائلاً:

في الاجتماع القادم سنتحدث في:

- تداول السلطة..

- حق الرئيس في التجديد لنفسه أو توريث الحكم..

(٥)

" ورئيسهم يعلو المكان المدبب "

السفارة الأمريكية

جاردن سيتي

القاهرة

عاجل / هام / سري

إلى السيد / نائب وزير الخارجية..

....

لقد أولينا هذا الموضوع اهتماما بالغًـا منـذ أن تحولـت هواجسنا معكم إلى مخاوف فعلية ولم نشأ أن نتعجل الأمـر ونسارع بإبلاغكم بماهية الموضوع من أفراد وأماكن إلا بعد متابعة دقيقة لتحركاتهم واجتماعاتهم..

ويمكننا أن نطمئنكم أن ما توصلنا إليـه " وتأكـدنا مـن صحته عدة مرات ونحن ندقق ونتحرى الألفاظ بإعادة طرح

تسجيلاتنا لبعض من نثق فيهم من عملائنا الضالعين في اللغة العربية" يدعو إلى الاطمئنان..

فكلمة القاعدة التي التقطها رجلنا تارة من المقهى أو مـن مكتب المحامي أو من دار الأيتام لا علاقـة لهـا بالكلمـة المشابهة التي تعني (تنظيم القاعدة) فالمصـريون كلمـاتهم العربية أحيانًا تحمل دلالات خاصة بهم.. فعندما يشيرون إلى عمل الأساسات الخرسانية لمنازلهم يطلقون عليها القواعـد.. (foundation) ومفردها قاعدة.. ولا علاقة لهـذه الكلمـة بالقاعدة التأسيسية للتنظيم الإرهابي الذي أسسه السيد / أسامة بن لادِن..

وقد تبين لنا أن هؤلاء المجتمعين يتداولون هـذه الكلمـة ولكن في شكل نصف قاعدة.. ولقد فهمنا بصعوبة ما يصبون إليه ووجدناهم يتداولون فكرة حالمة لتكوين حزب جديد.. له منضدة تأسيسية مثلثة الشكل.. والمؤسسون (وعددهم خمسة) يتصدر أربعة منهم الجلوس عند هذه القاعدة ورئيسهم يعلـو المكان المدبب..

ومن الواضح أن هؤلاء الأفراد بمـا فـيهم مـن طيبـة يتناولون الأمر بنوع من السذاجة، ويحاولون تحويل أحلامهم بمجتمع ديموقراطي فاضل من دائرة الحلم إلى دائرة الواقع..

وفي جميع الأحوال فنحن نتعقـبهم ولكنـا لا نخشـاهم، ومرفق مع هذا التقرير تفريغ لتسجيلات اجتماعـاتهم التـي راحت تتكثف هذه الأيام، بعد نجـاحهم فـي تقـديم أوراق الحزب إلى لجنة الأحزاب للموافقة عليه، عمـلاً بنصـيحة (أخوية) من وكيل النائب العام واسمه مرقص بستخاروس..

ملحوظة: من المحير لنا: أنه لولا الأسماء التي تدل على الديانة لأخَذَنا الظن أنهم جميعا من المسلمين..

سفير الولايات المتحدة الأمريكية

لدى

ج. م. ع

التوقيع:...........

(هام وسري وعاجل)

واشنطون

مكتب وزير الخارجية

سعادة السفير........... ج. م. ع

بعد التحية:

إذا كان ما عبرت عنه حول هؤلاء الأشخاص من أنهـم يمارسون أحلام اليقظة؛ فلا يجب أن ننساق نحن أيضا فـي هذا النوع من الأحلام، ونؤمن بصحة ما يفكرون فيـه مـن الناحية الشكلية، مما يبعدنا عن تفحص الجوهر..

المصريون خبثاء.. ولا تنس أن السادات ضـحك علـى نيكسون وكيسنجر وجولدا مائير.. ولم تستطع كـل أجهـزة مخابراتنا ومخابرات إسرائيل التعرف على حقيقة اسـتعداده لشن حرب أكتوبر.. لقد احتمى هذا الفـلاح الخبيـث فـي مجموعة مظاهر ساذجة على حافة القناة، ومع ذلك اسـتطاع أن يبعد أنظارنا – بعيدا جدا – عن حقيقة ما يخطـط لـه.. ويبدو أن هذا يتكرر عندك.

أعتقد أن الأمر أكبر مما تفكر فيه أنـت بهـذه الطريقـة البريئة، ونحن محاطون بالأعداء في كل مكان.. لقد سـجلت أوراقهم بعض أحاديثهم حول نشاط المقاومة في العراق.. ألم تلاحظ كمية السعادة التي طفحت في حديث " إمام " واعتقاده أن صدام حسين الحقيقي مازال بعيدا عن متناولنا، وأنه ليس هو الرجل الذي بين أيدينا.. وأن صدام حسـين هـو الـذي يخطط للسنّة والشيعة على السواء لقتـل أولادنـا والتمثيـل بجثثهم..

أعتقد أنك بدأت تضع يدك على شبكة خطيرة..

انتبه..

نائب وزير الخارجية

التوقيع:...........

القاهرة

جاردن سيتي

السفارة الأمريكية

عاجل وهام وسري

إلى السيد / نائب وزير الخارجية

بعد التحية:

نأسف إذا كنتم قد فهمتم من تقريرنا السابق أن مخاوفنا من هؤلاء الأشخاص قد انتهت وتبددت، لمجرد استخفافنا بما يفكرون فيه..

هم بالفعل يؤسسون لتنظيم حزب سياسي جديد، هذا الذي أسموه "مصر.. الأم " ويكفي أن نفهم من دلالة هذا الاسم أن المصريين مازالوا يبحثون عن دورهم الذي ضاع منهم بعد كامب ديفيد السادات – بيجن.. وأن ما سنح لهم من قيادة المنطقة في الزمن الغابر موقف لا يتحسرون على ضياعه قدر ما يحاولون العودة إليه.. ولعل ترددهم في الموافقة على فكرة الشرق أوسطية ليس سوى لأنهم بدءوا يشعرون أنهم سيتحولون إلى حقيقة تاريخية دائمة مفادها أنهم أصبحوا مجرد سن صغيرٍ في ترس كبير..

أوافقك الرأي عن مدى كفاءة المصريين العقلية التي عبرتم عنها في خطابكم بالخبث.. وأن هؤلاء الأفراد - وإن

بدا من تجمعهم أنه جاء صدفة – يشتركون جميعا في شعور واحد بضرورة التنظيم للوصول إلى الإصلاح.. ولن تكـون هي الصدفة وحدها هي التي جعلتهم من المثقفين ماعدا " إمام إمام " الذي يملك نوعا من الثقافة الحياتية شديدة الخطورة..

نشكركم على توجيهكم الذي سنعمل به ونضـعه نصـب أعيننا..

سفير الولايات المتحدة الأمريكية

لدى

ج. م. ع

التوقيع:...........

(٦)

استَقو بنفسك.. وليس بالآخرين..

لم نستهلك وقتًا طويلاً في الحصول على موافقة جماعيـة على عدة موضوعات تتسم بالإثارة..

وكان الموضوع الأول هو الفترة التي يتولاها الرئيس في الحكم، وهل من الأفضل أن تكون أربع سنوات...؟

أم خمس سنوات...؟..... أم ست سنوات...؟

تداولنا الأمر، ووضعنا نصب أعيننا المؤسسة الأمريكية.. وتميزها التاريخي في تداول السلطة.. وكيف لم يتمكن بعض الرؤساء الأمريكيين من تولي الحكم أكثر من أربع سـنوات، وأن أكثرهم شعبية وبراعة لم يتمتع بمنصبه أكثر من ثماني سنوات محسوبة بالساعة الواحدة.. ولم يكـن مستسـاغًا أن نقارن بين حالهم وحال الملوك والرؤسـاء العـرب الـذين يتشبثون بمقاعدهم رغم أنوف شعوبهم.. فهـذا النـوع مـن المقارنة بات ممجوجا وفاترا ومملاً إذ لم يعد من المناسب أن تصدع رأسك بأمر بات محسوما ومفروضا ولا علاج له إلا

بالموت.. موت الملك أو الرئيس حتى يحدث التداول القسري أو التغيير القدري..

قال أحمد منصور:

- ليتنا نتفق أن تكون الرئاسة مدة واحـدة غيـر قابلـة للتجديد.. بمعنى أنه لا يحق للرئيس السابق الترشـيح لمـدة جديدة.. لا هو ولا نائبه.. مهما كانت شعبيته.. مهمـا كـان حجم إنجازه..

سأله مفتاح الصاوي:

- إذن فأنت تقتفي أثر النظام الأمريكي أن يـتم انتخـاب الرئيس ونائبه دفعة واحدة؟..

أجاب أحمد منصور:

- لا يصح أن يفرض علينا الرئيس اسم من يحل محله.. فالشعب المصري لم ينتخب أنور السادات، وإنما جاء ذلـك بتعيين من عبد الناصر ؛ كذلك الحال مع حسني مبارك الذي جاء أيضا بتعيين من السادات.

والتقط أحمد منصور أنفاسه وهو يؤكد:

كلمة تعيين هذه صحيحة مائة بالمائة.. فلو كان لديك نائب واحد طُرح اسمه أمام الشعب في استفتاء.. هل تنتظر مـن الشعب المصري أن يرفض اسـما حـدده رئيسـه قبـل أن يموت؟.. نحن شعب عاطفي وللحزن قيمتـه المثلـى فـي نفوسنا.. بجانب أنـك لا تملـك حـلاً آخـر.. فالدسـتور يحاصرك.. وجمـوع المهللـين تجتـاح الشـوارع طلبـا للاسـتقرار.. وأصـبح التمحـك فـي الاسـتقرار ذريعـة للاستمرار..

قالت راوية:

- إذن فإحجام حسني مبارك عن تحديد اسم نائبه فكـرة تنطوي على نية أو مفاجأة لتغيير ما ينشده من التـداول، أو في طرح أسلوب جديد.. والتخلي عن الأسـلوب المـوروث الذي ملّه الناس رغم نص الدستور عليه..

قلت لهم:

أنا شخصيا لدى إحساس غريب أن هذا الفراغ المتـروك عمدا سيكون هو المخرج إذا ما حدث أي نوع مـن أنـواع الفراغ الرئاسي..

هتف مفتاح الصاوي ضاحكًا:

- الفراغ الرئاسي؟.. هذا تعبير جديد لم نسمع بـه ولـم يحدث في الواقع.. ما الذي تقصده؟..

قلت لهم: - أن يخلو مقعد الرئاسة فجأة.. بالوفاة مـثلاً – لا قدر ا – أو بالاعتذار لأسـباب صـحية.. أو بـانقلاب دستوري..

وأكملت وهم ينصتون في اهتمام واستغراب:

لو حدث ذلك هل تستطيع أن تطبق الدستور.. حيـث لا مجال لتطبيقه.. إذ أن نائب الرئيس المنوط به شـغل مقعـد الرئاسة بعد الاستفتاء – معروف النتيجة – غير موجـود.. والفترة الدستورية التي يتولى فيها رئيس مجلس الشعب مقعد الرئاسة لحين تسمية الرئيس الجديد لن تكفي لاختيـار مـن يتولى الرئاسة.. هنا لابد أن تُجمع الآراء وتجتمع حول عمل انتخاب شعبي يحدث في مصر ولأول مرة، وهو أن يتـولى كل حزب من الأحزاب طرح اسم ما من رجاله لينافس على مقعد الرئاسة..

ووجدت نفسي ألتزم الصمت لبضع ثـوانٍ حتـى أرتـب كلماتي القادمة لما بها من غرابة، أحس مقدما أنها ستعصف بعقولهم فتساءلت أولاً:

- أليس حسني مبارك هذا رجلاً ريفيـا مسـلما يـؤمن بالقدر؟..

قالوا: بلى..

قلت:

- أليس هاجس الموت والتفكير فيه كزائر يـنقض علـى المرء؛ فيخطفه من بين ذويه في أي لحظة.. شيئـًا يشـغل دوما أغلب المصريين؟..

قالوا:

- بلى..

أكملت وأنا أحاول التماسك:

- في ظني أن الرئيس ترك مقعد النائب شاغرا لسبب في نفسه وغالبا هو السبب المتعلق بما قلته الآن عن المـوت، إذ ربما قال لنفسه: " إذا كان جمال عبد الناصر قد سمى الرئيس الذي يخلفه.. وهو السادات.. وإذا كان السادات قد سمى هو

الآخر الرئيس الذي يخلفه وهو أنا.. فلماذا لا أغير هذا النمط وأمنح للشعب فرصة قسرية ليسمي بنفسـه رئيسـه ولأول مرة.."..

قال إمام إمام:

- تقصد أن هذه الفرصة لن ينالها النـاس إلا بعـد رحيله..

- الواقع أن هذه الفرصة.. يجب أن يعطيها الرئيس للناس من الآن، ولن يحسوا بقيمتها، إلا إذا حدث ما يفكر فيه، وخلا مقعد الحكم برحيله..

قالت الدكتورة راوية:

- ومن أدراك أنها فرصة لعمل انتخابـات شـعبية صريحة؟.. ألا يمكن أن تتحول هذه الفرصة إلـى بداية للتناحر والصراع الذي إذا اشتد سيتحول إلى حرب أهلية؟..

أوقفها أحمد منصور عن الحديث رافعا راحته اليمنى في الهواء على شكل احتجاج:

- معذرة يا دكتورة.. مصر هي البلد الوحيد في التـاريخ الذي لم ولن تقع فيه حرب أهلية.. تاريخ مصر منـذ فجـر

البشرية لا يحمل هذا الخبر.. المصريون توحدوا واصـطفوا ضد الفيضان.. وتوحدوا واصـطفوا ضـد الغـزاة.. ولـم يصطفوا طوال تاريخهم ضد بعضـهم الـبعض.. ولكنـي أستطيع أن أفهم من حديث جورج شيئـًا جديـدا، ربمـا ساعدني هو على اكتشافه لأول مرة.. من الممكن فعـلاً أن هذا الفراغ المقصود كان نواة للتفكير فـي توجيـه الشـعب والأحزاب أن يملأوا هذا الفراغ بتضافرٍ لابد أن يأخذوا بـه لتسمية رئيسهم بأنفسهم.. إذا ما رحل رئيسهم فجأة.. ولكـن يبدو أن ما يفكر فيه المرء شيء ربما يختلف عن تصـاريف القدر.. وأنا واثق أن الرئيس نفسه لم يكن فـي ظنـه أنـه سيعتلى مقعد الحكم طوال هذه المدة وأن يكبر ولده الأصغر حتى يطرح اسمه كخليفة لـه تشبها بما حدث فـي سـوريا وهي جمهورية.. والمغرب والأردن وهما مملكتان..

قال إمام مقاطعا:

- : لا تنس أن الرئيس نفى مسألة الخلافة هذه، واعتبرها نوعا من تخريف العامة..

رد عليه أحمد منصور قائلاً:

- : الرئيس فعلاً يعني ما يقوله في هذا الجانب، ولكن إذا حلّلت ما نطرحه الآن وقارنته بما حدث في الواقع، من تمكين جمال مبارك من مقعد في الحزب شاهق الارتفاع لابد أن نتوقع أن اسم جمال سيكون هو المرشح عن الحزب الوطني، في مواجهة أسماء أخرى من باقي الأحزاب.. والباقي معروف..

تساءل مفتاح الصاوي:

- نفهم من هذا أننا بصدد الدخول في تجربة جديدة.. تجربة سيتولى الرئيس إدارتها إذا أعلن عزوفه عن الاستمرار في الرئاسة، وعدم الحصول على مدة رئاسية جديدة.. وهذه التجربة ببساطة سيكون ظاهرها الديموقراطية تمشيا مع هذا النداء المتعالي الذي تتولاه أمريكا.. وسيكون باطنها هو تأمين مقعد الرئاسة لمرشح الحزب الوطني الذي سيواجه عددا من مرشحي الأحزاب الباهتة الأخرى.. والباقي كما قال أحمد منصور.. معروف..

قالت راوية متسائلة بنوع من التخابث..

- ومن أدراك؟.. فربما يرشح الحزب الـوطني اسـما آخر.. ولن يطرح اسم جمال مبارك بالتحديد..

قال مفتاح الصاوي:

- سيحدث ذلك فعلاً.. ولكن في شكل تمثيلية.. إلى أن تهب الجموع الرافضة لطرح اسم جمال وسيستجيب المرشح الجديد ويتقدم للترشيح نزولاً علـى رغبـة الشعب.. وأغلب الظن أن هذه التمثيلية ستدار مـن قاعة مجلس الشعب وسيتولاها كل المستفيدين مـن النظام.. وما أكثرهم!..

تساءلت أمامهم:

- والجيش؟..

قال أحمد منصور: سيقف على الحياد.. طالما أن الأمور تسير في صالح المؤسسة القديمة..

تساءلت مرة أخرى:

- وإذا لم تستجب الأحزاب لهذه التمثيلية..؟..ورفضت المشاركة فيها أو حاولت تعطيلها..

قال أحمد منصور:

- من المحتمل جدا أن يحدث هذا.. فهم يعلمون مقـدما الـدور الـذي سـتلعبه الداخليـة.. والخارجيـة.. والإعلام.. وسائر المؤسسات والشـركات ورجـال الأعمال والنخبة المستفيدة من الوضع القائم.. وكـل هذه معوقات جاهزة مقدما فـي طريـق الأحـزاب الباهتة كما أسماها مفتاح..

قلت لهم: لا تنسوا أن فـي مصـر الآن لجنـة لحقـوق الإنسان، ومن الممكن أن ترفع الأحزاب صوتها لهذه اللجنة مطالبة بوضع الانتخابات تحت إشراف دولي..

قال أحمد منصور: لا أعتقد أن هذا الأمر من مهام تلـك اللجنة فهي تعتني بالدرجة الأولى برفع القهر عن المقهورين إذا اشتكوا.. وثق أنها ستكون شكلية الآداء روتينية الجـوهر في بادئ الأمر إلى أن تتمتع بديموقراطية الغربيين.. وهـذه الأمنية يحتاج تحقيقها إلى وقت طويل..

تحول مفتاح الصاوي بالحديث إلى وجهة أخرى متسائلاً:

- يا أخي أنا أتعجب.. قانون الحكومة يمنع الموظـف من التعامل مع أقاربه حتى الدرجة الرابعة في مجال وظيفته.. يعني ممنوع دخولهم في مناقصات تعلنهـا

دائرته أو منافسات للحصـول علـى وظـائف.. ألا يطبق هذا في حالة أعلى وظيفة فـي التـاريخ..؟.. وظيفة رئيس الجمهورية؟..

قالت الدكتورة راوية:

لقد تم اختراق هذا القانون بنوع من العرف الذي طغـى على قوة القانون نفسه.. انظر لعمداء الكليات الذين يحجزون مقاعد وظيفة المعيد لأبنائهم منذ دخولهم الكلية.. بل يطيحون بأصحاب الحق من المتفوقين حتى لا يشغلوا هذه المقاعـد.. وامتد الأمر إلى القضاء والنيابات والشرطة حتى لقد أصبحت الأولوية – رسميا – في النيابات لأبناء وأقارب كبار رجـال القضاء..

لم نكن ندرى: إلى أين سـيمتد بنـا الحـديث؟.. وأيـن سينتهي؟.. ولكننا وبعد أن تفرعنا يمينًا ويسارا وجدنا أحمـد منصور قبل أن ينهى هذا الاجتماع يتناول حزمة من الأوراق من على يساره وهو يلوح بها في مواجهتنا مبتسما ثم قال لنا إنه مشروع مذكرة سيتم تقديمها - كمؤسسين للحزب - إلى السيد الرئيس نقترح فيها على سيادته أن يرعى مشروعنا – هذا – الذي نراه ملائما للخروج من أزمة تـداول السـلطة

وحل اللغز المبهم الذي يعوق تحقيق هـذا التـداول.. لغـز الفجوة بين الدستور وواقع الحال الذي لا يحقـق مـا جـاء بالدستور.. لغز عدم ملء فراغ وظيفة نائب الرئيس وإمكانية الاصطدام بهذا الفراغ إذا تطلـب الأمـر تسـمية رئـيس للجمهورية..

وراح أحمد منصور يقرأ النقاط الرئيسية التي سـيحملها هذا الاقتراح دون أن يتطرق للحواشي والمقدمات والخاتمة:

١ - أن يعلن الرئيس عدم رغبته في الحصول على مـدة رئاسية جديدة..

٢ – أن يطلب من الأحزاب أيا كان عددها أن تندمج في حزبين اثنين على الأكثر..

٣ – أن تبدأ معركة الانتخابات طوال عام كامل أو نصف عام، بين الأحزاب الأربعة (الوطني.. ومصر الأم.. والحزبين المندمجين نيابة عن كل الأحزاب) علـى أن يقدم كل حزب اسم المرشح للرئاسـة ونائبـه.. بالترشيح المباشر أو من خلال تصفيات داخلية..

٤ – أن تتم هذه الانتخابات تحت إشراف دولـي ضـمانًا للحيدة والنزاهة..

٥ – ألا تشترك في الإشـراف علـى الانتخابـات أيـة مؤسسات حكوميـة أو وزارات سـيادية.. ويكـون الإشراف لرجال القضاء فقط..

٦ – أن يكون يوم السادس من أكتوبر هو اليوم المحـدد لتولي الرئيس الجديد لمهام منصبه في بدايـة كـل ولاية..

٧ – أن تكون فترة الرئاسة ٥ سـنوات ميلاديـة ولمـدة واحدة فقط.. أي يعتلي الحكم رئيسان في كل عقـد [أي كل عشر سنوات]..

(٢٠٠٥ / ٢٠١٠ / ٢٠١٥ / ٢٠٢٠ ...... إلخ)

٨ – أن يكون حق التصويت متاحـا لكـل مـواطن أو مواطنة يتعدى عمرهما الثامنة عشرة.

٩ – اعتبار البطاقات الشخصية أو العائلية هي البطاقـة الانتخابية، ويخصص صفحة لوضع الختم الدال على الإدلاء بصوت صاحب البطاقة.. مصحوبا.. بـرقم كودي مخزن في الحاسوب منعا للتزوير..

١٠ – يحق للمواطن أو المواطنة التصويت في أية بقعـة من بقاع الجمهورية دون التقيد بدائرة معينة..

١١ – يحرم الموطن الذي تخلو بطاقته من الخاتم الـدال على ممارسة التصويت مـن ممارسـة أي حقـوق سياسية كالترشيح فـي النقابـات أو المحليـات أو الأندية..أو التمتع بأية مجانية أو تخفيض يتاحـان – للمواطن الملتزم - في أي نشاط اجتماعي أو ثقافي أو مهني.. (أي تعطيل حقوقه السياسية نظرا لإهماله في ممارستها)..

١٢ – إدخال نظام الحاسب الآلي فـي عمليـات تجميـع الأصوات وفرزها بشكل حضـاري متقـدم يمنـع الاجتهادات الشخصية ويحقق الشفافية المطلوبة..

١٣ – عدم التقيد بحصول الفائز على نسبة معينـة مـن الأصوات والعبرة في تحديد الفائز هو نسـبة عـدد الأصوات مقارنة بباقي المرشحين.

١٤ – يتاح لأفراد القوات المسلحة ممارسـة التصـويت داخل ثكناتهم العسكرية وبموجب بطاقاتهم الخاصـة (عائلية / شخصية) كبقية أفراد الشعب..

١٥ – يتاح للجاليات المصرية خـارج الـبلاد ممارسـة التصويت داخل سفارات مصر وبإشراف طاقم كـل سفارة..

١٦ – يتم تقسيم فترة الانتخابات إلـى ثـلاث مراحـل، المرحلة الواحدة مدتها ثلاثة أيام يـتم فيهـا جمـع أصوات ٩ محافظات في كـل مـرة لتغطيـة كـل محافظات الجمهورية على أن تعلن نتائج كل فتـرة أولاً بأول..

١٧ – يتم تعديل الدستور للأخذ بهذا النظام وأن يؤخذ في مبدأ تداول السلطة قيام نائب الرئيس بتولي الحكـم إكمالاً للمدة الرئاسية في حال خلو مقعد الرئاسة لأي سبب..

ثم راح أحمد منصور يحدثنا في عجالة عن أهم مـا فـي الحواشي والمقدمات، وكيف طرح علـى الـرئيس الأخـذ اقتصاديا بسياسة السوق المفتوح والاقتصاد الحر؛ علـى أن ترأعي هذه السياسة حالة الطبقة الفقيرة خلال الفترة الانتقالية اللازمة لاستقرار هذه السياسة ونجاحها، ودخول الطبقة الدنيا في منظومة العمل والإنتاج.. وأن ما يجب أن يهتم بـه فـي

بناء المجتمع المصري الحديث هو عقول الناس ونفوسـهم.. والعقول لا تُبنى إلا بالعلم، والنفوس لا تعتـدل إلا بالتمسـك بالقيم البناءة المتوارثة.. ولنا في اليابان قدوة حسنة ؛ فاليابان لم تأخذ من الغرب سوى العلم والتكنولوجيا.. أما الأخـلاق البناءة كالاحترام وتقديس العمل والمسئولية والولاء والانتماء فهي القوة الدافعة والأرضية الشفافة النقية لجـودة العمـل، وحسن التحصيل والدراسة والتطوير.. " ولا يجب أن ننسى يا سيادة الرئيس أن اليابان بدأت رحلة التحديث وهي تقتفـي أثر محمد على باشا في ذاك التحديث عندما اعتبروه نموذجا عصريا يجدر الأخذ به، وكان ذلك بالتحديد في عـام ١٨٦١ عندما جاءت بعثة الساموراي اليابانية لتشاهد الجسـور فـي مصر والقناطر والسكك الحديدية ويعـودون إلـى بلادهـم مبهورين تأخذهم الدهشة..

أين هم الآن؟.. وأين نحن؟.. وماذا حدث؟..

ما حدث هو أنهم لم يهتموا بالآلة قدر اهتمامهم بمن يدير هذه الآلة.. وفهموا أن النجاح يكمـن فـي حسـن الإدارة.. والإدارة يقوم عليها أفراد.. فاهتموا بتطوير نفوس الأفـراد وإحياء القِيم البناءة والسلوكيات القويمة في هـذه النفـوس..

فالفكر الابتكاري، والأخلاق، والعلم هـم أضـلاع المثلـث الذهبي للتقدم، فالأموال بدون علم وفكر وأخـلاق مصـيرها الفناء.. ولكن من الممكن أن يأتي العلم والفكـر والأخـلاق بالأموال..

إننا ننجرف لمواجهة تحديات كبرى في هذا العالم الـذي تتسارع خطواته نحو التقدم ولن يحمينـا مـن الضـياع، إلا تمسكنا بالعلم والفكر والقيم البناءة..

إن أحمد منصور ينتقي بعض الفقرات التي رأينا أنـه لا يقرأها علينا قدر ما يستطلع رأينا فيها.. مستوضـحا مـدى ملاءمة هذا النوع من المخاطبة مع رئيس البلاد.. وهل مـن الممكن أن يؤاخذ على ذلك؟.. أم أن ما يسود المجتمـع الآن من إطلاقٍ لحرية الرأي سيعصمه من الإهانة؟..

وراح يستطرد:

(........ انتهى بعض المثقفين الذين يؤرخون للشخصـية المصرية ويخرجون من بطون الكتب – قديمها وحـديثها – مدى تعاسة هذه الشخصية إلى تأكيد ما قاله المقريزي مـن أن: الذل مصري الجنسية وأن المصري كان محاصرا دوما بين حاكم ظالم وكاهن منافق وإقطاعي جشع.. وكان يجـب

ألا يستمر هذا المسلسل ليصل إلى أعتـاب القـرن الحـادي والعشرين عندما بدأ تحطيم الشخصية المصرية.. وتحطـيم الإنسان المصري ماديا وروحيا وتفكيك طبقـات المجتمـع المصري وهدم الطبقـات المتوسـطة العاملـة.. فتجربـة الخصخصة وبيع القطاع العام، وطرد الفلاحين الفقراء مـن أراضيهم تجربة لم تسفر إلا عن تحطيم معنويـات الشـعب المصري، ولم تكن سوى نوع من التغيير الجذري السـلبي، الذي لا يحمل في جوانبه سوى الهدم وليس البناء.. وسـوى التراجع وليس التقدم.. فإذا كان هذا المسلسل قد بدأت بوادره من أيام السادات الأخيرة؛ فقد كان أولى بك يا سيادة الرئيس إما أن ترفض إكماله بهذا الشكل في عهدك، وإما أن تلجأ إلى تنفيذه بمخطط مدروس يتحاشى الوقوع في ذلـك المحظـور الذي وقع.. المحظور الذي تخشاه كل الدول – التـي تبنـي نفسها - من أن تتسع الهوة بين طبقتين.. طبقة عليا حاكمـة متحكمة.. وطبقة دنيا لا حول لها ولا قـوة.. وفيمـا بـين الازدهار الخرافي للطبقة العليا على حساب التدهور الخرافي – أيضا – للطبقة الدنيا تذوب الطبقة الوسطى.. وهـذا مـا يحدث في مصر الآن ...)

عمد أحمد منصور إلى إحدى سجائره فراح يشعلها بتعجل يوحي برغبته في استمرار القراءة إلى أن أوقفته بإشارة من يدي:

- من الواضح أن خطابنا للرئيس سيأتي في شكل كتاب..

ردد أحمد منصور وقد تسارعت أنفاسه:

- أو.. كتيب..

قال الصاوي:

- لا أعتقد أن الرئيس سيقرأ كل هذا الكلام إن لـم يكـن بسبب ندرة الوقت الذي يسمح له بذلك فسوف يكون من قبيل الامتعاض.. فنحن لا نقدم مشروعا قدر ما نقدم النقد الجارح للوضع القائم..

قال إمام:

- وهذا النقد يتنافي مع التقارير العظيمة التي يقرؤها مكتوبة من رجال الإدارة حول تحسن الأحوال وكثـرة الأمـوال.. والخير الذي يعم البلاد والعباد..

وقالت راوية:

- أنت تنصحه باتباع سياسة السوق المفتوح.. وهذا ما تقوم به الحكومة الآن.. أو على الأقل ما تعلنه الحكومة الآن..

عاجلها أحمد منصور قائلاً:

- آسف.. ليس هذا ما تقوم به الحكومة الآن.. ولا يهمني التعرف على هذا الذي تقوم به قدر تلمسي لنتائج وثمار ما تقوم به..

ثم عمد إلى أوراقه فاستخرج منها ملفا صغيرا به عدة صفحات تشير إلى أنه تلخيص لكتاب أعجبه فقد قرأت على غلاف الملف - بالخط العريض - كتاب:" وداعا للطبقة الوسطى.. د: رمزي زكى ".. وعند صفحة معينة توقف عن تقليب الصفحات ورنا إلينا وقد ضاقت عيناه وهو يتأملنا:

- النتائج والثمار التي أبحث عنها هي التي حصدها العالم الرأسمالي عند التطبيق السليم للرأسمالية، والتي لخصها الدكتور رمزي زكى كالتالي:

- تحسنت أحوال العمال تدريجيا..
- ارتفع مستوى الأجور ارتفاعا تدريجيا..
- اشترك العمال في رفاهية التقدم التكنولوجي..

- ظهرت دولة الرفاهية بعد الحرب العالمية الثانية..
- أعيد توزيع الدخل لصالح الطبقات الدنيا..
- زيادة معدلات الأجور عن أي وقت مضى..
- انخفضت البطالة إلى أدنى حد..
- تم تطبيق نظام التأمين ضد البطالة.
- زاد حجم الطبقة الوسطى نسبة إلى حجم السكان..

ثم رفع رأسه إلينا وهو يعيد تأملنا:

- هل شعبنا المصري المطحون يتمتع بهذه المزايا في ظل الرأسمالية الزاحفة..؟..

هتف إمام:

- ومن قال إننا نطبق الرأسمالية.. أو حتى الاشتراكية؟.. نحن نطبق سياسة السمك / اللبن / التمر هندي.. أهم ما يجيده الأثرياء في بلدنا هو التهرب من الضرائب.. لو طبقنا نظاما ضريبيا صارما مثل الذي تطبقه أمريكا، ربما كنا صادفنا النجاح.. عدم دفع الضرائب يحدث خللاً في دخل الدولة ينعكس على دخول الأفراد مما يجعلهم يلجأون إلى قبول الرشوة أو الاختلاس لإكمال تكاليف

معيشتهم.. ولذلك فأكبر جريمة في أمريكا - والغرب عموما - هو الكذب على الضرائب.. هل سمعت في أمريكا عن ضـابط مـرور يطالـب رشـوة مـن السائقين؟.. بعض أفراد المرور في مصـر يقفـون على قارعة الطريق لتقليب جيوب السائقين وأحيانًـا يكون ذلك باطلاع الضباط.. المصـيبة تبـدأ مـن عندنا.. وتنتهي أيضا عندنا..

ابتسمت راوية في مرارة وهي تسمع إماما ينسـج مـن مأساته الخاصة رأيا جمعيا ببساطة وذكاء.. فقالت له:

- يا معلم إمام.. أنت تتحدث في تفصيلة واحـدة مـن مئات التفاصيل المترتبة على سوء التطبيق ولو فتحنا هذا الباب فلن ننتهي..

ثم توجهت إلى أحمد منصور قائلة:

- كنت قرأت تلخيصا لهذا الكتاب للدكتور جلال أمـين وأذكر أنه تنبأ فيه بسقوط الرأسـمالية فـي أقـرب وقت.. المتنبئ هو د. رمزي وليس د. جلال..

تهلل وجه أحمد منصور إذ وجد من يعزف معـه علـى نفس النغمة:

- فعلاً.. وذكر أن أسباب هذا السقوط تتمثـل فـي أن مكاسب الثورة الرأسمالية الحديثة والتي أسماها ثورة التكنولوجيا يتم توزيعها بشكل استقطابي جدا علـى فئة قليلة جدا من الأفراد مما دعا إلى انتشار الجريمة والعنف والعنصرية.. أو بالأحرى.. الإرهاب..

تساءلت أمامهم:

- إذن فالإرهاب جذوره اقتصادية.. وليست دينية..؟

هتف إمام:

- طبعا.. هل تذكرون الشاب الصعيدي الذي قتل سائحة إنجليزية في التسعينات عندما أطلق الرصاص على أتـوبيس سياحي من حقول القصب.. كان يحمـل دبلـوم صـنايع.. وعاطلاً لا يعمل.. نال عدة جنيهات مقابل ما فعله.. لأنه لـم يكن يملك ثمن علبة سجائر.. وكان سعيدا بالمهمة..

هز أحمد منصور رأسه في أسى:

- إنها فضيحة بكل المقاييس.. وتُهم غيـر صـحيحة تُلصق بالشخصية المصرية.. الشخصية التي تتسـم بالكرم والشهامة والتسامح والاتزان والتاني وعـدم التهور.. وكل هذه المواصفات التي سمعتموها الآن،

هي الصفات التي اكتسبها المصـري مـن النظـام النهري الفيضي.. أما ما عدا ذلك من صفات سـيئة فقد طرأت على الشخصية المصـرية مـن جـراء الاحتلال المتواصل.. ولذا فأنا أقول إن العودة إلـى منابعنا الأصلية الأصيلة لننهل منها هو الحل... لابد أن نعود إلى موروثنا الثقافي الحقيقي..

قال له مفتاح الصاوي:

- هل تقصد القول بأننا يمكن أن نصل إلـى النهضـة المطلوبة بعوامل داخلية فقط.. لا تنس أن اليابان لـم تنهض إلا عندما تلمسـت وسـعت إلـى العوامـل الخارجية خاصة عند أمريكا..

عاجله أحمد منصور بهذا الرد:

- ولا تنس أنهم في الخارج لا يملكون نظـرة موحـدة لنا، بل إننا لا نملك نظرة موحدة تجاههم.. ولذا فإن سعينا للاستقواء بتجربتهم مرهون باقتناعهم بمـدى رغبتنا في الانفتاح على روح العصـر، وأن نظـام القيم لدينا لا يتنافر مع نظام القيم لـديهم.. فتفـردك بقيمك الخاصة واعتزازك بها وبنقائها وخصوصياتها

سيجلى أمامهم هويتك التي تساعدهم على التعاون معك في إنجاز نهضتك.. إنها علاقة تقترب من علاقات المصاهرة.. فأنت لن تدخل في مصاهرة مع زوج لابنتك قبل أن تتأكد أنه من أسرة أصيلة ذات قيم أخلاقية وعادات وتقاليد تقترب من قيمك وعاداتك..

وبفراسة ابن البلد تدخل إمام إمام في الحوار:

- يبدو لي أنكما تتحدثان وتجربة اليابان بينكما على الطاولة.. اليابان لها شخصيتها الخاصة التي حافظت عليها ولم تفرط فيها.. وكان يجب علينا ونحن نملك شخصيتنا الخاصة أن نتقدم أسرع من اليابان.. والعذر الأزلي من أننا عانينا من الاستعمار وأنه هو الذي أدى إلى تخلفنا هو عذر ساذج وغير مقبول.. والدليل على ذلك أن اليابان وهي مثلكُم الأعلى لم تكن تملك أي قرار سياسي بعد هزيمتها في الحرب الثانية بل إنها تورطت في إتاوة زادت عن الـ ١٣ مليار دولار بعد الهزيمة.. ومع ذلك فقد صار تقدمها هو الصداع الساكن دوما في رأس أمريكا.. بل إنني أستطيع المبالغة والادعاء بأن ما تسعى إليه أمريكا من السيطرة على

منابع البترول في العالم مرجعه إلى السيطرة علـى غـول التقدم المنفلت في شكل اليابانيين وبعدهم الصـينيون الـذين يجب التحكم في قدرتهم على الإنتاج كما ونوعا بعد أن غزوا العالم ببضاعاتهم التي تتراجع أمامها بضـاعات أمريكـا.. وواضح من إصرار اليابان والصين على مواصـلة الغـزو والتحسين أن إنتاج أمريكا سيزداد تراجعا..

وتساءلت الدكتورة راوية:

- وأين نحن في هذا السباق؟.. ما زلنا نفكر كيف نبـدأ.. وهؤلاء الناس قطعوا أشواطًا خرافية في الحلبة.. ألا يكفـي ذلك لجلب اليأس والهزيمة؟..

قلت لها مداعبا:

- أبشري يا دكتورة.. لا تيأسي فحكومة الدكتور نظيـف سوف تبدأ بالتكنولوجيا..

ردت وهي تتنهد:

- كيف أكسو حائط الطين اللِين بشرائح الرخام الثمـين.. الحائط لن يصمد طويلاً.. فالرخام ثقيل على بدنه الضعيف.. سوف ينهار هذا وذاك.. كلهـا محـاولات يائسـة للتجمـل

الزائف.. بل كلها إعلانات ساذجة توحي لنا كذبا أننا داخـل العصر مع أننا خارجه..

قال لها أحمد منصور:

أنا أضع معك خطين تحت كلمة " توحي لنـا ".. فـنحن نتحدث مع أنفسنا.. ونخدع أنفسنا.. ولو كنت قلـت (تـوحي للعالم.. أو توحي لهم) لكنت عارضتك.. فالعالم يعلـم مـن نحن.. وهناك من لا يعرف من نحن؟.. وأين نعيش..؟..

ثم تنهد طويلاً:

والتقط أنفاسا ثقيلة..

ووضع يده على جبهته كأنه يتحسس صداعا وليدا.. ثـم التفت إلينا بعين كليلة تغالب الإجهاد.. ثم قال:

- على كل حال.. كتابي إلى السيد الـرئيس.. والـذي ستصل نسخ منه إلى كثير من المؤسسات سيجمع كل أفكارنا وآرائنا، ولكن قبل أن يصل إليهم ستصـلكم النسخ الخاصة بكم للتعديل والإضافة والحذف.. وأهم ما في الأمر أن نلحق بتقديم طلب إنشاء الحزب قبل أن نعاود المثول أمام السيد / وكيل النائب العام..

(٧)

" إنه رجلنا القادم.. بهدوء.. "

واشنطون

وكالة المخابرات المركزية الأمريكية

C.I.A

سعادة السفير.

بعد التحية:

منذ أن أوكل إلينا السيد نائب وزيـر الخارجيـة متابعـة الولادة العجيبة لحزب (مصر.. الأم) ونحـن نعمـل بكـل جهدنا (لتوليد) هذا الحزب تبعا للنصائح والخطط التي أسبغها علينا سيادته..

لقد جاءت روح الحماس الذي أخذ بناصية قلوب هـؤلاء الأشخاص المؤسسين للحزب، مع نفس الروح التي أخـذت بناصية قلوب الإدارة الأمريكية، ببث حكومات إصلاحية في سائر الدول العربية، تدين شكلاً لشعوبها وجوهرا لنا.. ولعل

الولادة الفجة لحكومة العراق الجديـدة، لـم تنطـل علـى العراقيين، خاصة فصائل المقاومة التي تعمل تحت الأرض.. كما لم تنطل على جموع كبيرة من العامة والمثقفين..

إننا سنقوم باستخدام أسلوب (الإيحاء) في معالجـة هـذا الموضوع.. ولن نبث الإيحاء بشيء ما نحو شخص مـا، إلا إذا كان ما نوحي به ليس سوى فكرة كانت تراوده ويتمنـى تنفيذها.. ومن ثم فتسهيل تنفيذها وتذليل ذلك له سيجعله أكثر إيمانًا بهذه الفكرة ذلك أن (ا) سيكون في نظره قد تدخل في الوقت المناسب و (ساعده) على تحويل حلمه إلـى واقـع.. هكذا يفكر المسلمون ويقومون بتوظيف فكرة (الإلهام الإلهي) إذا انتصروا على عجزهم بالصدفة.. وليكن من الأسرار التي مازلنا نحتفظ بها أننا استخدمنا هذا النوع من الإيحاء للضابط الشاب خالد الإسلامبولي عندما عرفنا مقدار الحقد الذي يكنه للسادات، وعندما أكد لنا رجلنا هناك أن ما سمعه بنفسه مـن هذا الضابط من قول همس به لمحمد عبد السلام فـرج فـي أحد مساجد إمبابة، من أنـه كـان يتمنـى أن يكـون مـن المشاركين في طابور العرض ليقتل السادات جعلنا نهيئ لـه سبيل المشاركة في الطابور.. والباقي معروف..

إننا نركز الآن على تصعيد شخص وشخصية المعلم إمام إمام في الحزب.. لقد تألقت وطنية وكيل النيابـة (مـرقص بسنتي بستخاروس) وصرف الأعضاء من سـراي النيابـة بمجرد أن قدموا له ورقة صغيرة تفيد بأنهم حـزب تحـت التأسيس.. وعفا عنهم لأنه يملك الاستعداد الـوطني لـذلك.. ولكن بعد أن يتأكد له قيمة ذلك الاستعداد من خلال توصـية من رئيسه الأعلى.. فقد تؤتى فكرة الإيحاء هنا بثمارها..

لقد لمح السيد (كولين باول) عمق شخصية المعلـم إمـام إمام.. ورأي أنه الشخص المطلـوب علـى رأس منظومـة الإصلاح السياسي المأمول في مصر.. ولكنـه أيضـا – أي مستر باول – لمح انزعاجنا من هذا الترشيح الغريب لرجـل لا يملك أي مقومات للسياسي الذي يقـود حزبـا، وبالتـالي الزعيم الذي يقود أمة.. وكان مـن رأي (بـاول) أن هـذا الموضوع بالنسبة للعرب لا يحتاج إلى كل هـذه الكيميـاء.. بالعكس إنه يرى في شخصية إمام مقومـات نحـن بحاجـة إليها.. يكفي الشهادة التي قالها في حقـه المحـامي أحمـد منصور من أن العباقرة في العالم لو ازدادوا واحدا فسـوف يكون هو الأسطى إمام.. إن إمام رغم تدينه قد لمح أن تقـدم

أوروبا والغرب كان سره الأعظم هو فصـلهم الـدين عـن السياسة.. وطالما أن هذا الرجل لديه الاقتناع الـذاتي بـذلك التوجه فسوف يكون مـن السـهل أن لا يسـجل الدسـتور المصري لأول مرة عبارة (أن الدين الإسلامي هو المصـدر الرئيسي للتشريع).. ولو فعلت مصر ذلك.. فسـوف تكـون مقدمة لاقتناع دول أخرى بهذا المبدأ.. إن إماما هذا منبهـر بتجربته مع الخواجات في جنوب أفريقيا.. ويؤمن بسلوكياتهم الحياتية وعقليتهم الخلاّقة ويعلم أن الكثيرين منهم يحتفظـون بالدين في قلوبهم ويتحركون به في أعمالهم.. ولا يتـاجرون به.. هذا لمجرد معايشته لبعض من هؤلاء لعدة سنوات فـي بلد مستعمر.. ما بالك عندما يشاهد الحياة في أمريكـا بكـل زخمها وحلاوتها؟.. (ولابد أن نهيئ لـه الفرصة لـذلك).. ليجد أن العدالة في تطبيق القوانين على كل النـاس شـيء يفتقده الشرق رغم تعـاليم ديانـاتهم.. ويـرى أن التكافـل الاجتماعي الذي يتمنونه لمرضاهم وعـواجيزهم وأراملهـم وأيتامهم تقوم به مؤسساتنا لكل هذه الحالات في منظومة لـم ولن يصلوا إليها..

هكذا ناقشنا في اجتماعاتنا كل كلمة قالها إمام بل وتتبـع رجالنا دقائق حياته اليومية منذ أن وضعناه تحـت المنظـار واكتشفنا أنه يملك من الدهاء ما يعجز المرء عن تفسيره ذلك أننا نكاد نضع أيدينا على قضية يعيشها ستتعجب فيما لوثبت صحتها.. ولن نكتب لكم عنهـا إلا إذا تأكـدنا فعـلاً مـن صحتها..

لقد قال لنا مستر باول عـودوا إلـى مـذكرات روميـل ومونتجمري لتتعرفا منهما على عبقرية الشخصية المصرية.. شخصية ابن البلد الذي يملك ثقافة واسعة لـم يتعلمهـا فـي المدارس والجامعات.. شخصية الرجل العادي الذي يمكنـك أن تستهين به قبل أن يتكلم.. ولكنك تعتدل في جلستك أمامه عندما يتكلم..

لقد عدنا فعلاً إلى هذه المذكرات لنجـد أن مـونتجمري يحكى عن رأعي غنم اسمه (عبده شوشان) أصر على مقابلته كاسرا كل الأطواق العسكرية المضروبة حول القائد وقابلـه بهدوء وفي غير انزعاج من الهالة المخيفـة التـي تحيطـه مستوضحا منه سر نيته في تسميم الآبـار الموجـودة فـي العلمين.. وأفهمه مونتجمري: " أن الحرب لا ترحم.. ولابـد

أن نحرم جنود روميل من مياه الشرب.. ألديك حل آخر؟"..
وكان لدى (عبده شوشان) الحل الذي لم يـدر بخلـد القائـد العظيم.. قال له: ضع نصف شوال ملح في كل بئر بديلاً عن السموم حتى نهنأ بمياهنا عندما نعـود إليهـا بعـد الحـرب وانصرف شوشان في ثقة وقد ترك القائد ورجاله وقد أخذهم الانبهار بعقلية هذا الرجل البسيط...

تلك هي الشخصية المصرية التي تفهم مسبقًا ما أنت قادم إليه من خطر وتحذرك منه وتؤكد لك أنك لـن تـنجح فـي مسعاك.. وإذا رفضت نصيحتها يقول لك (أحلق شـنبي لـو نجحت) وحلق الشنب عند البدو نوع من العار..

يقول روميل إن مسألة (أحلق شنبي) هذه لم يلتفت إليهـا إلا بعد فوات الأوان.. ويحكى أنه كـان قـد قابـل الشـيخ (علواني الجمز) عمدة منطقة سيدي عبد الرحمن لأول مـرة وكان للعمدة لحية وقورة.. وفي لقاء ثان على وليمة أعـدها العمدة للقائد الألماني وجده بشنب دون لحية.. فسأله ضاحكًا لماذا حلقت لحيتك..؟.. فقال لـه العمـدة: حلقتهـا احتفـالاً باحتلالك منطقة سيدي عبد الـرحمن.. فسـأله مـرة ثانيـة

ضاحكًا: إذن ماذا ستفعل إذا احتللت القاهرة والإسكندرية..؟ فقال له الشيخ علواني الجمز بسرعة: أبقى أحلق شنبي..

لقد كان العمدة العبقري يلمح أن العد التنازلي كان قد بدأ على الجانب الآخر، وأنه لم يبق سوى أسبوع واحـد علـى معركة العلمين ويلمح كثافة استعدادات الإنجليز للانتصار في هذه المعركة الفاصلة.. وأن النصر لمونتوجمري لا محالة.. ولذا فإن خسارته لشاربه أمر لن يتورط فيه.. وثبتت صـحة فراسته عندما اندحرت قوات المارشال روميل أمـام قـوات المارشال مونتوجمري..

ولقد تطوع أحد رجال الإدارة وسرد علينا ما قـرأه ذات مرة مكتوبا في مذكرات جعفر النميـري رئـيس السـودان الأسبق الذي كان يحكي عن زيارته المنزعجة لأنور السادات عندما تخلى عنه نصف رجال حكومتـه وقـدموا اسـتقالة جماعية لإحداث انهيار دستوري في مؤسسة الحكم في حادثة مايو ١٩٧١.. وعندما وجد السادات هادئًا ورزينًا ولا يتولاه الانزعاج سأله عن سر هدوئه.. فما كان من السادات إلا أن أخذ النميرى من يده ونظر معه من الشباك علـى الشـارع المزدحم بالمارة وقال له: يمكنك أن تنادي على عشرة أفراد

من هؤلاء.. وسأجعل من كل واحد فيهم وزيرا لوزارة ما.. وسينجح في مهمته.. يقول السادات: المسألة مسـألة ولاء.. وليست مسألة أفراد..

ونحن بدورنا نقول إن إماما يجمع بين الفرد المـتحمس.. والفرد الذي يحمل ولاء وعبقرية.. إنه رجلنا القادم بهدوء.. فلنمنحه القوة..

وكيل إدارة المخابرات الأمريكية

C. I. A

التوقيع..........

* * * *

(٨)

" نصف دستة من المواطنين.. الأحرار "

أحسسنا برياح التغيير تهب على وجوهنا – فعلاً لا قـولاً – عندما تمت الموافقة بهذه السرعة على إنشاء حزب (مصر – الأم -) وحملت الصحف الرسمية بيان الحـزب وأسـماء مؤسسيه وراحت تنهال علينا طلبات الانضمام من كل حدبٍ وصوب..

وعدنا إلى المنضدة المثلثة لنملأ ضلعيها الأيمن والأيسـر بامرأتَين.. ومسيحّيين.. وعامل.. وفلاح.. ثلاثة علـى كـل ضلع..

عمدنا إلى كشوف الانضمام لنتعرف من الطلبـات علـى أسماء أول المشاركين؛ في الشهر الأول.. كنا نفعـل ذلـك ونحن نعلم أنهم أخطر المشاركين؛ إذ باختياراتهم سيتحدد اسم رئيس الحزب وسكرتيره وأمين الصندوق.. تلك ستكون أول مهمة في أول اجتماع للّجنة التأسيسية.. اللجنة التي اخترنـا أن تكون متغيرة الأفراد لأكثر من نصفها كل شـهر حتـى نطيح بفكرة الاستمرار الآثم.. الاستمرار الذي يطحن الأفكار

المتجددة تحت عجلاته.. الاستمرار الذي تنمو في ظله بذور الديكتاتورية وتشيخ الأفكار ويترعرع الركود..

المرأة الأولى هي:

صباح سعد عبد ا ..

- أخصائية اجتماعية تعيش في قرية (نكلة العنب)..
- متزوجة ولديها ثلاثة أولاد ذكور.
- زوجها يعمل بالمقاولات المعمارية.
- من خلال عملها وضعت يدها على حقيقـة البـؤس الاجتماعي الذي تعيشه السيدات الريفيات الفقيـرات، وتؤكد أن ما يتحدث عنه المثقفـون فـي نـواديهم وصالوناتهم المغلقة من رفض أو استنكار أو احتجاج على أداء الحكومة، هو نفس ما تتحدث به الريفيات.. الأسلوب فقط هو المختلف.. بل إن صباح هذه ترى أن عفوية التعبير عند هؤلاء الريفيات يحمـل مـن السخونة وحسن التوصيل ما يفتقـده حـديث أهـل الثقافة.. فعندما تشتكي لها إحدى النسوة من غـلاء المعيشة.. فسوف تضرب مثلاً بنفسها قائلة:

- البطاطس المقلية كنا بنعملها جنب الأكل.. حاجة كده زيادة خير.. دلوقت عشان أعمل بطـاطس عـايزه عشرة جنيه.. بطاطس وزيت.. الزيت القزازة بسبعة جنيه.. والبطاطس الكيلو بـاتنين جنيـه.. والكيلـو الرخيص اللي بناخده على بطاقة التموين ما لـوش لزوم.. طيب لو البطاطس غالية علينا.. إيش حـال اللحمة اللي بنسمع عنها؟..

وتقول صباح:

- إن ما يستفزها ليل نهار هو إعلانات التليفزيون عـن الأطعمة الراقية.. وتتساءل لمن تبث هذه الإعلانات؟.. ثـم توضح سر انضمامها للحزب قائلة: كنت أتمنى أن أعثر على المكان الذي أصرخ فيه أو أهلل أو أزعق بالصوت الحياني: يا خلق هوه.. حرام عليكم.. الناس بتموت.. علشـان نـاس تانية سارقين رزقهم وأكلهم وشربهم.. يا تـرى حـا قـدر أصوت وأصرخ عندكم من غير ما ادخل السجن؟..

أما نورا إبراهيم جعفر / المرأة الثانية فإنها مـن شـبين القناطر:

- كانت في زيارة لعدة أيام لمعاونة أختهـا المريضـة بالقناطر.. حيث كانت تقوم على خدمتها..
- سمعت عن الحزب الجديد.. فسـارعت بالانضـمام إليه..
- هي تحمل الشـهادة الإعداديـة.. وتجيـد القـراءة المتفحصة للصحف.. وأصبحت تكتشف الصدق في مكانه والكذب أيضا..
- متزوجة ولم ترزق بأولاد..
- تريد أن تجد نفسها وشخصيتها في أي عمـل عـام، خاصة وأنها تلمح نية زوجها للزواج بغيرها، بعد أن يئس من علاجها حتى تنجب له ولدا..

أما عن المسيحيين فإن الأول هو:

عزت رمزي كامل..

- من قرية (الحادثة)
- يعمل مساحا بمديرية الأملاك..
- مغرم بالحديث في السياسة.. ويتابع صحيفة واحـدة هي صحيفة الأهرام.. يطّلع على الصحف الأخـرى بالاستعارة الوقتية ممن يحمل الصـحيفة.. أو يقـرأ

العناوين البارزة مكتفيا بذلك في وقفته عند بائع الصحف..

رغم أن وظيفته تسمح له بالتربح وقبول الهدايا، إلا أن زوجته المبحرة في بحر المسيحية تحاسبه على كل ما يدخل به المنزل لتتأكد من مدى كونه جاء من حلال..

كان يمسح أرضا واسعة لأحد الأثرياء فحمله بما لذ وطاب من عزبته.. لحوم.. ودواجن.. وعسل.. وجبن.. وخبز.. وفطير.. فكان رأيها أن هذه الهدايا الكثيرة لا يمكن أن يمنحها صاحبها مجانًا وقررت ألا تقربها.. وجعلته يفكر في إعادتها.. ولم يوافقها بالطبع.. وظلت هذه الهدايا رهن استخدامه هو فقط دون زوجته المتشددة والأولاد..

يرى أن الوفد الذي كان ممثلاً في عظمائه: النحاس.. سعد زغلول.. مكرم عبيد.. إبراهيم فرج.. صبري أبو علم.. هو الحزب الجدير بالفخر عن ماضيه الزاهر الزاخر والجدير بالحسرة على حاضره المستكين المفتقد لقوة الإرادة وروعة التجديد..

والمسيحي الثاني هو:

فيكتور ثروت عبد المسيح:

- من قرية أبو غالب..

- مدرس ثانوي تاريخ..

- يكتب القصة.. والنقد الأدبي..

- يؤكد أن مصر بكل ما فيها من مثقفين ومفكرين يجـب أن تكون الطليعة لتقدم كل من حولها من العـرب، وأن مـا ينعم به العرب من ثراء رفلوا فيه بسبب البترول، يجـب ألا يكون هو الفارق الحضاري بيننا وبينهم.. فما ينعمون به من بريق النعيم لا يعبر عن إمساكهم بزمام الحضارة؛ فإنهم في نظره لا يزيدون عن كونهم مستهلكين لمظاهر التقـدم، ولا يصنعون هذا التقدم.. وبما أننا مثلهم مستهلكون أيضا فيجب أن نفرق بيننا وبينهم بالقول: إنهم مستهلكون فوق العـادة.. فهم يقتنون أحدث الموديلات والاختراعات والموضات فـي المأكل والملبس والمسـكن ووسـائل الانتقـال.. وبـأغلى الأثمان..

واتضح أن فيكتور لا يحب العرب لأن جسـده النحيـل مازال يحمل خطوطًا سوداء متقاطعة هي الأثر الباقي علـى جسده من علقة ساخنة أكلها في أحد أقسام الشـرطة بدولـة خليجية، لمجرد أنه اشتبك مع مواطن من أبنـاء البلـد فـي

إحدى إشارات المرور، ويتذكر أن هذا المواطن هـبط مـن سيارته.. وخلع عقال الدشداشة وجذب فيكتور، وراح يكيل له الضربات بإتقان وتمعن.. وظلت إشارة المـرور معطلـة، وأصحاب السيارات جالسون في انتظار التحرك ويستهلكون تلك الدقائق في استكمال مشاهدة هذه العلقة الصباحية، التـي ينالها أحد أبناء مصر على يد شخصـية وطنيـة خليجيـة.. بعدها عرفوا قيمة هذه الشخصية عنـدما اقتحمـت المكـان بسرعة فائقة سيارة شرطة جاءت يسبقها صـوتها (الونّـان) فحملت هذا المصري الذي أساء لتلك الشخصـية ليسـتكملوا معه معزوفة التأديب الواجبة في مبنى الشرطة.

فيكتور يقول:

- لا نحن متحضرون ولا هم متحضرون، وكلنا في حالة تخلف يأكل بعضنا بعضا.. كان الأمل معقودا علـى ثـورة يوليو أن تنقلنا وإياهم إلى أول قطار يتجه نحو التقدم والحرية والعدالة.. وعلى كل حال.. الأمل مازال معقـودا.. فثـورة يوليو لم تكتب شهادة وفاتهـا بعـد.. رغـم أن الكثيـرين يترحمون عليها.. ولكنه في نظره الترحم الذي تطلبه لمريض طال مرضه.. الرحمة التي تطلبها: أن يشفى أو يموت..

فإذا ما جئنا للعامل فإنه:

حمدي محمد عبد الباسط..

- كهربائي سرسيون..
- راسب إعدادية..
- ذاق الهوان بحثًا عن عمل في دولة عربية..
- وقع في أيدي سماسرة التسفير.. ألقوا به في سوريا عن طريق البحر ليصرف نفسه من هناك بالتسلل إلى بيروت.. هرب من الشرطة في الجبال وأطلقوا عليه نيران بنادقهم هو ومن معه..

يقول:

- تعرفت على كلمة الكرامة عندما افتقدتها ولم أجدها معي، وأنا أعاني من الجوع والعطش والخوف بعيدا عن بلادي (الخطاطبة).. تمنيت أن يكون بساط الريح حقيقة واقعة - لا خيالاً في قصص ألف ليلة وليلة – ليحملني إلى منزلي.. أقسمت أن أقنع بما كتبه ا لي من رزق محدود.. وسأتناول كسرتي من الخبز الجاف – وإدامها حتى لو كانت ثمرة طماطم واحدة - بنفس راضية وشهية مفتوحة كأنني ألتهم أفخم أنواع اللحوم..

يقول حمدي عبد الباسط إنـه لـم يكـن يعـرف كتابـة المذكرات، ولكنه وجد نفسه يعمد إلى كراسة خالية، وجـدها في حقيبته، وراح يكتب ما يحدث له يوما بيوم.. وكلما تعمق في الكتابة وفي وصف حالته يقع تحـت طائلـة الـدموع.. دموعه تريحه، وتغمر من حولـه مـن الشـباب الضـائع بالضحكات المتألمة..

كنت سارحا في ملكوت ا ، وأنا جالس في المسجد أتذكر ضياعي في جبال لبنان، عندما استمعت إلى الشيخ صـلاح السقا إمام المسجد يحسب للناس التريليونـات التـي كسـبها العرب من البترول.. ويحسب الزكاة التـي كـان يجـب أن يمنحوها لفقراء العرب ومنهم مصر.. كانت المـرة الأولـى التي أصلى في هذا المسجد وأرى هذا الإمام الشـاب.. فقـد جئت إلى القناطر لتوصيل الكهرباء لشقة جديدة كلفنـي بهـا المقاول الذي أعمل معه.. لقد تمكن الشيخ صلاح من إهاجة الذكريات المؤلمة في نفسي.. وأخذني الامتعاض.. كيف لنـا أن نتسول..؟.. وعندما وقف الرجل الممشوق اللبق خفيـف الدم مفتاح الصاوي يرد على مشروع الشيخ صلاح بمنطـق الكرماء أهاج في نفسي عوامل العزة.. وعنـدما دعـا هـذا

الرجل إلى حزب (مصر.. الأم) تركت عملـي وسـارعت لتسجيل اسمي..

لا أدري ماذا سأفعل؟.. ولا أدري لماذا انضممت إليكم؟.. ولكني مستعد أن أؤدي أي دور تكلفونني به.. أقل ما يمكنني فعله هو الجلوس إلى الشباب وإقناعهم بشيء هـام: (اللـي يخرج من داره يتقلّ مقداره)

وهنا صاح الفلاح:

- أنا صاحب التعريف الوحيد الذي لا يقبـل التعـديل أو الإضافة أو الحذف.. الفلاح.. فلاح.. يعرف الحقل ويعرفـه الحقل.. يعمل في أرضه وإذا جار عليه الزمن يعمـل فـي أراضي الآخرين.. أحيانًا يتمحك في مهنتي بعض البهـوات بحثًا عن طريقهم إلى مقاعد مجلـس الشـعب.. اسـتغلالاً لإصرار جمال عبد الناصر على أن يكون نصـف مقاعـد مجلس الشعب للفلاحين والعمال.. وعندما تتكدس الكـروش على النصف الآخر يتسللون إلى نصفها المهان.. نصفنا الذي أصبح احتياطيا..

اسم: عبد الكريم السيد الدسوقي..

- تمتعت بخمسة أفدنة تملكتها، ضمن من تملكوا مثلها بقوة قانون الإصلاح الزراعي..
- وصلت إلى بر الأمان، وربيت أولادي حتى نـالوا الوظائف المحترمة بعد تخرجهم في الجامعة، وكـان وقودي في هذه الرحلة العطرة إنتاج هـذه الفـدادين الخمسة..
- تمتعت بالمشاركة السياسي والعمل الشعبي، كعضـو في الجمعية الزراعية وعضو في المجلس الشـعبي المحلى باحثـًا مع غيري عـن مصـالح الجمـوع الكادحة من الفلاحين.. المالك منهم والأجير..
- لم أتمكن من مواجهة النار التي جاءت علـى غيـر موعد لتعصف بمكاسبنا وتذروها الرياح.. النار التي خففوا من اسمها بمسمى جديد وهو " قانون العلاقـة بين المالك والمستأجر " عند تعاملهم معنا كفلاحين.. و" مسمى الخصخصة " عند تعاملهم مع عمال قطاع الأعمال..
- ضاعت منا الفدادين كما ضاعت وظائف العمال..

- كان يجب أن نلجـأ إلـى حـزب الأغلبيـة لينقـذ مصالحنا.. ولما لم يفعل أيقنت أنـه واجهـة براقـة تُخفي وراءها مصالح أخرى لأناس آخـرين لسـنا منهم.. أناس تركنـاهم يتحـدثون باسـمنا دون أن يعتريهم الخجل من أننا نسمعهم ولا نصدقهم..
- لو كان ما تقولونه صحيحا عن قيمة وجودي في أحد أضلاع المنضدة المثلثة؛ فسوف أعتبر أن هذا هـو تاريخ ميلادي الحقيقي.. الميلاد الذي يبدأ بـالتعرف على قيمة صوتي.. وقيمة كلمتي..

وهكذا اجتمع لدينا نخبة من أبناء الشعب.. نخبة انضـمت برغبتها.. والتقت حبا واختيارا مع رغبتنا في ممارسة فعلية لفكرة الديموقراطية..

صباح سعد عبد ا

نورا إبراهيم جعفر

عزت رمزي كامل

فيكتور ثروت عبد المسيح

حمدي محمد عبد الباسط

عبد الكريم السيد الدسوقي

وفي دار الأيتام اجتمعت الجمعية العمومية وكانت المنصة مرصعة بأحد عشر عضوا: ثلاث نساء.. وثمانية رجـال.. النساء: طبيبة.. وأخصـائية اجتماعيـة.. وربـة منـزل.. والرجال: محام.. وفنان.. وشاعر.. وفني معدات.. ومساح.. ومدرس.. وعامل.. وفلاح.. كما أن هناك تصنيفًا آخر للأحد عشر: ثمانية من المسلمين وثلاثة من الأقباط..

راودني إحساس طيب بقيمة ما نفعلـه.. وجـدوى هـذه التشكيلة المتفق عليها.. وأن هذا الحزب الوليد جاء متوافقًـا مع حلم رومانسي كان لا يفارق صاحبه ليل نهار، وكانـت البداية تشير إلى اطمئنان يسري في نفوسنا وقد غمرنا ظـل أتى من جناح عملاق كان يحلق فوق رءوسنا.. لعله الأمل.. لعلها البهجة.. ولعلها شفافية القصد وبراءة التوجه..

كان الاجتماع الأول حافلاً لفت نظري فيه أعداد هائلة من الكاميرات الفوتوغرافية والتليفزيونية.. ورجـال غربـاء لا تملك إلا أن تصنفهم تحت بند رجال الإعلام والصحافة..

رحنا ننسق اللجان المختلفة.. والمهام المحددة لأشـخاص محددين لفروعنا بالمحافظات.. ونجحنا في توظيف الاجتماع توظيفًا عمليا.. إلا أن ما فشلنا فيه هو التقليل من عواصـف

التصفيق التي تجتاح المجتمعين رغما عنهم، ورغم ما أعلنّاه في الاجتماع العفوي الأول من أن حالات التصفيق في مصر صارت مستهجنة، ومرتبطة ارتباطًا شعوريا، بمواقف النفاق والتهليل الكاذب.. حتى أن الدعابة التي قلناها من تغريم من يصفق جنيها واحدا ذابت وتبددت وصارت ذكرى..

ولقد اكتملت منظومة البهجة، عندما وقفت الدكتورة رواية معلنة أنه تيمنًا بنجاح الاجتماعين اللذين عقدا وبشكل مؤقـت في هذه الدار التي تحتضن فلذات الأكباد من الأيتـام؛ فإنهـا سوف تشرع فورا في بناء طابق جديد بمدخل خاص علـى الشارع الرئيسي به مكاتب الحـزب، وصـالة اجتماعـات عملاقة تكفي لعدة مئات من المجتمعين.. وأنهـا تطوعـت بنصف تكلفة البناء والمفروشات.. (هل يمكن وقف عاصـفة التصفيق وفرض غرامة على من يعلن فرحته بهـذه اللفتـة الكريمة؟)

وفي آخر الاجتماع أعلن الأستاذ أحمد منصـور بصـفته الرئيس المؤقت للاجتماع كأكبر الأعضاء سنا – أن اللجنـة التأسيسية ذات المقاعد الثابتة والأخـرى المتحركـة سـوف تجتمع في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخه لتحديـد اسـم

رئيس الحزب ومعاونيه.. ثم اقترح أن يبعث الحزب برقيـة شكر إلى السيد رئيس الجمهورية والسادة لجنة الأحزاب لما قدموه من مؤازرة تُحسب للنظام، في سـبيل إخـراج هـذا الحزب الوليد إلى حيز الوجود ليسـهم فـي إثـراء المنـاخ السياسي في مصر..

ورغم موافقة الجميع على هذا الاقتراح.. إلا أن التصفيق جاء فاترا قياسا بما قبله من تصفيق..

* * * *

(٩)
مدخلنا إلى هذا الرجل

عاجل.. هام.. سري القاهرة

جاردن سيتي

السفارة الأمريكية

سعادة النائب.. المحترم

بعد التحية:

كان شاغلنا الشاغل التعرف قبلكم على ذلك الشيء الغامض في حياة إمام إمام.. الشيء الذي يجعله يهبط الدرجات المؤدية من شقته إلى الشارع بثقة شديدة ثم يعود فيصعدها بحذر الثعالب متجاوزا طابقه إلى الطابق الأعلى ليجد الباب مفتوحا وهناك رجل وامرأة في استقباله.. إن ما يقضيه من ساعات طوال هناك تمتد حتى مطلع الفجر، ثم يهبط إلى زوجته وأولاده بنفس الحذر الذي صعد به، جعلنا نستبعد أن يكون ذلك وكرا لملذاته.. وعندما تعرفنا على اسم الرجل الذي يستضيفه، واسم السيدة التي يخلو بها عرفنا

أنهما أخ وأخته.. عكس ما يعرفه باقي سكان العقار من أنهما زوجان.. وتلك هي الحيلة التي تزوج بها إمام إمام زوجتـه الثانية، وقد وصل به الدهاء أن يستقبل جيرانه سكان الـدور العلوي كضيفين: مساعده وزوجته.. ومن العجيب أن تصادق الجارة العلوية جارتها السفلية، وكلتاهمـا زوجتـان لرجـل واحد.. إحداهن لا تفهم ما يجري حولها والأخرى ضليعة في المؤامرة..

الواقع أن شقيق الزوجة المتواطئ واسمه فوزي، هو أحد العاملين في ورشة إمام.. وأنه يدين (لمعلمه) بـالكثير.. وأن مشكلته في عدم العثور على مسكن حلّـت بسـهولة عنـدما عرض على إمام أن يزوجه شقيقته ساعتها رأي إمـام أنـه سيضرب عصفورين بحجر واحد.. أن يقتني زوجة جديـدة يهجع إليها من شراسة زوجته الأولى التي طلقها ثم أعادهـا مرتين، ثم يضمن مسكنًا لمساعده الذي سيكون فـي حالـة حراسة دائمة لزوجته الجديدة الشابة ذات الجمال الواضـح.. وتلك هي القضية العجيبة التي ألمحتم لنا عنهـا، وأوضـحتم أنها ستثير فينا العجب والتعجب فيما لو ثبت صحتها..

الواقع أننا لم نلتفت إلى هذه الواقعة مـن قِبـل التسـلية والبحث عن نقاط ضعف في رجل نصـبو أن يكـون فـي حوزتنا.. ولكننا وجدنا أن هذه الواقعة ستكون هي مدخلنا إلى هذا الرجل.. خاصة بعد أن تأكدنا أنه لا يفكّر – وهذا طبيعي – في ترشيح نفسه في اللجنة التأسيسية على منصب رئـيس الحزب في مواجهة أحمد منصور.. إذ من الواضـح أنهـم جميعا سيختارون أحمد منصور بالتزكية: راوية.. ومفتاح.. وجرجس.. وإمام.. وفي الغالب ستكون السكرتارية لمفتاح.. وأمانة الصندوق لراوية.. وهي تقسيمة تفرض نفسها علـيهم بحكم ما كان وما يجب أن يكون..

لقد بدأنا بشقيق الزوجة السرية المتواطئ.. وتم اقتلاعـه من الورشة بمحضر تحر ضده.. وصـار رهـن الحـبس الاحتياطي عدة أيام.. ومنعنا إمـام مـن الـدخول إليـه أو مشاهدته.. يومها ظهرت علامات لم نكن نعرفها في شخصية إمام.. حيث هاجم ضباط الشرطة بكلام مقذع يحاسب عليـه القانون وهدد بالاعتصام في مركز الشرطة إن لم يفرجوا عن رجله.. كان مقداما وشجاعا ولا يخشى سطوة من يصيح في وجوههم.. عكس أغلب المصريين الذين ترتعد فرائصهم كلما

دخلوا أقسام الشرطة ولو للإدلاء بشهادة.. كان كل همنـا أن ترتعد فرائص إمام، حتى ننقذه مـن خوفـه؛ فيرتمـي فـي أحضاننا ولكن ما تمنيناه لم يحدث.. فاستدعاه رجلنا السري، وطرح عليه المصيبة التي وقع فيها رجله، وهي التخابر مع إسرائيل.. وأن زواجه السري من شقيقته يجعلنا نشـك فـي وطنية إمام نفسه.. خاصة وأن انضمامه إلى الحزب الجديد.. يؤكد تورطه في معاداة النظام.. وأن مشاركته فـي تأسـيس هذا الحزب ليس إلا واجهة.. مثل واجهة زوجته الأولى التي تتستر خلفها زوجة ثانية..

كان الرجل لماحا وذكيا.. ظهر ذلك في ابتسامته الواثقة.. وهزة رأسه المتكررة.. ثم دقق النظـر فـي وجـه رجلنـا متسائلاً: من أنتم.. وماذا تريدون؟.. وبعـد فتـرة صـمت واجههم بكلمة يستخدمها المصريون كثيـرا فـي السـنوات الأخيرة: هاتوا من الآخر.. إيه طلباتكم..؟..

بعد ذلك صار اللعب على المكشوف.. أفهمناه أن أحمـد منصور كشخصية سياسية مثقفة يمثل خطرا على النظام بعد أن نجح في إعلان حزبه لقد تدخلنا " لتوليد " هذا الحـزب.. لأننا بحاجة إلى إثراء المناخ السياسي الراكد بحزب جديد له

ثقله.. ولكننا لسنا بحاجة إلى رجل هذا الحزب لذا فإن كـبح جماح هذا السياسي الداهية لا يأتي إلا بإزاحته مـن الوهلـة الأولى عن كرسي الحـزب.. وأن إحجـامكم جميعـا عـن الترشيح أمامه يعتبر نوعا من الأداء الروتيني الذي لا يخدم فكرة الديموقراطية.. فلتبدأ بترشيح نفسك مسـتخدما فكـرة الديموقراطية.. ولتشجع مفتاح أو راوية علـى أن يترشّـحا حتى تكتمل الشكليات "

لقد وافق الرجل وأخذه الظن أنه بعد هذه الصفقة سيخرج من قسم الشرطة ساحبا صهره المسكين معه.. وعندما صـد برفضنا وأننا نسير في إكمال إجراءات إدانة صهره فهم مدى إصرارنا على إجباره على السير في طريقنا المرسوم لـه.. فاستسلم تماما.. (ألا ترون معي أنه من المناسب فعلاً أن تقدم للجماهير رئيسا يتسم أمامهم بالقوة في مواجهتنـا.. ويتسـم بالضعف والاستسلام وهو في حوزتنا؟..)

الدور الآن على ضلعي المنضـدة المثلثـة.. الضـلعين الجـانبيين.. السـتة أعضـاء: المـرأتَين.. والمسـيحيين.. والعامل.. والفلاح.. أصواتهم الستة هي التي ستحسم الرئاسة لصالح رجلنا.. وحتى لو خَدعنَا منهم صوت أو صوتان فإن

مزيدا من المرشحين سيعمل على تفتيـت هـذه الأصـوات ليضمن رجلنا خمسة أصوات على الأقل.. إننا نبحـث لكـل عضو من الأعضاء الستة عن مدخل مناسب نوحي له به عن ضرورة انتخاب إمام رئيسا للحزب.. كلنا عـاكفون علـى دراسة: صباح ونورا وعزت وفيكتور وحمدي وعبد الكريم.. سنجعل " إمام " يتصل بهم في بيوتهم.. ويقدم لهـم خدماتـه التي سيفاجأون بقدرته على تقـديمها.. وسـيقرن اتصـاله المشفوع بالخدمة برجاء أن تظل زياراته وهداياه لهم سرية.. وطي الكتمان..

لن نقول لإمام من سيكون.. ولم نجهزه.. ولكننا سـنزرع فيه روحا جديدة ومن نوع جديد.. روحا تجعله يقبل أن يجند نفسه تلقائيا وبكتمان شديد لمواجهة خطورة الأفكـار التـي يتبناها أحمد منصور.. تلك الأفكار التي سيفهم أن مظهرهـا مغلف ببراءة القصد، ولكنه دس في جوهرهـا كـل سـموم الاحتيال.. سنحلل له كل كلمة قالها أحمد منصـور تحلـيلاً، يفهم منه أن أحمد منصور أصولي، يشجع الإرهـاب حتـى النخاع، وأنه إنما يتسلل إلى مشروعه تحت غطـاء القوميـة المصرية.. سنحلل كلماته بدءا من قوله إن مشكلة المـواطن

العادي تنحصر في هم بطنه.. ومشكلة المثقف تنحصر في هم بطنه وهم عقله.. وأن قضيته العظمى كمحام هي قضية مصر.. القضية التي لم يكسبها..ولم يكسب منها.. إنه يأتي بفكر خطير يكفي أنه وافق أن يكون الحصان الجامح المشاكس هو الرمز الواضح لحزبه، ثم قوله إنه سيتسلل إلى مشروعه، مستخدما أمريكا نفسها في إحياء هذا المشروع.. وسنذكّره بما قاله عنّا من أن الراكب في صحبتنا مركوب.. وأنه سيمتطى مشروعنا الوليد وهو بث الديموقراطية في بلدان العالم الثالث.. ورغم أنه استفاد من مشروع عبد الناصر ومشروع السادات؛ فإنه لن يقلدهما فيما فعلاه مع أمريكا.. نكوص هنا أو ارتماء هناك.. إذن فماذا سيفعل أحمد منصور..؟.. هذا هو اللغز الذي جعلنا نخشاه.. ونعمل على إزاحته..

سفير الولايات المتحدة الأمريكية

لدى ج. م. ع

التوقيع:......................

* * * *

الجزء الثالث

أحلام الشياطين..

(١)

هذا الرجل... ماذا يريد؟..

يمكنك في مجال الفخر بنفسك مستعرضا قوة إرادتـك أن تعترف – بلا خجل – أنك وقعـت ذات يـوم فـي ورطـة الإدمان.. ثم تقول إنك سرعان ما انتشلت نفسك مـن هـذا المستنقع بقدرة ذاتية ملؤها العزم والتصميم..

وفي بدء تعرفي على المعلم إمام إمام الإمام فتح لي قلبه، ولم يخجل من الاعتراف أمامي، من أنه وفي غمرةِ آلامـه وأحزانه بسبب قضيته التي لا تُنسى مع مافيا التجريف، ثـم خلافاته مع زوجته، سقط في بئر معاقرة الخمر.. حتى أنهـا لم تأكل منه المال فقط، بل أكلت منه جسده ومزاجه، وأبعدته عن الصلاة....

تذكرت هذا الاعتراف الذي أنهاه إمام إمام يومها بكلمات تدعو إلى الفخر، وكيف إنه تمكن من أن يطلق الخمر بنفس السهولة التي طلق بها زوجته طلقتها الأولى فالثانية..

وكان تذكري لتلك الواقعة سببه ما لاحظته على إمام مـن شرود لا قِبل لنا به، ومن جنوح ملحوظ بعيدا عـن دائـرة

الحوار الدائر حوله في أول اجتماع للّجنة التأسيسية.. حيـث كنا نهيئ أنفسنا لتسجيل لفتة تاريخية نهديها إلى الأستاذ أحمد منصور عندما نُجمع جميعا على اختيـاره رئيسـا للحـزب بالتزكية.. بل ونمنحه الصلاحية في تحديد نائبه والسـكرتير وأمين الصـندوق.. وكـان مـن نصـيبي أن أكـون أول المتحدثين..

ما كدت أبدأ كلماتي الهادئة ذات المقدمة، المليئة بـالفخر والشجن، ذاكرا للرجل مزاياه.. ونصاعة تاريخـه وكفاحـه المشرف الذي لم ينل منه اليأس والفتور على مدى هذا العمر حتى أرسى قواعد هذا الحزب الواعد.

" ولذا فإننا كنخبة مؤسسة لهذا الكيان الصاعد نبارك لـك مقعد الرئاسة الذي يفخر بك قبل أن تفخر به.. و.. "

أقول ما كدت أبدأ كلماتي.. حتى قاطعني إمام رافعا يـده اليمنى.." نقطة نظام ".. وقبل أن أتوقف عن الحديث لأعطيه الكلمة بادرني قائلاً:

- من فضلك تحدث عن نفسك فقط.. هـل اسـتطلعت رأيي وأخذت موافقتي على هذا الكلام الذي تقوله؟..

أخذني الذهول والتردد وتاهت منى الإجابة التي لم تكـن موجودة في أي ركن من وجداني.. وسرعان ما قلت له:

- الأمر لا يحتاج إلى موافقة.. أو استطلاع رأي.. أفهم من هذا أن لك رأيا آخر؟..

رد بنفس السرعة:

- وإن لم يكن لي رأي فما فائدتي؟.. أتراني مجرد جثة تجلس أمامك على هذا الكرسي؟..

أرسلت نظراتي لكل من حولي وكـأني أسـتنجد بهـم.. وسرعان ما نَجدني أحمد منصور قائلاً:

- فلتؤجل كلمتك يا سيد جورج إلى أن نسـمع السـيد إمام.. تفضل يا سيد إمام..

تنحنح إمام واعتدل في جلسته، وراح ينقر بسبابته اليمنى على ظهر المنضدة.. وابتسم ابتسامة غائمة وهو يقول:

- اتفقنا أن تنادوني بالمعلم إمام.. المعلم إمام الذي جاء ليتعلم منكم الديموقراطية، ويمارسها على يد أسـاتذة كبار مثلكم، يعلن أسفه لأنكم وأنتم تضعون الأسـاس نسيتم معالجة التربة الصالحة للتأسيس.. لـيس مـن الديموقراطية أن نتخلى عن أصواتنا وننساق مثل من

سبقونا من منافقين في تعزيز فرد واحد على حساب المجموع..

وصمت قليلاً.. ثم رفع إلينـا وجهـه المحـتقن بـدماءٍ طازجة..

- أنا شخصيا أرشـح نفسـي الآن وأمـامكم لمقعـد الرئاسة.. أليس هذا من حقي..؟..

تململ أحمد منصور قليلاً.. ثم هتف:

- إنه حقك بالفعل.. لقد وجهت أنظارنا يا إمـام لأمـر هام، وأبعدتنا عن خطأ كنا سنقع فيه.. خطأ عدم فتح باب الترشيح بيننا نحن الخمسة..

انبرى مفتاح الصاوي للحديث مقاطعا أحمد منصور:

- أي خطأ يا سيد منصور؟.. وأي حق تتحدث عنه؟.. هذا الرجل لا يعي ما يقول.. جمال عبـد الناصـر عندما قام بالثورة توارى في الخلف، وقـدم للنـاس شخصية محمد نجيب حتى يضمن اجتمـاع النـاس حول الثورة.. فقد كان لنجيب قيمته السياسية التـي وظّفها عبد الناصر لصالح الثورة (ثم التفت إلى إمام

مواصلاً حديثه): وأنت ما قيمتك حتى نقدمك للنـاس بدلاً من أحمد منصور؟..

ثم رماه بنظرة لا تخلو من ازدراء قائلاً:

- كيف تكون أقلنا خبرة بالعمل السياسي.. بـل أقلنـا ثقافة وتاريخًا وتفكر في القفز على مقعد الـرئيس؟.. ألا ترى أنك تمنح نفسك ما لا تستحقه؟..

احتقن وجه إمام بدماء جديدة ثم ضرب المنضدة براحتـه اليمنى.. وهتف:

- ولهذا.. وردا على هذا الكلام المهين لن أتخلى عـن ترشيح نفسي.. حتى لو حصلت على صوت واحـد هو صوتي أنا..

قالت راوية بهدوء:

- أنا واثقة أنك لن تحصل حتى على صوتك نفسه لأنك ستعطيه للأستاذ منصور..

ثم توجهت بالحديث إلى أحمد منصور:

- أنا فهمت ما يفكر فيه المعلم إمام.. إنه يريد ممارسة فعليـة للديموقراطيـة، وتحقيـق فكـرة الانتخـاب والاختيار الناجم عن منافسة فعلية..

قال لها أحمد منصور:

- أنا الآخر فهمت هذا..

هتف المعلم إمام:

- افهموا ما تفهمون.. أنا لا أُخرج تمثيلية.. أنا أعي ما أفكر فيه.. أنا مرشـح حقيقـي أمامـك يـا أسـتاذ منصور.. وسوف أبدأ من الآن فـي بـث الدعايـة لنفسي، لدى كل أفراد الجمعية التأسيسية.. أو اللجنة التأسيسية.. أو حسب ما تسمونها.. بل إنني أنصـح أن ينضم إلينا في الترشيح واحد منكم ولتكن الدكتورة راوية..

أقول: إنني تذكرت مسألة الخمر التي أقلع عنها إمام منـذ سنوات بعيدة.. وتساءلت إن كان قد عاد إليها.. ومنذ متى؟.. لا شك أنه عاد إليها وهو في طريقه إلى هذا الاجتماع.. وإلا بماذا نفسر هذا التحول المفاجئ وتلك النقلة المختلفة في هـذا التوقيت القاتل..

لقد كان يمكننا أن نطرح اسم أحمد منصور فـي مـؤتمر الجمعية العمومية الأول للحزب، ويقبل اختيارنا له كـرئيس للحزب.. ولكن ما وضعناه في لائحتنا الخاصة كان من شأنه

تفعيل دور المائدة المثلثـة فـي اتخـاذ القـرارات الهامـة والتاريخية، بدءا من انتخاب رئيس الحزب ومساعديه، حيث كان أهم ما حصلنا عليه من الجمعية العمومية هـو إعطـاء الصلاحيات لأعضاء المائدة المثلثة باعتبارهـا صـلاحيات منبثقة وممتدة ومكملة لصلاحيات الجمعية العمومية...

وكان أقرب تشبيه لهذه العلاقة بين الجمعيـة العموميـة وأعضاء المائدة المثلثة هو التشـبيه الـذي أطلقـه مفتـاح الصاوي، حيث تصور أن الجمعية العموميـة هـي صـالة المصنع التي تعج بالعمال المنتجين والماكينات الهادرة.. وأن ما تتطلبه عملية الإنتاج من خطط وأبحاث وسياسـات، يـتم رفعها إلى الإدارة بما فيها من علماء وبـاحثين – أي إلـى المائدة المثلثة -.. الذين يقومون بدورهم بإعادة مد الصـالة بما توصلوا إليه من خطط وتعليمات للعمل بها.. إنها التغذية المتبادلة بين الجذور والفروع.. كلما تعمقت الجذور ضاربة في الأرض، بحثًا عن ماء الحياة كلمـا ازدهـرت السـيقان والفروع والأوراق وأينعت الثمار.. ومع هذا فقد بدا لنا أننـا نعبر مأزقًا حادا وضعنا فيه المعلم إمام إمام، وأخَذَنا اليقـين

بأننا سرعان ما سنعبره، ولكن ما حدث بعد ذلك جعلنا نتأكد أننا كنا واهمين..

لقد أعلن إمام إمام أن اليوم الأخير في المدة المضـروبة سلفًا لاختيار رئيس الحزب، سيكون هو اليوم الحـاكم فـي اختيار الرئيس والتصويت عليه علنًا أو سـرا فـي جلسـة خاصة تعقد لهذا الغرض ومادام يفصلنا عن هذا الموعد اثنا عشر يوما من الآن فهو لن يلعب في الخفاء بل سيعمل على تزكية اسمه وشخصه لدى ممثلي الشعب، أي لـدى السـتة المتحركين.. لدى ساقي المثلث.. وأنه لـن يفعـل ذلـك إلا علنًا.. وأضاف وقتها قائلاً: (وأرجو ألا يأخذكم الظن إننـي أتبنى موقفًا يتسم بالأنانية أو شهوة الاستيلاء علـى المقاعـد الهامة لمعالجة نقص ما في نفسي وخلل خفي في تركيبتـي الشخصية بالعكس.. أنا إنسان بسيط.. وبساطتي تدعوني أن أمارس الاتساق في حياتي.. ولن يتسق أن أنضم إلى حـزب جديد قوامه ممارسة الديموقراطية ثم نتخلى عنها متأثرين بما سئمنا منه في المؤسسات العفنة الأخرى باستخدام المواقـف القبلية الممجوجة وذلك بتعلية شخص بلا مبرر سـوى أنـه صاحب فكرة واحدة.. وهي فكرة عمل الحزب في حين أنـه

من المحتمل أن يوجد حوله مـن يحملـون أفكـارا أكثـر أهمية...)

لقد أسقط في أيدينا.. وكان الذهول الذي أخذنا يحمل فـي جانب منه شيئـًا من الإعجاب المستتر، والـذي لا يمكـن لأحدنا أن يعلنه بأية طريقة ممكنة.. فها هو الرجـل الـذي يعتبر أقلنا ثقافة وتجربة وخبرة، يبعث نوعا مـن السـخونة المفاجئة في جلستنا الأولى نحن الخمسـة، قبـل أن نـدعو ذراعي الاجتماع المثلثي.. الذراعين اللذين استوحيناهما مـن فرعي النيل الشهيرين: دمياط ورشيد.. ونحن نرسـم شـكل المنضدة الدلتاوية لحزبنا الوليد..

كان مفتاح الصاوي متفجرا وناقما وحادا، وبدلاً مـن أن يكون صاحب موقفٍ هادئٍ ومترو، أصبح يقف على الطرف النقيض من ذلك.. ودون أن يدري أن لموقفه هذا فعله السيئ في تفجير ما كان يمكن إبطاله من تحد كان مزروعا داخـل إمام..

أما الدكتورة راوية فلم تستطع أن تواري خيبة أملها إزاء استهجان إمام إمام لتفسيرها النبيل لموقفه البـادي وأن مـا افترضته من أن المعلم إمام ينشد الأخذ بالشكليات - إتمامـا

للعمل بمبادئ الديموقراطية من: حـق الترشـيح.. وتـداول السلطة.. واحترام كل الآراء أيا كان شكلها وماهيتها.. فـإن هذا الافتراض كان مجرد افتراضا طائشًا سـاءها أن تبتلـع مرارة تسخيفه من قِبل إمام على مرأى من الجميع.. أما مـا استبد بي أنا من اهتمام فهو معاودة التفكير في عمق ما ينشده هذا الرجل.. وماذا يريد؟.. وكيف لم يطرأ ببال أحدنا أنه من الممكن – لاختلافه عنا – أن يختلف معنـا..؟ وكيـف لـم يستشعر أحدنا هذا الهواء الخفيف الذي سيتحول فجـأة إلـى عاصفة كفيلة باقتلاع الأبواب والنوافذ التي تحمـي جمعنـا الوليد.

بلع أحمد منصور ريقه.. ودهس عقـب سـيجارته فـي المنفضة.. وراح وهو يمعن في دهسها يـردد مـع هـزات متوالية من رأسه..

- بالنسبة لي فأنا لا أرى ما يشين في موقف السيد إمام إمام مع احترامي لاعتراض السيد مفتاح الصـاوي على هذا الموقف.. فقط كل ما يؤلمني أن نبدأ عملنا بهذا النوع من الصراع..

لاحقه إمام إمام:

- بالعكس يا أستاذنا.. الصراع مطلوب..

رفع أحمد منصور ذراعه اليمنى في الهواء فاردا راحتـه في مواجهة إمام في طلب واضح أن يكف عن الحديث حتى ينتهي من كلامه:

- ومع هذا فيمكننا أن نتفق الآن أن بـاب الترشـيح مفتوح وأن السيد إمام أول من رشـح نفسـه فـي مواجهتي.. أقول هـذا حتـى تتخـذوا الإجـراءات الرسمية لإعلان هذا وعمل اجتماع تمهيـدي للجنـة الدائمة وتحديد يوم الانتخاب..

ثم راح يتأملنا بعمق باحثـًا فينا عن قولٍ جديد أو فعـلٍ جديد.. ولما لم يجد أردف:

- واضح أنه لا رغبة لأحد آخر في الترشيح.. إذن فلنرتب أنفسنا على اسمين: إمام إمام وأحمد منصور والتصويت بعد اثني عشر يوما مـن اليـوم.. هـل نواصل الاجتماع بالانتقال إلى بند آخر.. أم نُرجـئ الاجتماع إلى ما بعد الاستراحة..؟..

قام مفتاح الصاوي فاردا طوله.. وهو يردد:

- لا بند جديد.. ولا استراحة.. الأفضل أن تُنهـي هـذا الاجتماع وتحدد موعدا جديدا مع باقي الأعضـاء الجـدد.. أقصد المتجددين.. عن إذنكم..

وانصرف مفتاح الصاوي انصرافًا دل على ضيقه وتبرمه واحتجاجه.. وتركنا خلفه وقـد زادت نبـرة الضـيق فـي همهماتنا.. ولسعة الألم في نفوسنا..

وأخذْنا نغادر مأوانا اليتيم في دار الأيتام فـرادى.. ولـم يحدث أن واتت أحدنا الرغبة في محادثة الآخر.. ربمـا لأن كل واحد منا كان يتأمل ما بداخله من قلق.. أو يرنو لصوت الشتات آتيا من مكان مجهول.. أو يتأمـل أعاصـير تنعقـد بؤرتها عند الأفق البعيد وهي في طريقها إلينا..

فلم القلق؟..

ولم خوف من التشتت؟..

ولم مراقبة العواصف ونحن بالكاد نخطو في المضـمار الفسيح خطواتنا الأولى؟..

فإلى أين؟ وكيف ستكون خطواتنا التالية؟

لعل هذا ما يخيفنا ويدعونا إلى.. القلق..

أجل.. إلى القلق..!

(٢)

" شُبهة أن: جعلناه رئيسا "

القاهرة / جاردن سيتي

السفارة الأمريكية

السيد / نائب وزير الخارجية

بعد التحية:

كان لابد للجانب المصري أن يتابع عبر وسائله الخاصة ما نقوم به من تدخل – بدا ملحوظًا – لتعزيز صعود حزب (مصر.. الأم) وكان لابد من الرد عليهم ولا نُنكر هذا التدخل احتراما لذكائهم وما توصلوا إليه من معلومات دقيقة حتى أنهم صاروا يضعون المعلم إمام إمام – مثلنا – تحت الميكروسكوب.. ورغم مخاوفنا من أن يفسدوا علينا ما نقوم به فقد كان أقل هذه المخاوف أن ينهار السيد / إمام في أي موقف.. إلا أن ما راهنّا عليه من دهاء هذا الرجل وقوة شخصيته جاء سليما وفي موضعه الصحيح.. لقد قلب هذا الرجل المائدة على الأربعة الكبار المؤسسين للحزب

ووضعهم في حيرة من أمره وأمرهم.. ووجـدناه لـم يتبـع تعليماتنا وتوصياتنا فقط، بل زادها رونقًا من عنده بالشـكل الذي جعلنا في ذهول ونحن نستمع إلـى حـواراتهم عبـر ميكرفونه الصغير المعلق خلف ياقة سترته..

نعود إلى الجانب المصري الذي يحاول أن يجد تفسيرا لما نفعله.. وحتى نسبر غورهم فقد طلبنا من لجنـة السياسـات بالحزب الوطني أن يحددوا لنا اسم من يثقون به ليجتمع بنـا حتى نطرح أمامهم عبر هذا المندوب (حقيقة) ما نفكر فيه..

جاءنا مستر (لاوندي) وهو أستاذ جامعي، وخبيـر فـي العلاقات الدولية، وكاتب مهـم يكتـب المقـالات السياسـية وينشرها في صحيفة الأهرام.. وأهم ما تعرفنا عليه في ملفه قبل تشريفه لنا، أنه لا يتحيز بأي حال للحل الأمريكـي بـل يسبغ على الولايات المتحدة الأمريكية وصف أنها دولة الشر الوحيدة في العالم.. ويراهن على انهيار قريـب للمؤسسـة الأمريكية التي تتآكل من الداخل كما يقول..

لقد لَمحنا – مقدما – سبب قيام لجنة السياسـات بإرسـال مستر (لاوندي) بالذات.. فمستر (جمال مبارك) هو الآخر لا يخلو من دهاء واختار لنا من يمكن أن يفهمنا - لـو كنـا

صرحاء - وأن يفهم ما يمكن أن يتوارى من قول صـحيح خلف أكاذيبنا.. لو كنّا كاذبين..

أما ما طرحناه أمام (مستر لاوندي) فكـان ببسـاطة شديدة هو الآتي:

١ – نحن نعلم أن الحزب الوطني سيطرح اسـم مسـتر (جمال مبارك) كمرشح عن الحزب فـي انتخابـات الرئاسة القادمة.

٢ – ونحن نعلم أن التوجس الذي يأخذ بنفوس الناس من فكرة توريث الحكم، سيظل قائمـا إلـى أن تعلنـوا ترشيح مستر جمال.. وأغلب الظن أنه سيظل قائمـا بعد هذا الإعلان..

٣ – ونحن نعلم أن الأخذ بسيناريو الترشيح " أسوة بباقي الأحزاب التي سترشح أسماء من عنـدها لخـوض الانتخابات " لن يقنع طبقة المثقفين ومختلف النقابات والاتحادات التـي ينـدس فـي أعضـائها بعـض المتشددين الرافضين لهذه الطريقة الملتوية لتـداول السلطة.

٤ – ونحن نعلم كما تعلم جماهير الشـعب المصـري أن الأحزاب القائمة (التجمـع.. الوفـد.. الناصـري.. الأحرار) كلها لا يملك أحـدها قاعـدة جماهيريـة عريضة، كفيلة بمواجهة الحزب الوطني، ليس بحكم قوة الحزب وتغلغله في نفوس الجماهير – فهو ليس كذلك – ولكن بحكم ما سـبق مـن تجـارب فـي الانتخابات التي استطاع فيها الحزب الوطني بكـل الوسائل المشروعة وغير المشروعة الاستحواذ على مقاعد كان يجب أن تكون لأحزاب أخرى..

٥ – ونحن نعلم أنكم لـن تسـتطيعوا إقنـاع الأحـزاب الأخرى، بالتكتل في شكل حزب واحـد لمواجهـة الحزب الوطني.

٦ – ونظرا لاقتناعنا بضرورة ضمان منافسة حقيقية بين حزبين قويين فإن ظهور هذا الحزب الجديد، ومـا يحمله من فكر وطني - بدأ برفض الفكر الموجـود على الساحة، وما تبع ذلـك مـن هرولـة النـاس للانضمام إليه - فإن هذا النجـاح السـريع يجعـل

الفرصة سانحة لهذا الحزب، لتحقيق فكرة التنـافس الحقيقي.. لكونه ولد ولادة طبيعية لا شبهة فيها..

٧ – ولأننا نأمل في فوز السيد جمال مبارك فإننا نريد له فوزا مقنعا لا يحمل شبهة أن (جعلناه رئيسا) ولكـن يحمل حقيقة أن (انتخبناه رئيسا) ولو بدأ عهده بهـذا المفهوم فسوف يظل طوال مسيرته مفعمـا بـأقوى إحساس يحمله رئيس ما من أنه (رئيس منتخب) تلك الصفة التي يتمتع بها رؤساء أمريكا وسائر الـدول الغربية الديموقراطية المتقدمة..

٨ – إننا لا نصنع حزبا لمواجهة حزبكم.. فهؤلاء الرجال لا نعرفهم ولا يدينون لنا بالولاء.. ولكننـا عثرنـا بالصدفة على تجربة ولدت بريئة، ومليئة ومشرقة، وقريبة مما يحدث عندنا؛ فتحيزنا لتعزيزها أخذًا بما نراهن عليه الآن من بث الديموقراطية في منطقـة الشرق الأوسط، لوقف الديكتاتورية والتسلط والظلم – وهذا كما تعلمون– السبب الرئيسي فـي سـطوة الإرهاب، الذي صار دوليا وصرنا نعاني منه..

٩ – لنترك لهذه التجربة حظها من النجاح المستحق، وكل ما فعلناه أننا أقلنا من طريقها العثرات الروتينية التي تتمسكون بإلقائها أيها المصريون أمام كل غـرض نبيل وحالة نبيلة، تطل بأعناقها في مجال السياسة أو الاقتصاد أو الاختراع.. وتلك مصيبتكم التي يجـب أن تبحثوا عن سرها وتعالجوه..

لقد استمع إلينا مستر (لاوندي) طويلاً وبدا كمـن داخلـه الاقتناع بما قلناه ولكنه أبدى اعتراضا بدا وجيها وهـو أنـه كان من الممكن أن يفهم سر تحيزنا للسيد أحمد منصـور – فيما لو تحيزنا له – ذلك أن هذا الرجل يحمل فكرة القوميـة المصرية ولديه اعتراض ما على فكرة القومية العربية التـي صدعكم بها جمال عبد الناصر.. ومع هذا فمن الواضح أنكم أدرتم ظهركم له ويممتم وجوهكم شطر المعلم إمام إمام الذي لا يحمل أي فكر.. هل من المعقول أن تعملوا على تصـعيد شخصية ميكانيكيي معدات ليقود أمة؟..

هكذا ألقى مستر (لاوندي) بهذا السؤال في وجوهنا.. ولما غابت عندنا الإجابة عاجلنا بقول آخر: ألا تلاحظون أن مـا أُخذ على مستر (كيري) مرشح الرئاسة عنـدكم والقـادم

بقوة أنه أتى بنائب يفتقد الإلمام بالسياسة؟.. وألا تلاحظـون أن ما وصل إليه (بوش) من طحن لعظام أمريكا معنويا على مستوى العالم سببه أنه (جعل) رئيسا ولم (ينتخب) رئيسـا.. وأنه أزاح (آل جور) بشكل مريب..؟.. مما جعلكم تـدفعون ثمن حماقاته العسكرية؟..

وأضاف مستر (لاوندي): يبدو لي أن ثقافتكم الجديدة التي تعتمد على السيناريوهات المسبقة لشغْل المقاعد العالية بمـن لا يستحقونها، لن تحقق لكم ما تصـبون إليـه، مـن نشـر الديموقراطية في الشرق الأوسط.. اتركوا الشـرق الأوسـط لأهله فبداياتكم لا تبشر بخير.. فسوف يفعل أهل الشرق مـا يحلو لهم، ولن يأخذوا من أوامركم إلا ما يروق لهم منهـا.. تماما كما راق لأمير البحرين أن يحول إمارته إلـى مملكـة بجرة قلم.. فبدلاً من أن يقلبها الشعب إلى جمهورية حولهـا هو إلى مملكة..

لقد نهض مستر (لاوندي) وهو يتأهب للانصراف حـاملاً حقيبته الصغيرة ورنا إلينا بنظرة متفحصة، وبلغته الفرنسـية الطليقة - التي كنا نتابعها عبر أجهزة الترجمة - ثـم ألقـى بسؤال ساخر:

- هل يمكننا وصف الزمن القادم في شرقنا البائس بأنـه زمن المعلم: إمام إمام؟..

ويبدو أنه لم ينتظر منا إجابة ما فصافحنا بأدب جـم ثـم انصرف..

سيادة النائب:

هذا آخر ما دار بيننا.. وآخر ما تقوم به في تدعيم إمـام في المنافسة على رئاسة الحزب.. لقد رسمنا له خطواته فـي الاتصال بذراعىاعي المائدة المثلثة.. وما حولها مـن سـتة أصوات كفيلة بتنصيبه دون منازع.. ويجدر القول أنه برغم ما قاله ورفضه مستر (لاوندي) فإن اقتناعنا بشخصية إمـام إمام يزداد يوما بعد يوم..

وتقبلوا تحياتي..

السفير

التوقيع:.........

واشنطون

وزارة الخارجية

سيادة السفير.

تحياتي:

يبدو لي أنكم تسرعتم في كشف كل أوراقكم أمام (مسـتر لاوندي) مندوب لجنة السياسات.. لقد كنتم في حل من ذكر النقاط التسع، التي وردت في خطابكم.. وكان يمكـنكم الاكتفاء بذكر بداية تعرفكم على عناصر هذا الحزب فقـط.. تلك البداية التي انزعجنا فيها من ذكر كلمة (القاعـدة) بـين أناس يجتمعون ويتعاطون السياسة.. لقـد كـان مـن حقنـا متابعتهم ومراقبتهم، إلى أن نطمئن إلـى حقيقـة وضـعهم التنظيمي..

عموما.. ومادام قد سبق السيف العزل.. فلا مناص مـن الاستمرار في أن تفكروا في طريقة مستترة لتمويـل مسـتر إمام للنهوض بالحزب فـور توليـه رئاسـته.. وأعتقـد أن إفراجكم عن شقيق زوجته السرية – ذلك الشـقيق اللغـز – جاء في موعده، ومنحنا ثقة إمام الذي يبـدو أنـه اسـتمرأ السيناريو وراق له ما يحدث.. لذا فيجب تدعيمه ماليا، فـي استمالة الأعضاء الستة الذين نعقد عليهم الأمل في تفوقه..

مع تحياتي

نائب وزير الخارجية

التوقيع:...........

(٣)

" رحلة الاستمالة العبثية "

١) نورا إبراهيم جعفر..

لم تصدق نورا إبراهيم جعفر نفسها وهي تحتـل سـريرا فخما في غرفة فخمـة بأحـد المستشـفيات الاسـتثمارية بالمهندسين.. لم يكن في ظنها أنها وهي القادمة برفقة شقيقتها المريضة سعاد أنها ستخضع هي الأخرى لفحوص طبية لـم تطلبها، فقد كان يكفيها بل يبهرها تحقيق العرض الذي تطوع به رجل الحزب إمام إمام من علاج لأختها سيتكفل به مقابل أن يضمن صوتها لاختياره رئيسا للحزب.. وفي الطريق علم الرجل من سعاد أن نورا تعاني من متاعب في الحمـل وأن زواجها مهدد بالانهيار بسبب حالة الزهق واليأس التي ألمت بزوجها والتي أوشكت أن تدفعه للـزواج بغيرهـا.. عندئـذ سارع رجل الحزب الكريم السخي فاقترح علـى نـورا أن

تطمئن وتترك أختها سعاد في الطابق المخصـص لمعالجـة مرضى الكلى وتوافق على خدماته الجديدة لهـا بالرضـوخ لفحوصات متقدمة وتصعد معه إلى قسـم أمـراض النسـاء لتجنيد كل الأطباء لفحصها ومن ثم علاجها..

ونورا رغم ما هو معروف عنهـا مـن عشـق لقـراءة الصحف وأنها تُعتبر في قريتها - التابعـة لمركـز شـبين القناطر - من القرويات المستنيرات، إلا أنها لم تفهم بشـكل كامل وجلي كل ما يقوله (الأستاذ) إمام.. فالرجل بكل ما فيه من رقة وأدب ينتهز الفرصة السانحة ليدنو من سريرها ثـم يطوف بها رويدا رويدا في أروقة السياسة.. ثم يطلعها على برنامجه فيما لو صار رئيسا للحزب:

".. صحيح أن أحمد منصور رجل له قيمته إلا أن هـذه القيمة لن تفيدنا بشيء إذا تمسك بها وتعامل بعنجهيـة مـع الحكومة.. إنه دائما يقف على الطرف الآخر من الحكومة.. والحكومة لن تتورع عن القيام بهدم الحزب إذا ترّأسه عدوها أحمد منصور وبدأ في رشقها بما لذ وطاب مـن اتهامـات جاهزة عنده سلفًا.."..

نورا قالت لنفسها: وأين – إذن – يقف الحزب المعارض من الحزب الحاكم..؟..

ثم رددت – أيضا – لنفسها: لا أعتقد أنه يقف في نفـس الطرف.. وإلا فكيف يكون حزبا معارضا؟..

لقد تحرك في قلبها وهي الريفية البسيطة بعض القلـق.. فلا يستوي ما يقوله هذا الرجل مع ما تمليه طبائع الأمـور.. إنه يدس دسا سيئًا في حق أحمد منصور الذي يعلمون عنـه أنه العمود الفقري للحزب.. فهو الذي يتوسط المنصة في كل الاجتماعات.. وهو الذي يعطى الكلمة ويحاور الناس.. وهو الذي يلْقى الاحترام والتبجيل من أعضاء المنصـة بالشـكل الذي يؤكد أنه كبيرهم..

" إذن فما الذي ينشده هذا الرجل الكـريم؟.. أم أن هـذا الكرم المفاجئ والقسري هو أحد المداخل للنيل مـن أحمـد منصور في غيابه؟.. لقد جئت إلى هنا بعد اتفـاق معلـن.. وافقت على إعطائه صوتي مقابل إنقاذ حياة أختى.. وأما مـا زاد عن الاتفاق من تكلفة تحملها لعلاجى فهذا تأكيد من عنده لوقوف غير مشروط بجانبي لابد أن يوازيه وقـوف مماثـل وغير مشروط من جانبي.. "

لقد كان ما يقدمه إمام إمام لصوت واحد مـن الأصـوات الستة التي يطاردها - وهو صوت نورا جعفر - يحمل قيمة عالية هي قيمة الإنقاذ مـن المـوت الـذي يـراوغ أختهـا المريضة.. ثم قيمة بث الحياة في رحم نورا المعطّل..

لقد كانت نورا تضع كل هذه القيم العالية في كفـة وهـي تقارنها بما ستضعه في الكفة الأخرى من بيع فاحش لصوتها وهي التي لم يسبق لها أن أحست بقيمة هذا الصـوت قبـل الآن..

وتعود نورا إلى نفسها لتناقشها في مسألة بيع صـوتها.. فتتساءل: ومن قال إنني كنت قد وهبت صوتي مقدما للسـيد أحمد منصور..؟.. هل لأن كل الأعضـاء المتجـددين قـد أجمعوا أمامي على ذلك؟.. وألا يحق لي أن أختلـف عـنهم لأي سبب حتـى لـو كـان لا يتسـم – هـذا السـبب – بالوجاهة..؟..

لقد توقفت نورا جعفر تماما عن مناقشة نفسها.. وأعادت تأمل كفتى ميزان خياراتها.. عندما جاءها الرجل الطيب إمام إمام متهللاً وهو يزف إليها نبأ توصل الأطبـاء إلـى حـل لمشكلة عقمها الذي اتضح أنه عقم مؤقت توصلوا في أمريكا

إلى علاجه.. ولذا فإنه عندما أبدى استعداده أمام الأطباء لتحمل رحلة علاجها أكدوا له أنهم سيخاطبون طاقم هذا المستشفى في (بوسطن) ويجهزون تقاريرهم التحضيرية ويبعثون بها من الآن إلى المسئولين هناك..

لم تردد نورا جعفر سوى جملة واحدة قالتها مذهولة: ياه.. إلى هذه الدرجة كان صوتي ثمينًا دون أن أدري؟..

٢) صباح سعد عبد ا :

في اللحظة التي كانت فيها صباح سعد عبد ا الإخصائية الاجتماعية تضع اللمسات الأخيرة في ترتيب حجرة الصالون لاستقبال رجل الحزب إمام إمام.. كان زوج صباح يتخطى باب شقته مرهقًا مليئًا بالتعب.. ومع هذا فلم يفُته أن يلمح ذلك الرونق الذي بدت فيه شقته بعد أن تخلصت زوجته من الفوضى التي يسبح فيها بيته دوما بفعل شقاوة ذكوره الثلاثة..

سألها:

- ما هذا..؟..

قالت:

- ضيف عظيم الشأن..

قال في مرارة: لا أحد بهذه الصفة في قريتنا العامرة.

قالت:

- ومن قال إنه من أهل القرية..؟..

سألها:

- إذن.. فمن أين..؟..

أجابت:

- من الحزب.. أحد المؤسسين الكبار..

سألها:

- وماذا يريد؟..

قالت:

- علمي.. علمك.. ولكنه قال لي إنه جاء لأمر هام..

قال بتأفف:

- مصر كلها لا يوجد بها أمر هـام.. فكيـف لحـزبكم المولود بالأمس أن يكون به أمر هام؟.. أمر فقـط.. ولـيس أمرا هاما.. على كل حال اشبعي.. اشبعي يـا مـدام.. أنـا جائع.. جهزي الطعام..

قالت له:

- انتظر حتى ينهي الضيف زيارته..

قال محتجا:

- ولو جلس حتى الفجر.. أموت أنا من الجوع؟..

قالت:

- وهل هناك ضيف يجلس حتى الفجر..؟..

رد مسرعا:

- رجال السياسة لا ينظرون في الساعات..

قالت تهدئه:

- لا تحمل هما.. فهو صاحب أسرة مثلنا سيهتم بـالعودة إلى أولاده مبكرا.

ودق الجرس..

أسرعت صباح لاستقبال ضيفها رجل الحـزب اللامـع.. وما إن جلس إمام حتى دخل في الموضوع فورا؛ فأوضـح لمضيفته أنه تقدم للمنافسة على رئاسة الحزب (لحظتها لاحظ افترار شفتيها واتساع عينيها.. وارتفاع حاجبيها.. فأهمل ما رآه) وأنه يقف بكل ثقله وأمواله، لنيل شرف رئاسة الحزب..

وأن الأصوات الستة المتجددين، كفيلة بإنجاحه فيما لو أعطوه أصواتهم.. وأنه يفعل هذا لأنـه يملـك مشـروعا سياسـيا وحضاريا طموحا يختلف عن ذلك المشروع الذي يفكر فيـه أحمد منصور.. فأحمد منصور يصبو إلى انتزاع مصر مـن الحاضنة العربية، تحت مسمى القومية المصـرية.. وذلـك اتجاه سيجر علينا البلاء.. " تذكرى الفترة التي قـاطع فيهـا العرب مصر أيام السادات.. "

قال لها عن نفسه:

- إنه يحاول من الآن تفعيل مشروعه الحضاري بشـكل عملي.. وسيكون جزء من هذا المشروع هو استئجار بنايـة فسيحة تضم في أدوارها المتعددة مركزا لمحو أمية السيدات المتسربات من التعليم الإلزامي.. ودار حضـانة.. وجمعيـة تعاونية لبيع المواد الغذائية بأسعار معتدلة.. وأنه قد رشـحها لإدارة هذا المشروع بمرتب يزيد عـن الألـف جنيـه فـي الشهر..

ولأن إمام إمام لا يملك الوقت الكافي للمسـاومة واتخـاذ المنحنيات سبيلاً إلى هدفه فقد أنهى عرضه المغري، موضحا أنه يفعل ذلك لكسب ثقتها ولضمان صوتها من منطلق أن هذا

المشروع لو كان مجرد بداية قبل حصوله على الرئاسـة.. " فما بالك إذا اعتليت كرسي الحزب؟.. "

ثم كلفها أن تبحث من الآن عن المبنى المناسب لاستئجاره بأي ثمن..

ومن داخل الشقة كان الزوج الذي يصارع الجوع يراقب، وينصت إلى ظهور حركة أقدام تخرج من باب الشقة، ولكنه بدلاً من ذلك سمع صباح تناديه بأعلى صوتها..

- حمدي.. حمدي.. لو سمحت عايزاك..

ثم التفتت إلى إمام لتبثه كلمات سريعة للتعريف بزوجها..

- مقاول مباني.. يقدر يشوف طلبنا..

- وكان قلناش حاجة.. وابن بلـد.. برضـه مقلنـاش حاجة.. بس الأربع تيران اللي جم ودخلوا عليه أكتر من مرة يوشوشوه مرة.. ويتكلموا معاه على جنـب في الأوضة التانية مرة.. كانوا بيبلغـوه أول بـأول باللي بيحصل في مكتبك.. وهجمـة النـاس غيـر المتوقعة.. وزحف الناس اللي في المكتب ورا عمنا جورج وهو جاي لنا النيابة.. ظهور النـاس فِرِقْـتْ

معاه.. الظهور المفاجئ للشعب لخبط الـدنيا معانـا ومعاهم..

وبهدوء راح يسأله أحمد منصور:

- عاوز تقول إن السلطة عملت حساب للجماهير؟..
- السلطة هربت من احتكاك مـا لـوش داعـي مـع الجماهير..
- دا تفسيرك؟..
- طبعا.. إنت وانت خارج من النيابة كان فيه ناس قد إيه واقفين ينتظرونا ويسـألوا عننـا؟.. النـاس دي أغلبها ما يعرفناش..ما شافوش وشنا عمـرهم قبـل كده.. هو دا اللي يخوف السلطة.. واحد عطاك ثقته وبيخاف عليك من أول لحظـة.. وبـدون تـردد.. دي معناها إيه؟.. معناها إنك دخلت جـواه.. وإنـك بقيت حِتة منّه.. مش هِي دي الزعامة..؟..

وبعدها راح مفتاح الصاوي يؤكد.. أن ما يدور الآن فـي المنطقة العربية من تحفز وتنمر تقوم به الشعوب حاليا فـي مواجهة الحكام استنادا إلى ما قامت به أمريكا مـن كشـف المستور حول فساد أنظمة هؤلاء الحكام وتورطهم في قمـع

شعوبهم وسرقة خيراتهم جعل بعض الأنظمة تعمد إلى تجميل وجوهها الماطخة وتتمسح خجلاً وخوفًا في إعـلان بعـض الإجراءات التخفيفية.. تخفيف قسوة الأظـافر الناشـبة فـي الحلوق الظامئة للكلمة والجائعـة للطعـام.. وراح يضـرب الأمثلة بما حدث عندنا في مصر من تخفيف بعض القـوانين العسكرية المقيدة للحريات والمصالح المدنية.. ثم إلغاء محاكم أمن الدولة.. ومنح الجنسيات لأبناء الأجانب من أم مصرية.. إلى آخر تلك القشور التي لا ترقى إلى ما يصبو إليه الناس، من إطلاق عام للحريات المدنية، وتدمير الكـرة الحديديـة المعلقة في رقاب الناس ألا وهي قانون الطوارئ..

قلت له:

- معنى هذا في نظرك أن وكيل النيابة كان يستند إلى تعليمات نُصح بها للتخفيف عن الماثلين أمامه..

قال لي:

- إذا قلنا إن كل من يمثـُل أمامه ليس شرطًا أن يكون مجرما أو مدانًا، فإنه بجانب صـلاحيته الشخصـية وقناعته الداخلية يمكنه بهمـا - وبمـا لديـه مـن

تعليمات - أن يتخذ مثل هذا الموقف المتحضر الذي واجهنا به..

ثم أضاف:

- ولكنه من المؤكد سيكون على خلاف ذلك تماما مع آخرين تورطوا بالعمل ضد الدولة بتنظيم مسلح..

ردد أحمد منصور:

- طبعا.. طبعا..

ثم التفت إلي وسألني:

- الكشوف التي بها أسماء الناس موجودة بالمكتب؟..

أجبته:

- موجودة مع الموظفين..

قال وهو يهم بالنهوض:

- يلاّ بينا.. عندنا شغل كتيـر.. يـا دوب يخلـص ع الصبح..

* * * *

(٢)

" اختصار المسافات بحصان كأنه البراق "

ولأن أحمد منصور لم يكن قد انفصل عن حلمـه القـديم بتأسيس حزبه المأمول فإنه وبسبب مطاردته لهـذا الحلـم.. ومطاردة هذا الحلم لـه أصبح يملك كمية هائلة من الأوراق والوثائق الحاملة لمشروع حزب (مصر.. الأم) والتي لم يبق سوى أن يمهرها بتوقيع المؤسسين وعناوينهم ووظائفهم..

فبرنامج الحزب الذي تمتع طـوال السـنوات الماضـية بحالات كثيرة ومضنية من إعادة الصياغة، وحذف فقـرات كاملة منه بعد إضافة عديد من الفقرات الجديـدة، وتكثيـف المعاني في بند ما على حساب الإيجاز في بند آخر.. كل هذا كان يفعله أحمد منصور، وكأنه يخاطب نفسه في غرفة مغلقة وبناء على المتغيرات الحياتيـة التـي تجبـره علـى تلـك المتغيرات في نمط السلوك الاجتماعي والثقـافي والسياسـي الذي يعتمد على عامل الصدفة وليس على عامل التخطـيط المسبق..

طرح أمامنا أوراقه.. وخاطب مفتاح الصاوي وهو يقـدم لـه ورقة بيضاء:

- ارسم حصانك الجامح أيها الفنـان.. وضـع أسـفله شعاركما المختار أنت وجورج " إن قلت كلمتك.. لا تمض " سنطبعه أعلى كل الأوراق..

ثم خاطبني قائلاً: هل يمكنك استدعاء الدكتورة راوية عبد العظيم الآن..

تذكرت الحوار الذي دار بيني وبين راويـة أمـس فـي المساء حول ما تناهى إلى سمعها من مقارعـة دارت فـي المسجد بين إمامه الشاب الشيخ صلاح السقا وبـين مفتـاح الصاوي الذي كانت تعرفه من خلال حديثي عنـه.. كانـت راوية قد عرفَتْ مني أن مفتاح الصاوي يحمل فـي داخلـه شخصية مشاكسة، ترفض التبلـد والركاكـة والتصـرفات التافهة، وتكره كل ما يمت للزيف والمداهنة بصلة، ولذا فقد كان غريبا في مجال عمله ولا يتحسر علـى ضـياع حقـه المكتسب، عندما يتجاوزه إلى شخص آخر لا يسـتحقه.. " ولأنك جربت يا دكتورة راوية الظلم وسطوة الضلال عندما يزيح الحق جانبا وكادت حياتك تتحطم أمام قسوة البشر؛ فإن

مفتاح الصاوي وهو يواجه مثل ذلك العنت كان يبـدو لمـن حوله أنه يذوق طعم القسوة بتلذذ، حتـى أنـه أفسـد علـى القـُسـاة تلذذهم بغزواتهم الظالمة ضده.. تلك هي قوتـه.. قوته في ألاّ يبدو ضعيفًا أمام من يمتلكون مفاتيح القوة.. ولا يستجدي بعض اللين من قوتهم حتى لو دنا من الموت.. ولم يعرف عنه الناس أن هناك ما يشغله ويسعى لامتلاكـه مـن متاع الدنيا سوى الفن.. إذ قال عن نفسه: " أنا أعيش الحيـاة وكأني أرسم لوحة "..ثم قال: "وهناك فرق أن تأخذك الـدنيا من فراشك الهنيء.أو تُلقي بها أنت مـن الشـباك قبـل أن تنام" ..

ويضيف: " تعودت أن أنسى كل شيء قبل نومي.. ولكني أقوم فجأة مفعما بالحبور إذا ألهمتني قريحتي بإضافة لمسـة معينة إلى لوحة معينة.. ربما يستغرقني ذلك دقائق معـدودة أو ساعات طويلة أنسى فيها فراشي وكل ما يحيطني ويهمني حتى موعد الذهاب إلى عملي.. تلك هي سعادتي "

قلت لأحمد منصور:

- الدكتورة راوية تتابع ما يحدث منذ الأمـس.. وهـذه السيدة منذ فكرنا فيها كشخصية قويمة جديرة بكسب احتـرام

وحب الناس فيما لو انضمت إلينا، وأنا أدنو منها قليلاً قلِـيلاً حتى استطعت أن أجعلها تعيش بعض أحلامنا.. لقد ساعدني على ذلك عوامل المرارة، التي راحت تفيض من نهر حياتها التي رهنتها للمستشفى ودار الأيتام.. كانت تقص علي بكـل ألم ما تسمعه عن الفساد الرهيب في وزارة الصحة، وكيـف أن التغيير المفاجئحمدي قد دخل وصافح ضيف زوجته.. وما إن جلس حتى فهم سر دعوته لهذا الاجتماع.. وسرعان مـا أسعفته ذاكرته بطلبهما المطروح منذ دقائق.. فتحـدث عـن عمارة في القناطر أنهاها، كهيكل إنشائي منذ شهور، ويقـوم صاحبها بتشطيبها، ولم يؤجر فيها شقة واحدة، لأنه يفضـل البيع بعد التشطيب..

ربت إمام إمام على ركبة حمدي في لطف وكرم، وقال له وهو ينهض:

- احجزها كلها.. ولك عمولة كبيرة عندي..

ثم صافحهما مسرعا وخرج في تؤدة ورزانـة وتركهمـا خلفه، يتبادلان نظرات الذهول.. تلك النظرات التـي أنهاهـا حمدي قافزا إلى التليفون ليتحدث مع صاحب العمارة.. وكان قلبه يرقص فرحا، خاصة عندما سمع أصوات الأواني فـي

المطبخ تشير إلى أن صباح أسرعت لتجهز له الطعام فأحس فجأة بقرصة الجوع..

٣) فيكتور ثروت عبد المسيح:

كان فيكتور ثروت عبد المسيح يتأمل صفحة النيل مأخوذًا ببعض الشرود، وهو يسترجع ما قاله هذا الرجل إمام إمـام، الذي جذبه من نومة القيلولة، ليقابله هنا على تلك الكافتريـا المطلة على مياه نيل القناطر.. استرجع حديثه معه عن أهمية الثقافة والفن، وأن هذا الأمر له من الأهمية والشأن الكبير ما يستوجب أن نجهز له من الآن..

" وأنت يا فكتور أنسـب مـن يتـولى الجهـاز الثقـافي والإعلامي في الحزب.. لقد اخترتك قبل أن أجهـز نفسـي للمنافسة على رئاسة الحزب.. أنت كاتب وأديب ولك إنتاجك المتميز.. ولا يوجد من ينافسك في الحزب وإن كان جـورج الأديب مثلك.. فجورج مؤسس ولن يتولى رئاسة أي لجنة.. يكفيه رسم السياسات معي.. أقصد معنا.. "

فيكتور وإمام الآن يلتقطان الأنفاس بعد حـوار طويـل، حاول فيه فيكتور أن يفهم سر هذا التعلق المفاجئ للسيد إمام،

بفكرة رئاسة الحزب.. وتخوفه من حدوث انشقاق بين الكبار وهم يبدأون الخطوات الأولى في درب السياسة..

لقد تمكن إمام بلباقته الفطرية من طـي هـذه الصـفحة المريبة بالسرعة الكافية، متعللاً بفكرة الأخـذ بديموقراطيـة الأداء الحزبي المتحضر، وإعطاء الفرصة للجميـع بـنفس القدر والعدالة.. واستنفار الطاقات الكامنة داخل الفرد لصالح المجموع.. إلى آخره..

وعندما تحول الحديث من السياسة إلى المصلحة انتصبت قرون الاستشعار لدى فيكتور، الذي وجد نفسه مكلفًا بتأسيس دار نشر، تبدأ بتسليم بند الطباعة من الباطن، إلـى أن يـتم شراء مطبعة لحساب الحزب، بعـد أن يتبـوأ إمـام مقعـد رئاسته..

" إنني أفعل ذلك يا فيكتور من جيبـي الخـاص لتثبيتـك كرجل أول في هذا المشروع الذي سوف تنجح فيـه علـى المستوى الشخصي والحزبي.. ولن أدعى النبـل، وأوهمـك أنني أفعل ذلك مجانًا.. لا.. الحقيقة إنني أريـد أن أضـمن صوتك لصالحي، لأتأكد بذلك أنني أكون قاعدتي التي سأعمل بها داخل الحزب.. "

- اتفقنا..
- اتفقنا..
- سلام..
- سلام..

وصعد إمام إمام الدرجات الرخامية المؤدية من الكافتريـا إلى عرض الطريق.. وفيكتور يتأمل عوده الممشوق، وبذلته الأنيقة، ومشيته الرزينة، قبل أن يعود إلى نفسه متسائلاً:

- ما هذا؟.. ماذا يحدث؟..

٤) عزت رمزي كامل:

كان إمام إمام نهبا للحيرة وهو يفكر في مـدخل مناسـب لهذا المساح القبطي عزت رمزي كامل.. فمن غير الممكـن أن يزوره في منزله.. لأن عزت هذا مراقب جدا في بيتـه.. هذا النوع من المراقبة الذي تفرضه زوجته وتؤديها بإحكـام ضمانًا لعدم وقوع زوجها تحت طائلة الخطأ أو الخطيئـة.. والخطأ في نظرها، يبدأ من تلصصه على صـحيفة جـاره فيقرؤها معه.. وحتى لو استاذن جاره – هكذا تقول – فـإن

حدة الخطأ تخف نسبيا، ولكنها تتحول إلى عيب سلوكي غير مستساغ...

همس إمام لنفسه:

- مصيبة.. كيف لي أن أرشو صاحبنا هذا؟..

وسرعان ما تذكر المقولة الشهيرة التي تقول؛ إن الظهور هو خير وسيلة للإخفاء.. وأقنـع نفسـه أنـه لا يملـك إلا المصارحة الفجة، التي تطيح بالعقل قبل أن يعاوده الاتزان..

فلقد استطاع أن يجد السبيل المناسـب لاسـتمالة نـورا وصباح وفيكتور.. عالج هذه.. وافتتح جمعية لتلـك.. ودار نشر لذاك.. فما هو الشيء المناسب لهذا العضو الذي يعمـل مساحا..؟ لم يجد أنسب من (الفلوس) فهي التي تمسح الهـم والجوع ولواعج الألم..

ناداه بشكل مباغت:

- عزت؟..

أجابه:

- نعم

لاحقه:

- أنا مرشح لرئاسة الحزب.. أنت واحد مـن الأعضـاء الستة الذين أراهن عليهم لإنجاحي.. حتى الآن اتفقـت مـع أربعة.. وأخذت منهم وعودا.. أنت الخامس.. وسأتركك الآن وأذهب إلى السادس..

- ثم وضع يده في جيبه، وأخرج مظروفًا مليئًا بـأوراق البنكنوت فئة المائة جنيه:

- هذه هدية لك.. عشرة آلاف جنيه.. فلتقسم بالمسيح أنك ستعطيني صوتك..

تململ عزت وتأرجح في كرسيه من فعل المفاجأة.. ثم خرج صوته متحشرجا:

- لا داعي للقَسم.. ولكني سأعطيك صوتي..

وجه إمام نظرات ثاقبة إلى وجه عزت:

- سأوافقك ألا تقسم.. ولكن ثق إنني لو خسرت صوتًا واحدا فسوف أعرف فورا أنه صـوتك.. فـالجميع أقسموا.. وفي هذه الحالة سأطالبك بهـذه الفلـوس.. وسأنتقم منك..

قال عزت وهو يحاول تخليص صوته من الحشرجة:

- ما تقلقش.. خليها على ا ..

قال ذلك.. وهو يدس يده بالمظروف الأنيق فـي جيـب سترته، وسرعان ما أخرج هذه اليد لتلحق بكف إمام، التـي فردها أمامه فجأة بأصابعها النحيلـة المعروقـة، المفـرودة كالخناجر المرصوصة:

- اتفقنا..
- اتفقنا..
- سلام..
- سلام..

وما إن تخطى إمام إمام الدرجات الرخامية، التي أوصلته إلى عرض الطريق.. وما إن لمحه عزت من مكانه الوطيئ في حديقة الكافتريا يدفس رأسه داخل سـيارة كانـت فـي انتظاره، حتى أفاق ليجد نفسه وحيدا، إلا من صدى كلمات، كانت تتردد على هذه المنضدة.. كلمـات انتهـت بتسـليمه مظروفًا من المال يرقد في جيبه الآن..

أسرع فتحسس جيبه؛ فانتبه إلى صـوت احتكـاك ورق المظروف السميك بأصابعه.. هب واقفًا وأخرج المظـروف من جيبه.. تأمله.. تحسسه.. جـس سـمك قوامـه المـليء بالبنكنوت بإبهامه وسبابته.. أسرع نحو الدرجات الرخاميـة

الصاعدة مسرعا لعله يلحق (بالأستاذ) ليعيد إليه مظروفه الآثم.. وفي عرض الطريق شاهد السيارة آخذة في الابتعاد:

- يا أستاذ.. يا أستاذ..

كانت السيارة قد ابتعدت تماما.. وكان نداؤه قد تلاشى تدريجيا..

أفاق مرة أخرى فتحسس المظروف القنبلة، الذي لا يمكنه الدخول به إلى منزله.. ارتعش جسمه خفيفًا، وهو يتذكر اللحظة التي غاب فيها عن عقله، ودس هذا المظروف اللعنة في جيبه.. هل كان في وعيه؟.. أم أن عقله الباطن هو الذي قبل هذه الهدية المريبة رغبة في الانتصار – من بعدٍ- على زوجته.. ارتعش جسمه خفيفًا مرة أخرى عندما تذكر زوجته.. ثم زاد ارتعاشه عندما تخيلها تتفقد جيوبه، وتعثر على هذا المظروف.. ثم تخيل بعد ذلك أشياء كثيرة سوف تحدث له.. ارتعش بدنه رعشة كبرى.. نظر حوله.. كان السير اللاإرادي قد أبعده عن مكانه القديم الآهل بالبشر.. هذا المكان لا يراني فيه أحد.. إما أن ألقي بهذا المظروف في النيل تخلصا منه.. وإما أن أحفر له حفرة في حضن الشاطئ.. حفرة لا يعرفها غيري.. حفرة صغيرة لكنز صغير، أعود لاسترداده عندما أقرر ذلك..

وما إن راقت له الفكرة، حتى راح يبحـث بعينيـه عـن المكان المناسب لعمل الحفرة المطلوبة.. ثم راح يبحث عـن كيس بلاستيكي يحفظ فيه كنزه الآثم..

٥) حمدي محمد عبد الباسط:

كان إمام إمام يعرف مقدما أن الشاب الأسمر النحيل الذي يتحدث بلباقة.. حمدي محمد عبد الباسط رجل يتحـرك فـي الدنيا، وخلفه ذكريات مؤلمة من الضـياع والقهـر.. وأنـه يرفض كل ما حوله من مظاهر سيئة هي الطفح الجلدي على جسم المجتمع للفشل الذريع، الذي سقطت فيه كل الـوزارات المتتابعة في عهد الرئيس حسنى مبارك.. فكل هذه الوزارات وكل من تولوها مقتحمين مشاكل المجتمع لحلها، خرجوا من وزاراتهم وتركوا خلفهم نفس المشاكل وقد تضاعف حجمها.. فأعداد الشباب العاطل تزيد.. وأعداد الشركات التـي تعلـن إفلاسها تزيد.. وسعر الدولار قياسا بسعر الجنيه المصـري يزيد.. وأسعار الطعام تزيد.. إذن فنحن نتمتـع بنـوع مـن الزيادة في النزول إلى أسفل.. زيادة عمق الحفـر.. زيـادة معدل الانحدار.. أي أن ما يحدث في المجتمع المصري من

تقدم أصبح هو الهدف الغائب.. أو الأمنية التي حدث عكسها تماما..

ويشد حمدي عبد الباسط شعره قائلاً:

- لماذا لا يجلبون الأعمال لكل هؤلاء النـاس؟.. لمـاذا نجلس على المصاطب.؟.. ما الذي يفكرون فيه؟.. وهل هـم يفكرون أصلاً..؟ أنا لا أحمل الإعدادية وأحيانًا تطرأ علـى ذهني أفكار لحل أزمة الشباب أتمنى أن أجد مـن يسـمعها مني.. تمنيت أن أجد لي مقعدا في المجلس المحلي الشعبي.. مقعدا واحدا من ثلاثين مقعدا أطرح فيه أفكـاري.. وعنـدما وجدت من يطرح أفكارا مثلها وتذروها الرياح تراجعت؛ فقد وجدتها لا تخرج عن حد الجلسة الروتينية التي يبحثون فيها عن حل لتكدس الباعة الجائلين على الأرصـفة.. وتكـدس القاذورات في الشوارع.. وتكـدس محاضـر المشـاجرات الآدمية في رفوف مراكز الشرطة.. وزيادة عدد المتسـولين على النواصي وفي الطرقات.. ثم غياب الحلول لهذه القضايا اليومية.. والحلول إذا حدثت لا تزيد الأمر إلا سـوءا.. ولا تضيف إلى الواقع إلا مزيدا من الإهانة.. فهجمة واحدة مـن الشرطة على الباعة المساكين تثمر عـن خسـاراتهم فيهـا

بضاعاتهم وكرامتهم.. هذا هو الحل الدامي الذي لا يجد فكرا متحضرا يجتمع فيه المسئولون لإنشاء سوق متمدن توهـب محلاته لهؤلاء الناس..

قال له إمام إمام: فلنبدأ بتحقيق حلم صغير كمقدمة لأحلام كبيرة.. أنت بحاجة إلى " يافطة "

سأله ذاهلاً: يافطة؟!!

- أجل.. بحاجة إلى عنوان.. منبر.. مكـان تتحـدث منه.. صالة تجتمع فيهـا مـع الشـباب الضـائع.. والحرفيين العاطلين.. تضع يدك في أيديهم.. تسلكون أول الطريق متساندين على بعضكم البعض..

سأله: وكيف يحدث هذا؟..

أجابه فورا: فلتبدأ فورا في تأسيس جمعية أهلية تسـجلها في الشئون الاجتماعية لصالح أصحاب الحـرف العـاطلين وأسرهم.. يجب أن تبدأ بتجميع كل الأسماء التي تطلب عملاً في كل بنود المعمار.. مباني.. بياض.. بـلاط.. نجـارة.. إلخ.. ويكون دور الجمعية هو الاتصال بأصحاب الأعمـال وجلب هذه الأعمال لصالح الجمعية ثم يتم توزيعهـا علـى راغبي العمل بنظام معين يخلو من المجاملة ويحقق تكـافؤ

الفرص.. ولتدعيم صندوق الجمعية يقوم كل حاصـل علـى عمل، بالتبرع بنسبة معينة للجمعية، من ناتج عمله لتـدعيم من لا يعملون.. إنه التكافل الاجتماعي..

وقبل أن يتساءل حمدي عن الإمكانيات التـي ستسـاعده لإقامة هذه الجمعية - التي بدا على وجهه مقـدار الاقتنـاع بفكرتها - أسرع إمام فالتقطه فور ظهوره على شـاطئ الرغبة والاقتناع..

- من ناحيتي سوف أستأجر لك المقر لمدة عام كامل.. وسأرسل لك أحد المحامين للسير في الإجـراءات.. وما عليك إلا أن تتصل بالأعضـاء الـراغبين فـي الانضمام..

ثم مال عليه بود شديد وسأله:

- ما رأيك في أفكارنا؟..
- عظيمة.. وا العظيم..
- القيادة أفكار وسياسات ومتابعة.. هل أصلح – فـي نظرك – للقيادة؟..
- طبعا تصلح..

- أم أن الأمر يستدعي حصولنا على الشهادات الجامعية، وأن نكون من المتخصصين؟..

- وماذا فعل لنا المتخصصون؟.. هل تعرف أن (محمد مهاتير) رئيس وزراء ماليزيا يعمل طبيبا.. وقفز باقتصاد ماليزيا قفزة خرافية.. رفع معدل دخل الفرد الماليزي من ٥٠٠ دولار في سنة ١٩٨٤ إلى ١٠٠٠٠ دولار سنة ٢٠٠٤.. هل تصدق هذا؟.. والرجل مجرد طبيب.. لم يدرس الاقتصاد؟.. الموضوع لا تحكمه الشهادات، بقدر ما تحكمه حكمة التفكير، والاستعانة بأهل الخبرة، وأن تتمسك بفكرة أن تكون قائدا وقدوة..

ابتسم إمام في إعزاز واعتزاز ومسح شاربه القصير بظهر سبابته.. وتوجه إلى الكهربائي الناصح حمدي عبد الباسط محتجا:

- تصور؟.. عندما أعلنت ترشيح نفسي لرئاسة الحزب احتج الأستاذ مفتاح الصاوي وأهانني، واتهمني بالقصور الثقافي والفكري الذي لا يؤهلني لمجرد التفكير في خوض الانتخابات..

تفحصه حمدي بذهول:

- وهل رشحت نفسك أمام أحمد بك منصور؟..

أجابه بسؤال:

- ألا يجوز لي ذلك؟..

صمت حمدي طويلاً، ربما ليربط بين اتجاه حديث إمـام معه في أول الجلسة.. واتجاهه الحالي في آخر الجلسـة ".. إذن فالتضحية بإيجار مقر جمعية رعاية الحرفيين وأسـرهم، لمدة عام وأتعاب المحامي والمفروشات والمصاريف اللازمة للتأسيس كلها، لم تكن لوجه ا والوطن.. ولكـن لضـمان صوتي معه في مشروعه العالي... سـبحان ا .. لا شـيء بالمجان.."

- كيف لا يجوز؟.. يجوز طبعا.. وزمانك طبعا تريـد صوتي معك..

- أكيد..

- وتبرعك بإقامة الجمعية التي سأترأسها هو الـثمن.. طبعا..

- تعجبني فراستك..

- الأمر لا يحتاج إلى فراسة، بل إلى كياسـة.. كـان نفسي مفتاح الصاوي يكون هو الرئيس..
- معنى هذا أنك ترفضني؟..
- كيف أرفضك وأنت ستفتح بيوت عشرات الصنايعية العاطلين؟.. أليس باقيا على الانتخاب عشرة أيـام؟.. لو أسست وأثثت وأعلنت الجمعية قبل هذا التاريخ.. فصوتي لك..
- اتفقنا..
- اتفقنا..
- سلام..
- سلام..

٦) عبد الكريم السيد الدسوقي:

بنفس القدر من القلق الذي تحرك به إمام إمام نحو المساح عزت رمزي كامل تحرك نحو الفلاح عبد الكريم الدسوقي.. إنه أول حاله محددة ومحدودة وواضـحة المعـالم.. فـلاّح أصيل.. لا يجمل الكلمات ويكره الهتاف الـرخيص.. يعلـن استياءه على مرأى من الأشهاد ويسمى السياسات التي تسير عليها مصر منذ عصر السادات: سياسـات الرجـوع إلـى

الخاف.. ويعتبر أنه ربى أولاده في غفلة من الزمن.. ويقول علنًا: إن جمال عبد الناصر وضع يده في يدي وقال لي هيـا بنا يا عبد الكريم نربي أولادك في الجامعة.. ما عليك إلا أن تدبر لهم كسوتي الشتاء والصيف.. الدولة ستعلمهم بالمجـان وتسكنهم المدن الجامعية بملاليم.. وسنمنح المتفـوق مـنهم مزايا كثيرة.. أصبح عندي علاء: أُحيل على المعاش لـواء مدفعجيا.. وسناء: مهندسة تقاوم فكرة الرحيل من شـركتها بمعاش مبكر.. وبهاء: الطبيب المقيم في القاهرة ولا يتسـلى مع أطفاله إلا بحكاياتي مع الملاليم التي ربيتهم بها.. ذلك أن بهاء يدفع للطفل الواحد عدة ألوف من الجنيهات في مدرسته الابتدائية..

أكثر ما يسئ عبد الكريم الدسوقي الـذي يقتـرب مـن الخمسة وسبعين عاما.. كيف وابنه على المعاش، إنه لم يعد يلمح في عيون الأجيال الجديدة تباشير الأمل.. وعندما يشاهد تكالب الآباء والأمهات على انتزاع فرص التعليم لأبنـائهم، بكل أعبائها من مصاريف جمة، ودروس خصوصية، يأخذه العجب..ويتساءل: ألا يعلم هؤلاء الآباء أن الخريج الجامعي يجلس في انتظار فرصته في التوظيف أكثـر مـن عشـر

سنوات؟.. وهل يتكالب هؤلاء الآباء على تعليم أولادهم، ومنحهم الشهادات، ظنا منهم أن هؤلاء الأولاد سينفقون عليهم ذات يوم؟.. ألا يعلمون إلى أي حد انقلب الحال وصار الأب مسئولاً عن كل أعباء أولاده حتى بعد التخرج؟..

سحب إمام إمام رشفة من كوب الشاي الساخن بصوت مسموع وهو يجلس في مندرة الحاج عبد الكريم ثم وضع الكوب بهدوء فوق الصينية ورنا إلى الحاج بنظرة فيها أمل ورجاءٍ..

- يا حاج.. لعلك سمعت إني رشحت نفسي لرئاسة الحزب.. (ثم بعد فترة صمت).. ومحتاج صوتك معايا.. وأنا تحت أمرك..

صكت الجملة الأخيرة إذن الحاج عبد الكريم.. وكاد أن يعبر السؤال الذي سيتوجه به توا إلى إمام طلبا لتوضيح عبارة تحت أمرك هذه.. إلا أنه أرجأ ذلك حتى يتعرف على إجابة سؤاله التالي:

- وكيف واتتك الجرأة في مزاحمة أحمد بك منصور على الرئاسة؟.. أليس هذا " شيئًا غريبا " يا معلم إمام؟..

- غريب أن يكون بينكم واحد جريء.. هـل تتحـول الميزة لديكم إلى عيب يا حاج؟..
- لا.. أنا لا أحول الميزة إلى عيب، ولكني أستطيع أن أعرف الخطوط التي تفصل الجرأة عن الفجـور أو عن الوقاحة.. وكلها يمكن أن تندرج – لمن لا يرون – تحت بند الجرأة.. وهذا لا ينطبق عليك..
- لا.. لا.. لا.. لقد زودت العيار يا حاج.. اسمح لي.. أنا أحتج.. هل أنا أخطأت لأني رجل مستقل برأيي.. وواثق في نفسـي.. وأريـد للحـزب أن يمـارس الديموقراطية بشكل حقيقي وليس بشكل تمثيلي؟..
- على عيني وراسـي.. بـس بشـرط ألا تتجـاوز الأصول.. ديموقراطية إيه.. واسـتقلال إيـه اللـي يضيع على الناس حقوقهم؟.. أحمد منصور عامـل كتاب قعد يكتب فيه ١٥ سـنة.. والكتـاب ده هـو دستور الحزب.. إنت عملت إيه..؟.. جـاي تاخُـد الحزب على الجاهز.. ثم إيه حكاية أنا تحت أمـرك دي؟.. إنت جاي ترشيني يا معلم إمام؟.. عاو زنـى أغير ضميري وانتخبك.. أنا آسف يـا معلـم.. مـا

تعماش حسابي.. بس ممكن تعمل بنصيحتي.. بلاش المشوار ده.. المشوار ده كبير عليك.. الطبخـة دي تقيلة على معدتك شوية..

قال إمام وهو ينهض:

- نصـيحتك لا تلزمنـي يـا حـاج.. والمشـوار ده مشواري.. والطبخة دي طبختي وشكرا على المقابلة يا حاج..

واندفع خارجا من الباب.. دون أن يصافحه..

* * * *

(٤)

" أحلام المعلم إمام "

لم يفلح الهواء البارد الذي لفح وجهه، وهو يشق الخـلاء إلى سيارته في تلطيف السخونة المباغتة، التي صعدت إلـى يافوخه..

سار بسيارته على غير هدى.. عكس اتجاه خواطره التي كانت تسير به بكل الهدوء.. فقد عمد إمام إلى مراجعـة حساباته.. تلك الحسابات التي كانت تقول إنه يـراهن علـى كسب سبعة أصوات بما فيهم صـوته.. والآن وبعـد هـذه المقابلة العاصفة مع عبد الكريم الدسوقي فالسـبعة نقصـوا واحدا.. وتلك هي الخطورة بعينها فقد أصبح فوزه مرهونًـا بالوفاء الكامل للأعضاء الخمسة.. بنفس القدر الذي أصبحت خسارته محققة فيما لو تخلى عنه صوت واحد..

وراح يسترجع حواره مع عبد الكريم الدسـوقي، ليـرى مدى فشله في إدارة هذا الحوار، لجذب هذا الرجـل المفعـم بالصراحة الفجة.. ووجد أنه لم يكن يملك سـوى الـدخول مباشرة إلى عمق مطلبه دون لف أو دوران..

وفي منزله تمدد مرهقًا فوق سريره، بعد أن أحكم إغلاق باب الغرفة إذ إنه يتوقع أن يحددوا لـه موعد المقابلة عبـر الميكروفون المتناهي الصغر فمن المؤكد أنهم يعملـون الآن على إخراجه من هذا المأزق.. ووجد أن إرهاقه البادي، ليس تعبا جسديا، قدر ما هو تعكر طرأ على صفاء ذهنـه، ذلـك الصفاء الذي أدار به خمسة مقابلات ناجحة، قالوا له عنها إنه قد تفوق فيها على نفسه.. وهو لا ينسى نظرة الإعجاب التي أرسلها له كبيرهم وكيف صارحه بأنهم وضـعوا أيـديهم – فعلاً – على رجل يجيد فن السياسة، دون أن يدري أنه مؤهل لذلك بالفطرة الربانية.. وأنه لو كان داخل كل منّـا حيـوان سياسي – كما يقولون – فإن الحيوان الذي في داخلـه مـن النوع النادر.. حيوان يبدو أليفًا ووديعا ومستأنسا، ولكنـه إذا قام فتمطى اقتلع الأشجار وهز ضواري الغابة..

لاحت على محياه ابتسامة الفخر، وراح يقـاوم سـلطان النوم الذي راحت جفونه تتثاقل تحت وطأته.. ويرنو بعـين الرجاء إلى الرنين العذب للميكروفون المتناهي الصغر فلعله يسمعه الآن.. أو لعلهم يلجأون إلى محادثته عبـر التليفـون المحمول.. مد أصابعه فالتقط محموله من فوق الكوميـدينو

ومسح شاشته بنظـرة سـريعة ليطمـئن علـى صـلاحيته للاستقبال..

" هؤلاء الناس دخلوا بي، وأدخلوني في نفق طويـل، لا أرى له نهاية.. إنهم يديرون معركـة غامضـة ذات هـدف غامض.. معركة لا يمكن أن تكون كلها من أجلـي.. لعلـى صاحب دور محدد ألعبه الآن وفق إرادتهم.. الواضح أنهـم يغتالون مشروع أحمد منصور، وأولى حلقات هذا الاغتيـال هي إزاحته من رئاسة الحزب.. ولعل عملهم الحقيقي سـيبدأ بعد تمكيني من كرسي الرئاسة.. من الواضح أنهـم يعـدون فرسا ما لسباق قادم.. سباق رئاسة الجمهورية الذي سيحدث لأول مرة في مصر.. فحزبي سوف يطرح اسم مـن يمثلـه شأنه شأن الحزب الوطني الذي سيطرح – حتما – اسم جمال مبارك.. إن الشيء الذي يحيرني هو: كيف لهم أن يراهنـوا على واحد مثلي أو واحد آخر دون أن يعلمـوا أن مرشـح الحزب الوطني سيكتسح لا محالة؟.. فمن المؤكد أن الأمـر سيصب في النهاية لصالح مرشح الحزب الوطني.. فعنـدما تحتدم المعركة وتبدو شكلاً وموضوعا أنها معركة حقيقيـة، وليست هزلية فإن نتائجها ستحظى بكل احترام في الـداخل

والخارج.. إذن فإزاحة أحمد منصور ليس المقصود به سوى بعثرة التضامن الذي كان من الممكن أن يحظـى بـه هـذا الرجل من طبقة المثقفين.. فرغم أنه لا يعد من الأدباء أو من المبدعين في مجالات الشعر والقصة والمسرح، إلا أن كتابه التاريخي المثير لفت إليه الأنظار، وتبلورت شخصيته لـدى الأوساط الأدبية بأنه السياسي المثقف الـذي يحمـل قضـية مصر على كاهله.. سياسي ينشر الليبرالية في نفس الوقـت الذي ينادي فيه بالقومية المصرية، كمـدخل هـام وحتمـي لقضايانا العصرية.. وصارت مقالاته السياسية تحتل الصدارة في أغلب الصحف، كما صارت مداخلاته الهامة في الحوار السياسي الذي يدور عبر الفضائيات، تأخذ حظها من الترتيب مع أصحاب البرامج..

هل لمح الأمريكيون عمق مشروع أحمد منصور؟.. هـل وصلهم مغزى ما ينشده من استخدامهم في رحلته؟.. نظرية الراكب المركوب كما أسماها مفتاح الصاوي؟..

هل تبين لهم ظهور نظرية واضحة المعالم احتشـد لهـا صاحبها يغذيها ويتغذى بها، وينشرها لمن حوله، وسط ركام

النظريات الشاردة، والبـرامج الضـالة المضـللة لمختلـف الأحزاب.. أحزاب المقاعد البلاستيكية..؟

هل تملكتهم المخاوف من تصاعد نوع من الفكر القـومي الذي من الممكن أن يجتمع حوله طبقة الصفوة من المفكرين والمثقفين، الذين يحملون قضية مصر ويحلمون بحل عصري لها؟..

هل ساءهم أن يأتي حلّ من الداخل عبر شخصية جـديرة بإنجاح هذا الحل.. وهم يريدون فرض نظريتهم الغائمة لكل المنطقة.. نظرية الإصلاح اللقيطة؟..

وهل ما يقومون به الآن يتمشى مع ما قاموا به سابقًا من إفساح الطريق لإعلان هذا الحزب؟.. وكيف لم يئدوا الحزب في مهده إذا كانت قد تملكتهم منه المخاوف؟..

هناك (ملعوب) غامض أخذوني فيه تكئة.. ولعلهم اقتنعوا بما قالوه عني من إنني (استمرأت السيناريو وراق لـي مـا يحدث) صحيح.. هذا صحيح.. من منا لم يحلم يومـا بـأن يكون رئيسا لحزب؟.. فربما يدفعه هذا الموقع إلـى الموقـع الأعلى.. الموقع المقدس.. موقع رئيس الجمهورية..؟..

من منا لم يأخذه الغيظ ذات لحظة وراح يصب نقمته على ما يراه أمامه من ظلم وفساد وتمنى في قرارة نفسه أن تتاح له الفرصة أن يكون هو الحاكم ولو لشهر واحد ليضرب بيدٍ من حديد على أيدي الظالمين والفاسدين؟..

إنه الحلم الذي يعبر مخيلة المرء منا دقائق معـدودة ثـم يتلاشى.. ولابد له أن يتلاشى.. لأنـه مـن المسـتحيل أن يتحقق.. ولكنهم وضعوا الحلم أمامي مجسما.. ودفعـوني أن ألهث خلفه لأقبض عليه لحما حيا بين يدي..

إنهم ومنذ أوهموني بهذا المقعد العالي.. ومنذ أن وضعوا بين يدي كل الإمكانيات الخيالية لاستمالة الأعضـاء السـتة لضمان أصواتهم.. ومنذ وجدت نفسي أستقبل شخصا جديـدا داخلي.. شخصا يرتدي ثوبـا مغـزولاً بخيـوط العظمـة والوقار.. شخصا ينشد امتلاء الروح والنفس بما يتناسب مع مقعده المأمول.. منذ هذا التاريخ وأنا أحلم..

أحلم بالعدالة.. كيف أكون عادلاً كعمر بن عبـد العزيـز وجده عمر بن الخطاب؟..

أحلم بالبطولة.. كيف أكون بطلاً مثل " نيلسون مانـديلا " وعبد الناصر؟..

أحلم بالتواضع والحكمة.. كيف أكون كذلك مثل الماليزي مهاتير والشيخ زايد؟..

أحلم بالجسارة والذكاء.. كيف أكون كذلك مثل الأمريكي كلينتون؟..

أحلم كيف أكون الخليط المناسب من كل هؤلاء..

أحلم باقتفاء أثر كل منهم في نجاحاته..

وأفعل نفس ما فعله..

يكفيني أن أضع يدي على عمق تجاربهم وأرسل رسـلي إلى دولهم، وأجلب مستشاريهم إلى مؤسساتي..

لم يخلق بعد الحاكم الذي يفهم كل القضايا، ويقوى علـى حلها بقبسٍ من فكره.. وإذا ما اعترف الحاكم بـذلك؛ فلـن يعيبه هذا الاعتراف بقدر ما سيدفعه إلى إحاطة مقعده العالي بمقاعد أخرى كثيرة، لعباقرة يحاورهم ويسترشد بفكرهم في كل المجالات.. قالوا إن كلينتون كان محاطًا بأكثر من مائـة مستشار.. أما ما يردده الوزراء في مصر من أنهم يسيرون حسب توجيهات السيد الرئيس؛ فهذا هو اللؤم بعينـه.. فهـم يقولون للناس علنًا إنهم لا يتبعون أفكارهم بل أفكار القيـادة العليا.. ولكنهم مستعدون أن يقولوا همسـا - إذا لـم تـأت

الأفكار بثمارها -: ماذا نفعل.. وهذه ليست أفكارنا..؟ ولـذا فقد أصبح أوضح ما يقرؤه الناس في فكر وزرائهم هو أنهـم بلا فكر.. وبلا إبداع.. السياسي منهم والتكنوقراطي قبله.. يا أخي: اعطني فكرة حتى أثق أن رأسك لم يتعطل بعد.. أحمد منصور فكّر في موضوع الجدار العازل على حدود ٦٧ بين مصر وإسرائيل.. إنها فكرة تدل على أنه يعمل عقله في حلِ لتبعات اتفاقية كامب ديفيد.. من الممكـن أن أقبلهـا أنـا.. وترفضها أنت.. ولكنها جديرة بالتأمل..

أوه.. عدنا إلى أحمد منصور.. وفِكْر أحمـد منصـور.. والتوجس الذي يحمله الأمريكان من شخصية هذا الرجـل.. لعلهم يعلمون عنه أكثر مما نعلم نحن.. وما يعلمونه حتما لا يلقى ارتياحهم، ولذا فهم حريصون على إزاحته مـن الآن.. (ألم أقل إنه ملعوب غامض أخذوني فيه تكئة)..

ومع هذا فأنا التكئة.. وأنا الأراجـوز.. وأنـا اللاعـب الملعوب.. والراكب المركوب.. والمأخوذ إلى المجهول.. و (خيال المآته) الذي يخيف الطيور.. الباحث لنفسه عن مكان في حاضر العصر والأوان.. لن أخجل أن أُسـتخدم مـادام سيدي هو سيد الكون.. لن أخجل أن أُعتصـم مـن الغـرق

عندما أعتلى جبلاً شاهقًا اسمه أمريكا فكل أهل الخلـيج بـه يعتصمون.. وعلى قمته يلبون.. وأصبحوا يطلقـون اسـم " بوش " على مواليدهم الذكور..

كل من حولي لا يعرف نهاية طموحي.. لا يعرفون إنني كنت (الواد بلية) في ورشة حقيرة في حلوان ثم أصبحت (مستر إمـام) الذي يتحدث الإنجليزية بطلاقة، كرئيس لقسم الصيانة في شـركة (كاتربلر) بجنوب أفريقيا.. وكان ينضوى تحت لـواء رئاسـتي مهندسون خواجات إنجليـز وأمريكـان يعـاملونني بكـل أدب واحترام.. احتراما لعقليتي.. وليس لشهادتي وثرائي.. جئت منطلقًا إلى مصر فعطلني الظلم وأوقف القهر حالي.. كنت حاضنًا حلمي وهم يتآمرون ضدي في خيمة القبيلة الظالمة.. كنت أبحـث عـن شيء فضاع مني كل شيء..

إنها فرصتي التي لن أسمح بضـياعها.. إنهـا الدرجـة الأولى من سلم طويل آخذ في الصعود.. سـلم لـن تضـله أقدامي حتى لو كنت أجهل أين وجهته.. وليس لي أن أسـأل عن وجهته.. لأني الراكب المركوب.. الراكب المستمتع الذي يحمل جرسا له رنين... ليفسح له الناس الطريق كلما سمعوا الرنين..

* * * *

(محادثة تليفونية عبر القمر الصناعي)

واشنطون : مستر كلارك نائب مدير C. I. A

جاردن سيتي : نائب السيد سفير U. S. A / ج. م. ع

القناطر الخيرية : المعلم إمام إمام..

واشنطون : يمكنك أن توقظه الآن.. لقد تركناه يـنعم بقسط من النوم، بعد عودته مهموما، من عند الفلاح العنيد (الدسوكي).. قمنـا باسـتغلال فارق التوقيت لكم وله، حتى تهنأوا بـبعض النوم..

جاردن سيتي : نشكركم على هذه اللمسة الرقيقة، خاصـة وأننا في السفارة واجهنا بالأمس يوما شاقـا في العمل.

واشنطـون : نعلم ذلك فزيارة (إياد علاوي) لمصـر لا تخلو من المتاعب..

جاردن سيتي : والمخاوف أيضا يا سيدي..

واشنطون : المخاوف ظهرت في بغداد.. بعد أن خطفوا أحد أعضاء السفارة المصرية..

جاردن سيتي : إنها غلطة رئيس الوزراء الجديد، الذي تسرع بإعلان موافقة مصر على إرسال قوات إلى العراق..

واشنطون : يبدو أنه لا يملك حنكة السياسيين..

جاردن سيتي : سمها يا سيدي براءة الأكاديميين..

واشنطون : الحقيقة أنهم يضعون مصر في موقف حرج..

جاردن سيتي : مستر (نظيف) هو الذي فعل ذلك..

واشنطون : لكنه عاد فنفى ما صرح به..

جاردن سيتي : تقصدون أنه أنكر ذلك..

واشنطون : أجل.. أجل..

جاردن سيتي : الإنكار عند العرب له أهمية التصاريح نفسها..

واشنطون : عموما.. ألم يحن الوقت بعد لإيقاظ رجلنا النائم؟..

جاردن سيتي : حالاً..

كان إمام إمام غارقًا في أحلامه، التي وجـد نفسـه فـي آخرها فارسا، يمتطى حصانًا عاليا علـى رءوس الأشـهاد، والذين ازدحموا حوله، ولم يكـن يملـك لتفـرقتهم، سـوى استخدام جرس يبعث به رنينًا متقطعا من آن لآخر.. وكانت رنة الجرس في آخر المنام، هي نفسها رنة التليفـون التـي أيقظته من النوم..

صحا فلم يجد لا النـاس ولا الزحـام ولا الحصـان ولا الفارس.. إنه الرنين المتواصل.. وفتح التليفون..

جاردن سيتي : مستر إمام.. أنت عرفتني بالطبع..أحـدثك من السفارة ومعنا في اجتماع على الهـواء، ومن واشنطن نائب مدير الـ C. I. A هـو يسمعنى الآن مثلك تماما..

واشنطون : هالو مستر إمام.. لعلك قلق منـذ زيـارة الأمس، لهذا الذي يدعى (دسوكي).. واضح أن صوته ليس في جيبك.. هل أنت واثق من الخمسة الآخرين؟..

إمام : أنا قلق من ناحية المساح عـزت رمـزي كامل، لأنه رفض أن يقسم بالمسـيح حتـى أطمئن أنه لن يتخلى عني..

جاردن سيتي : ولكنه وافق على الاتفاق، واسـتلم منـك المال.

واشنطون : مادام الأمر هكذا.. فما فائدة القسم؟..

جاردن سيتي : سيدي.. إنه نوع من التأكيد والتوثيق، الذي يحتمي فيه أحد الطرفين، مسـتخدما رهبـة الدين لضمان وفاء الطرف الآخر بما تعهـد به..

واشنطون : تقصد أنهما أدخلا ا معهما في الصفقة..

إمام : تقريبا.. ولكنه رفض.. عزت رفض..

جاردن سيتي : إذن فلماذا أخذ الأموال؟.. اك الحق في أن تخشى جانبه.. والآن يجب أن تعثروا علـى حل..

إمام : لقد فكرت في حل يا سيدي وهو أن نعطل عزت رمزي وعبد الكريم الدسـوقي مـن الذهاب إلى جلسـة الانتخـاب.. وتصـير

الأصوات الصحيحة تسعة.. منهم خمسة لصالحي.. وأربعة فقط لصالح أحمد منصور..

جاردن سيتي : أنت يا إمام تؤكد أنك سياسي فعلاً مادمت تجيد التآمر.. التآمر جزء هام من السياسة.. لا سياسة بدون تآمر.. إنه حل مقنع يا مستر كلارك.. هل توافق على أن نقوم بتنفيذه..

واشنطون : شرط ألا تُستدرجوا إلى جريمة.. هناك عشرات الأسباب التي تمنع وصول الناس إلى أعمالهم في مصر.. فأنت لا تستطيع منع الشرطي من اصطحابك إلى قسم الشرطة للتحري عنك وبدون سبب أو مقدمات.. كما لا تستطيع أن تقنع سائق الأوتوبيس بأنه لا علاقة بين مسار الأوتوبيس في عرض الطريق، وإصراره على السير به في نهر النيل.. أما أن تجد نفسك وقد تسلمت سريرا في المستشفى لتضميد جراحك لاختلاف وجهة نظرك عن

وجهة نظر سائق التاكسي العملاق في دفـع الأجرة فهذا يرجع لسوء حظك لأنك أوقفـت هذا التاكسي بالذات.

هل فهمتني؟..

عموما أرى أن تترك هذا الموضوع لمسـتر إمام فهو كفيل بترتيبه.. وأنـت يـا مسـتر إمام..

هل تسمعني؟..

إمام : أجل.. أجل..

واشنطون : عندما تنجح فسوف نرتب لك رحلة إلـى أمريكا، لترى الحلم الأمريكي لأول مرة في حياتك، وسوف تعود مندهشًا من نمط الحياة عندنا.. صدقني.

إمام : أشكرك... أشكركم.. أشكركم..

* * * *

(٥)

" سر الحفرة التي بها المال "

وجاء اليوم المشهود..

وتتابع حضور المجلس..

كان إمام هو أول الحضور..

ثم تبعته الدكتورة راوية التي ما إن دخلتُ عليهما محييا، حتى نهضتْ مستأذنة من إمام لتنتحي بي جانبا، في حـديث يبدو أنها لم تشأ أن يسمعه سواي..

قالت لي متسائلة:

- هل وصل إلى سمعك ما قام به هذا الرجل – وأومـأت ناحية إمام برأسها– من اتصالات ببعض الأعضاء.. حتـى ينتخبوه؟..

قلت لها:

- لم يصلني.. ولكنه أفصح أمامنا أنه سيفعل ذلك.. مـا الغريب في هذا الأمر؟.. رجل يدعو الناخبين لانتخابه..

قالت لي:

- يدعوهم شيء.. ويقدم لواحد منهم رشوة شيء آخـر.. وهذا يجعلنا نشك أنه رشا الآخرين.. أو على الأقل حاول أن يرشوهم..

سألتها:

- أي نوع من الرشوة؟.. إنها بداية سـيئة.. هـل أنـت متأكدة مما تقولين؟..

قالت:

- جاءني فيكتور عبد المسيح، وأثناء حديثه معي فهمـت منه أن يجهز لمشروع دار نشر، ولم يقل لي أكثر من ذلك.. وفي أثناء جلسته معي جاءته مكالمة على تليفونه المحمول.. وتسرع وهو يستقبل المكالمة؛ فحيا محدثه قائلاً:

- أهلا يا أستاذ إمام.. ولكنه بعد التحية التي كشف فيهـا اسم محدثه، صار في حرج كامل في الرد على أسئلة إمام.. وصار يتحدث بالرمز والتمويه بكلمات فهمت منها؛ إن " إمام " يتحدث عن دار النشر، وعندما زاد تعثـره فـي الحـديث وأصبح واضحا لي ومكشوفًا، بادر بإنهاء المكالمـة واعـدا "إمام إمام " أنه سيحدثه في وقت آخر.. وكنت أتوقع أن يبلغه

سلامي أو يعطيني التليفون لأسلم عليه إلا أنه لم يفعل ذلـك ولم يذكر لـه أنه في ضيافتي..

- وما علاقة إمام بدار النشر؟..

- اضطر فيكتور بعد المكالمة أن يعترف لي أنه يشـارك إماما في هذا المشروع..

وراحت الدكتورة راوية في وقفتها البعيدة عن إمام تسرد لي تفاصيل ما حدث، وكيف أنها لمحت في حديث فيكتور ما يشير إلى أنه ارتبط بشكل ما مع المعلم إمام في علاقـة مـا تنبئ عن أنه سوف يتحيز له ويمنحه صوته فـي انتخابـات الرئيس.. وراحت توضـح لـي، كيـف أن فيكتـور راح يراوغها، ويهرب من هذا النوع من الأسئلة التـي تحاصـر كاتبا وأديبا وإنسانًا مهموما بالثقافة، وقضـية مصـر، بـل وقضية العالم العربي الذي يعتبره غارقًا في التخلف، وأبعـد ما يكون عن الحضارة..

كانت أسئلتها لـه تنتهي إلى سؤال مفزع: كيف يكون هذا حالك في نقد المجتمع غير المتحضر، ثم تتحيـز فـي أول اختبار حضاري لك إلى رجل ليس من الفخـر أن تختـاره رئيسا لحزبك، لمجرد أنك اشتبكت معه في علاقة ماديـة؟..

وكان أن فاجأها فيكتور بأنه مجرد واحد من ستة أعضاء يحتمل أن يكون قد مر عليهم إمام، عارضا خدماته، وطالبا تعزيز موقفه كمرشح لرئاسة الحزب..

وأثناء الحديث جاء فيكتور قادما من بعيد في أول الصالة الفسيحة، التي أحتل أنا والدكتورة راوية مكانًا قصيا على كرسيين بها..

وجدت نفسي دون تفكير أشير له، وأدعوه بيدي أن يأتي إلينا..

عرج فيكتور على إمام فصافحه مسرعا إلا أن إماما أمهله لدقائق بث له فيها بعض الكلمات في أذنه هامسا.. وما إن أصبح فيكتور أمامنا حتى بادرته بسؤال مباغت:

- أنت ستعطي صوتك للمعلم إمام..؟..

رد مسرعا:

- أجل.. وماذا في ذلك؟..

سألته:

- وهل هو الجدير برئاسة الحزب أم الأستاذ أحمد منصور؟..

أجاب:

- ربما يكون هو.. أو الأستاذ أحمد منصـور.. مـن يدري؟.. كلاهمـا فـي نظـري جـدير.. أو همـا متساويان.. وإن كنت ترى أن الأستاذ منصور يتميز بميزة أدبية أو ثقافية أو سياسية، خاصة بعد صـدور كتابه الشهير، فإن ذلك في نظـري لـيس الفـارق المهول بين الرجلين.. لأن إمام إن لم يكن قد قدم لي كتابا؛ فقد أسس لي دار نشر بكاملها..
- وهل هذا هو الفارق في نظرك؟..
- ليس فرقًا بقدر ما هو إشارة إلى أنه رجل عملي، لا يتحدث ويرغى قدر ما يفكر وينفذ.. هل تسمع عـن الرئيس (لولادي سيلفا)..

رحت أعصر ذاكرتي، حتى أتذكر ذلك الاسم فأسـعفتني راوية:

- إنه رئيس البرازيل الحالي..

فبادر فيكتور بتوجيه سؤال واحد لكلينا:

- وماذا تعرفان عن هذا الرجل المعجزة؟..

وبما أنني لم أكن في الأصـل مهتمـا لا بالبرازيـل ولا برئيسها الذي يقول عنه فيكتور إنه معجـزة فقـد التزمـت الصمت.. صمت الجاهل بالطبع.. ولكن راوية التـي تـدمن قراءة الصحف والمجلات بشكل مرضي قالت:

- هذا الرئيس تسلم الحكم في البرازيل منذ عامين فقط، ولكنه استطاع أن يخرج بها من عنق الزجاجة، بعد أن كانت تفاقمت أزمتها الاقتصادية إلى حد الجوع.. قبل توليه الرئاسة..

فأكمل فيكتور:

- يعني إنه صاحب فكر وقد ظهر ذلك جليا، عنـدما دعا إلى إنشاء صندوق عالمي لمقاومة الجوع، يـتم تمويله من خلال فـرض ضـريبة علـى مبيعـات السلاح.. أو بتحويل جزء من الديون المستحقة على الدول الأشد فقرا لصالح هذا الصندوق، ووقف فـي وجه أمريكا، عندما رفـض تقـديم تنـازلات فـي مفاوضات تحرير التجارة العالمية لصـالح الـدول الغنية..

قاطعته:

- O. K واضح أنك مؤمن بـه وبما فعله.. المهم مـا الذي جعلك تتذكره الآن..؟..

رد على الفور:

- معجزة حياته.. المعجزة التي صنعها لنفسـه.. هـذا الرجل لم يحظ بأي قدر من التعليم.. ولا الاهتمـام.. وعمل ماسحا للأحذية.. وعمل " صبي ميكانيكي ".. تماما مثل المعلم إمام.. واشتغل عاملاً بمحطة خدمة للسيارات.. وظهرت مواهبه عندما انضـم للنشـاط النقابي.. وحقق نجاحا كبيرا.. وصار نقابيا مشاكسـا عندما دافع باستماتة عن الحرية وعن الديموقراطيـة في مواجهة نظام الحكم القمعي.. وعندما وصل إلى الحكم قام بتشكيل حكومي عبقـري فـأتى لـوزارة المالية باثنين من رجـال صـندوق النقـد والبنـك الدوليين، وأتى باثنين من أصدقائه من أتباع المفكـر الثائر (شي جيفارا) كمستشارين لـه.. لقـد حـرك الاقتصاد وحرك قطاع الصناعة المنهار ليعيد تشغيله بنسبة ٨٥ % من طاقته التشغيلية وحقق معدل نمـو

٦,٥ % في نصف العام الحالي.. وبلغت صـادراته ٤٤ مليار دولار.. وحقـق مليـون فرصـة عمـل للبرازيليين.. با عليكم.. لو كان الناخب البرازيلي سطحيا وتافها وناقش المرشح (لو لا دى سيلفا) مـن منظور أنه من قاع المجتمع، وأنه صبي ميكـانيكي سابق أو ماسح للأحذية.. هل كـان يعـرف حجـم الخسارة التي ستلحق به فيما لو تحيز لهذه المقاييس المتخلفة؟.. التخاف هو أن تحمل أفكارا متخلفة.. أن تكون سجين التابو.. مدفونًا فيه.. ومـدفونًا فيـك.. (سيلفا) هذا قال لن أضع نفسي تحت رحمة صندوق النقد الدولي الذي لن يهتم بمشكلة موت أطفالي مـن الجوع، ولا بتكدس العاطلين عندي.. كما أنـه لـم يضع نفسه تحت رحمة أمريكـا، وأصـبحت لديـه خلافات جذرية مع أمريكا علـى صـعيد السياسـة والاقتصاد.. ومع ذلك فهو يعلن بدبلوماسية أنه يجب أن يتعايش مع الرئيس بوش.. دون أن يقنعه بتبنـي أفكاره، بنفس القدر الذي لا يستطيع هـو أن يحمـل أفكار بوش.

أعجبني هذا التقرير العاجل عن هذا الـرئيس المجهـول بالنسبة لي.. وحملت في نفسي تقديرا عاليـا أتـى سـريعا لشخص فيكتور الذي استطاع تقديم وجهة نظره في شخصية إمام عبر الحديث عن شخصية أخـرى، تحمـل قشـورها الخارجية نفس لحاء شجرة إمام.. وهو في عرضه لإنجازات هذه الشخصية يريد التأكيـد علـى أن موضـوع الزعامـة والنجاح فيهما لا يحمل أي مقاييس من تلك المتعارف عليها، ولكنه نجاح له مقاييسه الخاصة، التي لا يمكـن للمـرء أن يتوقعها سلفًا، ولا يمكن أن يأتي نتيجـة خطـى مرسـومة مقدما.. ولكنها تـأتي من ذائقة المبدع المخترع الفنان، الذي يحس بوجع ناعم في وجدانه.. وجع كطلـق الحامـل التـي توشك على الوضع.. الوجع الذي يؤكد قرب الولادة.. هكـذا يكون السياسي النبيل.. والثائر الفاضل.. وحبذا لو أتى هـذا الثائر من قاع المجتمع.. وحبذا لو أتى من صفوف الفقراء.. فمن جرب استخدام الملعقة الذهبية، لا يمكن بـأي حـال أن يحس بآلام أصحاب الملاعق الصاج أو الخشبية.

أخذتني الحيرة.. ووجدت أن إماما لم يخلط أوراق اللعبـة فحسب، ولكنه على وشك أن ينسف اللعبة كلها..

لحظتها توجهت بسؤالي المباشر إلى فيكتور:

- من هنا فأنت تراهن على شخصية إمام الذي يمكنه أن يكرر شخصية البرازيلي (لولادي سيلفا)
- لم لا..؟.. (أجابني باقتضاب)..
- إذن فهيا بنا..

وتحركت إلى مدخل الصالة، حيث كان قد وصل باقي الأعضاء.. أحمد منصور، وبرفقته مفتاح الصاوي، الذي لاحظت أنه لم تصدر عنه حتى الآن إحدى ضحكاته المجلجلة.. ثم صباح.. فنورا.. فحمدي عبد الباسط.. وظللنا نتجاذب أطراف الحديث، نحن التسعة في انتظار عبد الكريم الدسوقي وعزت رمزي كامل، حتى يكتمل النصاب بأحد عشر عضوا..

نظر أحمد منصور في ساعته ثم قال:

- من الممكن أن نجرى الانتخابات الآن بهذا العدد.. ولكن إمعانا في الشفافية؛ فمن الممكن استخدام بنود اللائحة، والانتظار ساعة كاملة نُدير بعدها الانتخابات في الساعة الواحدة..

هتف إمام:

- طالما أن النِصاب أصبح قانونيـا الآن.. فلمـاذا لا نجري الانتخاب؟..

لم يرد عليه أحمد منصور ولكنـه يمـم وجهـه ناحيـة الدكتورة راوية..

- إذن نجمع الأصـوات.. مـن يوافـق علـى إدارة الانتخاب الآن يرفع يده..

رفع إمام يده.. ثم نورا.. ثم صباح.. ثم فيكتور..

هتف أحمد منصور:

- أربعة مقابل خمسة.. إذن فلننتظر..

لاحظت أن إماما اقترب من حمدي عبد الباسط، الذي لـم يرفع يده، وراح يحدثه حديثًا هامسا بوجه محتقن.. لقد ضاع همسه، وتبدد وسط الحديث المتصاعد من الحضور..

لقد أحسست أن هذا التصويت السـريع العفـوي جـاء " كبروفة " للتصويت المرتقب.. وأن نورا وصباح وفيكتـور كان من الواضح أنهم في ميزان إمام.. أمـا حمـدي فمـن الواضح أنه في ميزان أحمد منصور.. وإلا فلم بـادر إمـام

بتعنيفه بصوت هادئ.. هل كان بينهما اتفاق ما، وتخلى عنه حمدي؟..

لقد كانت عقارب هذه السـاعة المهلـة ثقيلـة وبطيئـة وموجعة، ولم يخفف من طولها تلك السياحة الكلامية التـي تأخذنا على غير هدى.. وكان الشيء المشترك بيننا كلنـا أن عيوننا جميعا متعلقة بالباب في انتظار دخول عبـد الكـريم الدسوقي أو عزت رمزي.. وما إن يفتح الباب حتـى تقفـز نظراتنا نحوه، ثم تعود أدراجها، إذا كان الداخل هـو أحـد السعاة يحمل شايا، أو أحد الموظفين يحمل أوراقًـا لأحمـد منصور..

لم يتبق سوى دقائق خمس..

مضت الدقائق الخمس..

أصبحت الآن الساعة الواحدة..

احتللنا مقاعدنا حول المثلث المقدس..

تحركت ضلفة الباب إلى الداخل..

هتف أحمد منصور بالساعي أن يغلق الباب، ولا يسـمح بدخول أحد من الآن فصاعدا..

أكملت " ضلفة " الباب دورتها إلى الداخل، وبدلاً مـن أن تبرز رأس الساعي كما توقعه أحمد منصور، بـرزت رأس عزت رمزي كامل الذي دخـل مسـرعا ولاهثًـا ومكفهـر السحنة..

- لا مؤاخذة يا أستاذ.. تأخرت بعد أن نجوت من حادثة..

هتف إمام إمام:

- لا صوت لك.. حضورك غير قانوني..

رد عليه أحمد منصور:

- توقيعاتنا على الكشف لم تكتمل بعـد.. ولـم نبـدأ الإجراءات بعد.. حضوره قانوني..

أدار إمام بصره حوله كمن يستنجد بمنقذ.. فـأدار أحمـد منصور بصره مثله ولكنه مصحوب بسؤال:

- أتحب أن نستفتي الحضور في ذلك؟..

قال إمام إمام مستسلما:

- لا داعي.. اتفضل..

قام بتوزيع الأوراق أحد المشرفين على اللجنة وهو أحـد ثلاثة قضاة جاءوا من قِبل لجنة الاحزاب للإشـراف علـى المعركة، وضابطي شرطة يجلسان خارج القاعة بجنودهما..

كانت استمارة التصويت صغيرة الحجم، حتى إذا تم ثنيها مرتين أصبحتْ في حجم علبة السجائر.. وتحتوي خـانتين.. خانة لاسم أحمد منصور، وخانة لاسم إمام إمام.. والمطلوب وضع علامة (صح) أمام الاسم الذي تختاره.. وكانت هنـاك مجموعة أقلام من نوع واحد أمام القاضي، والمطلوب منـك أن تتسلم استمارة وقلما، وتتحرك بعيدا لتضع علامتك، وتثنى ورقتك، وتضعها في الصندوق.. وقد تم التصويت في أقـل من ربع ساعة..

كان القاضي دمثًا وظريفًا فراح يلطّـف الجـو بـبعض النوادر، قبل أن يحمل صندوقه الصغير ويتحرك نحو المائدة المثلثة، التي بها مقعد خالٍ هو مقعد عبد الكـريم الدسـوقي، الفلاح الذي غاب فشغَلَنا غيابه..

أفرغ القاضي الصندوق، لتحتل الورقات العشـر مكانهـا على المنضدة في انتظار فرزها.. وكانت أمام القاضي ورقة بيضاء خالية، إلا من اسم منصور واسم إمـام حيـث كتبـا متباعدين.. وراح القاضي يفتح الأوراق ورقة ورقةً، مناديـا باسم المتمتع باختيار صاحب الورقة المجهول.. وراح يضع علامة (صح) أسفل اسم أحمد منصور ثلاث مرات متوالية،

قبل أن يظهر اسم إمام في المـرة الرابعـة حيـث تـنفس الصعداء، وقد كاد ييأس من وصول اسمه.. ثم توالى اسـمه بعد ذلك ثلاث مرات ليصبح أربعة مقابل ثلاثة.. ثـم ظهـر اسم أحمد منصور مرتين متتاليتين ليصـبح خمسـة مقابـل أربعة.. وأصبحت الورقة الأخيرة هي الفاصـلة، فأمسـكها القاضي بتأنٍ زائد عن الحد، وهو يلقي ببعض الطُرف تلطيفًا للجو، وقد كان يفعل ذلك وهو موقن أن أعصاب كل فريـق مشدودة إلى الحد الذي لم يجد أثرا لدعاباته بل كان الاستثقال لهذه الدعابات هو الشعور المعتمـل فـي النفـوس، دون أن يدري هو بذلك.. فهذه الورقة ستُعطي لأحدهما الفوز برئاسة الحزب.. أو تعطي لهما التعادل لو جاءت باسم إمام.. وهـذا ما حدث كان هذا الصوت لإمام..

ران الصمت على الجميع.. لم تسفر المعركة عن فائز من المتسابقين.. تعادل الطرفان.. قام إمام في حركة لا شعورية وراح يتمشى بعيدا قرب النوافذ، وهو يشعل سيجارة ويلتهمها في نهم.. لقد كان يعيد الحسابات.. ويبحث عن المتسبب.. " فالأصوات الخمسة هي: نورا وصباح وفيكتور وهـو.. إذن فمن الخامس؟.. إما حمدي عبد الباسط.. أو عـزت رمـزي

كامل.. من المؤكد أن عزت هو الخائن ولم يعطه صـوته.. ولماذا لا يكون حمدي عبد الباسط هو الخـائن ولـم يعطـه صوته؟.. أليس هو الذي جهر بمنع صوته فـي الاسـتفتاء المعلن، الذي أداره أحمد منصور لاستبيان رأي الحضور في عقد الانتخابات بتسعة أفراد، أو يتم الانتظار لاكتمال العـدد إلى أحد عشر؟..

لو كان حمدي وافق على الإسراع بالتصويت لكان الأمر قد اختلف وأصبح التصويت لصالحي: خمسة مقابل أربعة.. إذن فحمدي عبد الباسط هو الخائن.. ولكن حمدي كان حتى الأمس يبدي سعادته بمشروع الجمعية التي تأسست وصارت واقعا ملموسا.. كيف له أن يدير ظهره للرجل الـذي وهبـه ذلك الكيان الحلم؟..لا.. لا يمكن لحمدي أن يخونه.. إذن فهو عزت رمزي.. لأنه حصل على المال، ورفض أن يقسم على الإخلاص لاتفاقه معي.. كونه لم يقسم هو الدليل على أنه لم يخلص.. إذن فهو لص.. أخذ المال دون مقابل.. ماذا أفعـل معه؟.. لا شيء سوى مطالبته بالعشرة آلاف جنيه..

نادوا عليه..

تحرك نحو المنضدة التي يتحلق حولها الجميع..

قالوا له إنه تم الاتفاق على إعادة الانتخاب، وتوجيه دعوة رسمية للمجلس للانعقاد لهذا الغرض، بعد خمسة عشر يوما من اليوم..

حسبها بسرعة..

سيأتي عبد الكريم الدسوقي.. وسيكون صـوته فاصـلاً لصالح أحمد منصور.. من الأشرف لي الانسحاب وتزكيـة أحمد منصور.. ولكني لن ألقي بهـذه الورقـة بالمجـان.. سأطلب المقابل.. ولابد أن يستجيبوا لي..

قال لهم:

- التعادل أمام أحمد بك منصور شرف كبير لي.. وإذا كان هذا التعادل كافيا لإقناع أحمد بك، إنني رجل ذو حيثية ولي أصواتي التي تعززني، فهل يسمح له هذه الأمر أن يجعلني نائبه؟..الواقع أن شرفي سـيزداد، وسأعلن لحظتها أنني تنازلت له..

قال له مفتاح الصاوي مستفزا:

- ولماذا لا تعلن تنازلك أولاً..؟

رد عليه إمام:

- ولماذا لا أحظى بشرف اختياري أولاً.. أم أنك تريد أن تكون النائب..؟

أسرعت الدكتورة راوية قائلة لإمام:

- ما لم تعلمه إنني التي كنت سأحظى بهذا الشـرف.. ولكني أتنازل لك عنه تجميعا لصفوفنا ودرءا لخطر تفرقنا..

بدت ابتسامة خفيفة على جانب فم أحمد منصور، وانتظر حتى تهدأ الأصوات ليقول كلمته:

- لن أتنازل عن الدكتورة راوية كنائبة.. وأنا أرفـض فكرة التنازل التي عرضها المعلم إمـام.. ولكـن إذا قلتم لي إنه انسحب من الجولة القادمة؛ فسوف أوقف عملية الانتخاب.. ولاحظوا أنها لن تتم هـذه المـرة بنفس الأعضاء الحاليين، ذلك أننـا سـنختار مـن الكشوف ستة أعضـاء جـدد، يمثلـون الأعضـاء المتجددين للشهر القادم..

أُسقط في يد إمام إمام.. وتهـدل فكـه.. وزاغ بصـره.. وأحس بجسامة مهمته القادمة في الإعادة.. فقد اتضح لـه أن من اشتراهم من الرجال والنسـاء، كـانوا غيـر صـالحين

للاستخدام التصويتي سوى لشهرٍ واحد.. فكيف له أن يبدأ من جديد في ضم ستة أعضاء لا يعرفهم إلى صفه..؟.. كيف له أن يبدأ في دراسة حالة كل شخص على حده، ويتعرف على مداخله ونواقصه ليدخل إليه منها..؟.. وكيف له أن يضـمن عدم انتشار فضيحة ما يفعله - بعيدا عن العيون - من شراء ذمم الناخبين..؟ " من المؤكد أنهم جميعا سيتحدثون من الآن وبعد سقوطي وسيكون حديثهم في أول الأمر همسا.. ثم يعلو ويعلو متجاوزا الهمس إلى الصياح.. "

عاد فقال لنفسه: (الآن فقـط عرفـت خطـورة التجديـد الشهري لأكثر من نصف أعضاء المجلس الرئيسـي.. الآن فقط عرفت مصيبة الركود الذي يجلب العفن.. صـحيح أن الضرر لحق بي، كأول ضحية لهذا النظام، ولكنه في صالح المنظومة كاملة.. والآن: ليس لي سوى أن أعلن انسحابي.. و......)

جاءه على عجل تليفون لاهث: " لا تنسحب.. سندبر لـك أمر الأصوات الجديدة.. مازلنا نـراهن علـى شخصـك.. وبرنامجك.. وسياستك القادمة.. لا تيأس.. خـض المعركـة الجديدة بنفس الجسارة "

أُسقط في يده.. وتدلى فكه.. وزاغ بصره مرة أخـرى.. فكر ألا يستجيب لهذا النداء الورطة.. تذكر شـقيق زوجتـه السرية وتهمته الخطيرة بالتخابر مع إسرائيل.. التهمة التـي من الممكن أن تلحق به هو شخصيا فـي لحظـات إن لـم يستجب لتوجيهاتهم.. فهو يأوي جاسوسا في منزله، ويقتـرن بشقيقته اقترانًا غير معلن يثير الشبهة قبل أن يثير التساؤل..

عاد مرة أخرى فقال لنفسه:

- أنا قادم على فضيحة لا محالـة.. فضـيحتي سـتكون مزدوجة.. إن لم تأتِ على يد من يحركونني.. فسوف تكون على يد من أُحركهم.. ما الذي يريده منى هؤلاء النـاس؟.. أين أنا من خطةٍ ألمحها ولا أعرف تفاصيلها؟.. لعلـي سـن صغير في ترس كبير سيدور، ولن أملك لنفسي وقف دوراني معه.. الأمريكان يصنعون الزعامـات ويثبتـون الملـوك.. ويهزون العروش.. إنهم يسجنون الرؤساء، بل يدمرون دولة كاملة في سبيل القبض على رئيسها، لأنه لـم يخضـع لهـم ولإسرائيل.. الواقع أنني مجرد بند في خطـة طويلـة.. أو مجرد ممثل صغير يلقي كلمات قليلة في رواية طويلة بطول التاريخ، وعريضة بعرض الجغرافيا.. القذافي تخلـى عـن

ثوريته واستسلم راضيا.. لم يستطع أن يصمد أمام العواصف العاتية والريح الآتية.. ما الذي يريدونه لمصر؟.. هـل هـم واثقون أن فكرة توريث الحكم لن تنجح؟.. هل قـرأوا مـن الآن مصاعب السيناريو القادم؟.. وما داموا يبحثون عن بديل فلماذا لم يتجهوا مباشرة إلى أحمد منصور؟.. هل هم واثقون أنه عنود ومشاكس، مثل حصانه الجامح، الذي يعلـو كـل لافتات وأوراق الحزب، ثم الشعار المكتوب (إن قلت كلمتك لا تمض).. إن الرسم والكلمات ليدلان دلالة قاطعة أن هـذا الحزب ولد ليعيش.. وسيعيش لينـاكف.. وسـيناكف حتـى ينسلخ من طاحونة أمريكا التي تطحن عظام من يـدور فـي فلكها.. لقد حكى لي فيكتور عن رئيس دولـة بـدأ حياتـه " صبي ميكانيكي " مثلي.. بل لعلي كنت أسعد منـه حـالاً؛ فوالدي لم ينجب ٢٥ طفلاً مثل والد (لولادي سيلفا) رئـيس البرازيل.. ووالدي لم يهرب مثل هروب والده، ويتركنا على قارعة الطريق.. أبي هاجر من مصر إلى اليونان، وتـزوج هناك بعد أن طلّق أمي.. تركنا ولدين وبنتًا واحدة.. صـحيح أنه لم يتعلق بنا.. ولكني تشبثت به.. وصحيح إنني تجرعت الألم، وكان عزائي إنني أعيش مع الأمل.. وإذا كان العذاب

هو الذي شكّل عبقرية الرئيس البرازيلي، فإنه نفس العـذاب الذي شكّل طموحي، وجعلني أنتقل بمجهودي الـذاتي فـي التعليم من شاب يقرأ العربية بتواضع، إلى رئيس قسم يقـرأ ويكتب ويتحدث الإنجليزية بطلاقة.. الإصـرار هـو الـذي شكلني.. وإذا كان هؤلاء الأمريكان بحثوا ودرسوا وتقصـوا حياتي وحللوا شخصيتي فمن المؤكد أنهم وضعوا أيديهم على ما يؤكد صلاحيتي.. ويعطي الأمل في تكويني.. وبالتالي في أدائي.. أدائي الذي سيكون..

صحا على صوت أحمد منصور، يعلن أسماء اللجنة مـن الأعضاء المتجددين: امـرأتين.. ومسـيحيين.. وعامـل.. وفلاح.. الذين سيشاركون في تولي دفة الحكم من أول الشهر القادم.. وراح يتابع كل اسم وما يتبعه من وظيفة..

- سناء عبد الموجود المحمدي مدرسة إعدادي
- عطيات إبراهيم أبو دياب ربة منزل
- ألبرت فهمي عازر تاجر جملة
- سامح لطفي أبادير مدرس ثانوي
- عبد العزيز مرسي جابر بحار بوزارة الري
- حلمي محمد أبو عكاشة مستأجر أرض من مصلحة الأملاك

لقد رأي أنه من الصعب أن يجد مدخلاً لرشاويه إلى هذه التشكلية العجيبة من الوظائف.. فكيف يرشو تاجرا أو مدرسا أو بحارا أو ربة منزل..

لعنة ا   عليكم أيها الأمريكان.. كيف ستدبرون لي أمـر الأصوات الجديدة.. ألا يكفي ما خسرتموه فـي الأصـوات القديمة.. (كيف صارت قديمة ولم يمض على تصويتها سوى ساعات قليلة؟..).. تلك هي أمور السياسة الكـافرة التـي لا ترحم.. لا مفر.. ليس لي سـوى الانسـحاب.. لـيس مـن المنافسة على الرئاسة فقط.. بل من الحـزب بالكامـل.. لا أعتقد أن هذا المناخ المليء بالتآمر والعصبية هو نفس المناخ الذي خاض به (لولادي سيلفا) معركته أو معاركـه النقابيـة حتى وصل إلى الرئاسة.. لا.. من المؤكد أنه خاض ما هـو أدهى من ذلك.. فلقد فهمت من فيكتور أنه حتى في تشـكيل حكومته، بث فيها شخصيات تنتمي إلى العصـابات، التـي كانت تحارب الأمريكان مع (شي جيفـارا).. إذن فالساسـة المحترفون يتحالفون مع الشياطين، حتى يصلوا إلى بغيتهم.. يفعلون ذلك وهم في طريقهم لتولي السلطة.. ويفعلون أيضـا ذلك وهم على رأس السلطة..

" ما لي أنا وما لهذا الأمر الجلـل؟.. لـيس لـي سـوى الانسحاب.. ليس لي سوى الانسحاب.."..

اقتحمه مرة أخرى التليفون اللاهث ذو اللكنة الإنجليزيـة المتسارعة (اسمع منا ولا ترد علينا.. أوراق البنكنوت التـي دفعتها إيجارا لمركز صباح لمحو الأمية ولجمعية حمدي عبد الباسط لرعاية الحرفيين، ولدار نشر السيد فيكتـور، تقـوم إدارة مكافحة التزييف بتتبع مصدرها.. فقد ثبت لهـم أنهـا مزيفة.. حتى أوراق البنكنوت التي دفعتها لعـزت رمـزي، وخبأها في حفرة عثر عليها فلاح مسكين، وقبضـوا عليـه ووجدوه بريئًا، وهم يتربصون الآن بجوار الحفرة للإمسـاك بمن يأتي لاسترجاع خبيئته.. يمكنك إرسال عـزت رمـزي لاستعادتها، حتى يلقى جزاء خيانته لنا.. لا تقلق.. يمكننا حل هذه المشكلة التي تورطت فيها.. كل مـا هنـاك يجـب ألا تنسحب)..

اقترب إمام من عزت كامل وهمس له:

- الحفرة التي دفنت فيها الفلوس هل كانت في مـأمن من اللصوص؟..
- وكيف عرفت ذلك؟..

- بنفس الطريقة التي عرفت بها أنـك خنتنـي، ولـم تعطني صوتك..
- لقد أسرعت خلفك، ولم ألحق بك لأعطيك أموالـك، حتى لا أبيع لك شرفي في مقابلها..
- إذن.. اذهـب الآن واحضـر لـي مـالي قبـل أن أفضحك..
- سآتي لك به.. ولن تأخذها قبل أن تعترف لـي بـأن السائق الذي عزمني على توصيلة بسيارته كان مـن طرفك.. وكانت مهمته منعي من اللحاق باللجنة.. إنه ضحية التصادم الذي افتعله حتى أرقـد معـه فـي المستشفى.. هو الآن يرقد بمفرده..ولكـن يبـدو أن السائق الآخر نجح في إرقاد عبد الكريم الدسـوقي؛ فقد أدى تصادما مروعا، وليس خفيفًا مثل سـائقي.. لقد شاهدت الدسوقي محمولاً إلى المستشفى مع سائق آخر.. لا أظنها صدفة..

جذبه إمام بعيدا وراح يحدثه بهدوء، بعد أن لون حديثـه بمسحة من الدفء والشجن..

- اسمع.. سأترك لك المـال.. ولـن أؤاخـذك علـى خيانتك.. كل ما أرجوه منك أن تحتفظ بكـل هـذه المعلومات لنفسك.. ثق أنني أراقبك كـأني أعـيش معك.. وإلا ما كنت قد عرفت سر الحفرة التي بهـا المال.. هل تشك في كلامي؟..
- الحقيقة.. لا أشك في كلامك.. فأنت شيطان.. ولـو كنت قد أخذت فرصتك في رئاسة الحـزب.. فكـان لابد أن يعدل اسم الحزب إلى: حزب الشيطان..

* * * *

(٦)

" أنت الخوذة الصدئة التي نقوم بتلميعها "

أمسكوا به وهو ينقب عن خبيئته في جرف متهايل علـى حافة النيل.. ارتعد وهو يشاهد في أيديهم الغلاف البلاستيك، وبداخله المظروف الذي لا يخفي عليه شكله.. قال لهم أنـتم من عند الشيطان.. أنتم شياطين مثله.. سألوه أن يصف لهـم شيطانه الآثم.. قال لهم: له سمت النساك وما هـو بناسـك.. وهدوء النبلاء وما هو بنبيل.. وشهامة الفرسان وهو حقير.. يبيع القيم والمبادئ في سـوق الرقيـق.. ويشـتري الـذمم والضمائر كما يشترى النِعال.. ولذا فهو يصـبو أن يكـون رئيسا.. ومصيبتي إنني لم أختره.. ألقيت برشوته في التراب حتى ألقى بصوتي آمنًا في بحر الـذهب.. اختـرت أحمـد منصور.. هزني أن أسمع من أحمد منصور هذا حديثا طيبا عن الأقباط وأنهم أصل المصـريين.. وهزنـي أن يتسـع برنامجه لهم بالقدر الذي يتسع لاستيعاب آمالهم.. وهزني أن ينادي بحذف خانة الديانة من البطاقات التي لم يطرأ عليهـا

تغيير منذ العهد العثمانلي لأن الخانة التي لا خلاف عليها هو أننا جميعا أبناء مصر.. أموالكم معكم فردوها إليه.. اتفقـت معه أن يحفظ كل منا سر الآخر.. ما أسوأ أسراره وما أتعس سري!..لقد أبعدني ضميري أن أبيع صوتي وكلمتي.. ولكن قربني طمعي أن آتي إلى هنا بإغراء من الشيطان.." أجل.. سوف آتي معكم "..

وذهب عزت كامل إلى حيث لا يدري.. ذهـب وشـبح زوجته يطارده وينادي عليه:

- ما الذي فعلته يا مجنون؟..

* * * *

وكان عبد الكريم الدسوقي ممددا فوق سـريره، ونحـن نحيطه بكل الحب.. أحمد منصـور – مفتـاح الصـاوي – الدكتورة راوية.. وأنا..

والرجل حزين من أجل السائق الطيب الذي التقطه حبـا وشهامة من على بعد أمتار من منزله..

- إلى أين يا حاج؟..
- إلى القناطر..
- أنت في طريقي.. تفضل..

- يا ا .. لماذا يموت الطيبون.. لا أدري كيف انحرف فجأة نحو شجرة عتيقة.. الشجرة كانت على يساره.. وكان هو أقرب ما يكون إلى مركز الاصطدام فمات متأثرا بجروحه..

كان عبد الكريم الدسوقي دمثًا وكتوما، إذ كان قد قرر ألا يفصح عن الزيارة المريبة، التي جاءه فيها المعلـم إمـام ليساومه على صوته.. آثر الرجل أن يحتفظ بهذا السر فـي صدره.. فلا أحد يعلم ما الذي ستـأتي به الأيام..

وماتت كل الأسرار.. إلا سر أوراق البنكنوت المزيفـة.. لقد راح إمام يحوم حول من صرف لهم هذه الأموال متشمما أي خبر حول مصيرها.. ولما لم يجد أي أثر لما قيل لـ ـه عن رصد وتتبع رجال المكافحة لخط سيرها أيقن أنه ضحية كذبة أرهبه بها الأمريكان.. خاصة عندما تذكّر أن الأمـوال السائلة الوحيدة التي تلقاها منهم مباشرة، هي أموال المسكين عزت كامل أما باقي المدفوعات؛ فقد كان يصرفها من البنك بشيكات.. يا إلهي.. كيف لم يخطـ ـر ذلـك علـى بـالي إلا الآن؟.. اللعنة أيها الشياطين..

قال لهم:

- الضحية في هذه الجولة شخص واحد..

قالوا له:

- نحن لا نهتم بالضحايا.. من لا يستطيع أن يدفع عـن نفسه شبح الموت.. فليمت.. نحن نحب القوى اللئيم.. وتأمل بنفسك من مِن الملوك العرب عاش طويلاً، حتى انتقل مـن العرش إلى القبر.. إنهم الأقوياء اللئام..

قال لهم:

- لا أدري لماذا كنت مهزوزا ومرتبكـا، وأنـا أعلـن استمراري في المنافسة على الرئاسة.. لن أنسى نظرة أحمد منصور النارية التي صوبها نحوي..

قالوا له:

- أحمد منصور مازال يتملّكه الإعجاب بك.. كل ما هناك أنك خدشت هيبته بعض الشيء.. إنه قوي وعنود وقـد رآك كذلك في مواجهته.. القوي يأنس في خصومته لقوي مثلـه.. ما أكثر الأقوياء الذين فرطوا في حقوقهم – نبلاً - لخصـوم ضعفاء!..

سألهم:

- بالله عليكم.. لماذا لم تراهنوا على هذا الحصان المضمون؟..

قالوا له:

- ومن أدراك أنه حصان مضمون؟.. إنه مِلْك نفسه.. ومن الصعب أن نمتلكه.. الروس لم يراهنوا على السادات عندما أحسنوا قراءته.. أراحوه بمعاهدة ألح عليها وهم يعلمون أنه يغازل أمريكا.. يغازلنا.. وعندما دهسهم في الوقت المناسب أيقنوا أنهم كانوا على حق.. وأنه مجرد فرعون لئيم جاءهم من وادي الملوك على عجلة حربية قوامها المكيدة وظاهرها المسكنة..

سألهم:

- وأنا؟..

قالوا له:

- أنت الخوذة الصدئة التي نقوم بتلميعها.. أنت الأسنان المعوجة التي نقوم بتقويمها.. أنت الثعبان الذي لا يعرف كيف ينفث سمه.. والشيطان الذي يبدو للناس ملاكًا.. والعاصفة التي لن يقرأ الناس موعد هبوبها، إلى أن تهب.. أدخلناك في أجهزتنا الحاسبة العملاقة.. وبعد مليارات

الحسابات المعقدة التي لم تستغرق إلا دقائق قليلة أتـت لنـا بخبرٍ عنك عظيم.. فأنت تملك أدوات النجاح والفـلاح فـي عبور بحر السياسة المـتلاطم.. أنـت " لـولادي سـيلفا " المصري.. و" أردوغان " المصري.. وكلاهما يحمل تاريخًا ذا نشأة مزرية.. " سيلفا " كان يغسـل سـيارات البكـوات بقروش.. وأردوغان كان يبيع السميط للمارة بقروش.. مـن منهما وهو في عز تورطه في جلب ما يقتات به كان يحلم أو يعلم بمكانته القادمة؟.. إنها السياسة.. وإنه وإن كان قد عـز عليهما أن يعملا على ازدهار طفولتهما، لم يألوا جهدا فـي تحقيق ازدهار مشرق لحياة الأطفال في أمتهما..

وتريد أن تنسحب؟..

قال لهم:

- كلنا إلى انسحاب قـادمون.. ضـعوا فـي حاسـباتكم العملاقة ما تضعون.. فجمال مبارك هو الـرئيس القـادم لا محالة ومهما كنتم معترضين..

قالوا له:

- قف عند هذا الخط.. ليس مسموحا لبـوز حـذائك أن يلمسه.. وحتى لو حدث هذه وتولي جمال الرئاسة، ألا يكفيك

أن تكون على رأس أقوى أحزاب المعارضة؟.. ألا ترى أنك من الممكن أن تكون في أي وقت على مرمـى حجـر مـن كرسي الحكم؟..

قال لهم:

- قلتم عني ووصفتموني بأنني سأكون " لولادي سـيلفا " البرازيل في مصر.. أو " أردوغان " تركيا في مصر.. ألـن يقول الناس عني إنني "كرزاي" أفغانستان في مصر؟.. فأنا الحاكم المصنوع والتابع غير المتبوع؟..

قالوا له:

- أليس كل حكام العرب الحاليين سوى مجموعـة مـن الكرزايات الموضوعة..؟.. أشر لنا على واحد مـنهم لـيس كرزاي؟.. ومع هذا فهم الكرازايات، الذين سرقوا عروشـهم في غيبة من شعوبهم وفي غيبة منا.. وأسوأ ما نجحوا فيـه أنهم تمكنوا بقوة البطش بالشعوب، والتـذلل لنـا أن يظلـوا طوال هذا العمر فوق كراسيهم وعروشهم..

آن الأوان أن تختار الشعوب " الكرازايات " الذين نصنعها لهم.. وآن الأوان أن يقوم كل " كرازاي " بدوره المزدوج.. دور الديموقراطي الحنون مع شعبه.. ودور التابع الآمن لنا..

ويجب أن تفهم أننا لا نصبو إلى الإمساك بالعالم بين أصابعنا عبر حكام نصنعهم فقط، ولكننا نصبو إلى الإمساك بالشعوب نفسها.. ولعل في تجربتك الصغيرة خير دليل على منهجنا.. إن حزبكم الوليد أرسى قاعدة حضارية لا ندري كيف توصلتم إليها وهي أن يشارك الشعب في الحكم فعلاً لا قولاً.. فالأعضاء الستة المتجددون شهرا بشهر ليسوا سوى الشعب الذي يجلس على منصة الحكم، ويأخذ المشاركون منهم دورهم في رسم السياسات، ووضع القواعد وإرساء الأفكار.. ولك أن تتأمل ما حدث.. فغياب عزت كامل عن التصويت كان سيدفع بك إلى الرئاسة.. وحضور عبد الكريم الدسوقي للتصويت كان سيدفع بأحمد منصور إلى الرئاسة.. تأمل قيمة صوت واحد قبطي هنا.. مقابل قيمة صوت فلاح مسلم هناك.. لقد نجحتم في إعطاء القيمة الحقيقية لصوت كل واحد في حزبكم.. لأن كل عضو في الحزب سيشارك في الحكم ذات شهر من شهور السنة..

قال لهم: إذن فتجربتي الصغيرة بالنسبة لكم استمدت أهميتها من أنكم تمارسون فكرة شراء الشعوب؟.. كنت ومن معي حقل تجارب صغيرا لديكم..

قالوا له:

- لقد اشترينا لك شعبك.. دعنا من صوتك.. واسأل نفسك هل كان لك الحق في الحصول على صوت نـورا الفلاحـة وصباح الأخصائية، وحمـدي العامـل وفيكتـور المـدرس الأديب؟.. هذا خليط نادر من أبناء الشعب.. كيف دانوا لـك بالولاء؟.. هل لسواد عينيك؟..أم لبهجة برنامجك؟.. لا.. أيها الرئيس المنتظر.. إنه المال.. مالنا.. والتخطيط.. تخطيطنا.. صحيح أنك لم تنجح بسبب استعصاء حالة واحـدة.. وهـذا وارد.. ولكن أول ما كسبناه هو تعرفنا علـى روح شـعبكم الجديدة.. وسوف نتعرف على المزيد من ذلك عندما تخوض معركتك الثانية مع الأسماء الجديدة.. كنت ستسـجل غلطـة عمرك إذا كنت قد انسحبت.. كنت سـتوقف معملنـا عـن العمل.. لقد اضطررنا إلى تهديدك حتى نتمكن من مواصـلة قراءتكم.. لن يتوقف عشرات الموظفين في إداراتنا فجأة عن العمل لأنك تريد ذلك..

قال لهم:

- وصلني التهديد.. ولسذاجتي داخلتني الرهبة وانطلـت علي قضية الفلوس المزيفة، لأني لم أتذكر إلا مؤخرا أننـي

سحبتها من البنك ماعدا ما تسلمته منكم من أموال سائلة تلك التي عصفت بعزت كامل..

قالوا له: وفلوس البنك..؟.. هل تظن أنها ليست مزيفـة.. أنت واهم.. فنصفها مزيف.. يا سيد إمام.. اعذرنا عن هـذا القول الآتي: في مثل حالتك لابد أن نحذر.. ولابد أن نمارس معك لعبة الحمار والجزرة.. افهم ذلك من الآن حتى ترتـاح وتريح..

....

....

" يا ولاد الكاااااااالب.. "

قال ذلك بعد أن أسقط السماعة في مرقدها على جسم التليفون..

* * * *

(٧)

" إن لم تنتخبني فستدخل السجن "

هذه المرة كانت الفكرة أن يجمعهم جميعـا فـي مكـان واحد.. حفل تعارف بسيط حول منضدة لامعة تطـل علـى حمام سباحة، تتلألأ مياهـه الزرقـاء بأضـواء الكهـارب المنسكبة.. والمنضدة حافلة بالأطعمة الخفيفة والمشـروبات البريئة براءة نظرات الفلاحة عطيات أبو دياب التي تلتهم في دهشة كل ما يحيط بها من مرئيات..

لقد اختاروا لـه - أو اختار لهم - هذا المكـان الفسـيح المبهج في فندق دريم.. واختاروا لـــه - أو اختـار هـو لضيوفه - هذا الميكروباص المكيف الذي مر علـيهم فـي بيوتهم فردا فَردا ليلتقوا بمرشحهم الذي وجه دعوتـه لهـم بالمرور على منازلهم للتعرف عليهم آخذًا في توجيـه هـذه الدعوة.. ثم اختار أن يجلس بين السيدتين سـناء المحمـدي المدرسة ذات الجمال الهادئ، والصوت الرزين وعطيات أبو دياب الفلاحة التي راحت تعلق بعفوية على كل ما يروق لها من بشر يتحركون خاصة الفتيات اللاتي يلبسن المايوهـات

حول الحمام، ويتمددن بطول الكنبة المرتفعـة قلـيلاً عـن الأرض.. كان إمام يداعب عطيات، ويطلب منها أن تتصـل به، كلما راق لها أن تزور هذا المكان الجميـل الـذي مـن الواضح أنها مبهورة بجماله.. ولكنه اكتشف أن لهـا رأيـا آخر.. فهذا المكان " مسخرة ".. " هو يعني الراجل والسـت دول مفيش عندهم صبر لما يروحوا بيوتهم.. "..

نظر بجواره ليرى المنظر الذي أزعجها، واكتشف أن لها الحق في الانزعاج.. تسلل بها إلى حديث سيؤدي بـه إلـى حديث آخر حول انتخابات الحزب..

- زمان قالوا لعبد الناصر الستّات مـش حشـمة فـي الشوارع.. وأنت السبب.. قال لهم السبب هو الأصل يا حاجة..

ردت بسرعة:

- أيوه يا بنى.. ا يرحمه.. البيت هو الأصل..
- طيب إذا كان عبد الناصر معرفش يصلّح احنا بقـى اللي حنعرف؟..عليه العوض يا حاجة.. كل حاجـة باظت..
- بإذن ا أحمد بيه حيصلح..

سألها:

- أحمد بيه مين؟..

- أحمد بيه منصور..

أفهمتها سناء الجالسة بجوارها وعلـى وجههـا البـريء بعض الخجل أن الأستاذ إمام مرشح لرئاسة الحـزب ضـد أحمد منصور..

- يعني أحمد بيه مش هو الريس؟..

عادت سناء فأفهمتها أن هذا يرجع لنصيبه، وحظـه فـي الانتخابات.. فردت عليها:

- انتخاب إيه وكلام فارغ إيـه؟.. أحمـد بيـه هـو الريس..إبراهيم ابني لما قاللي أنا رايح حزب أحمـد بيه قلت له لازم تاخدني معاك..

وتخطت موضوع الانتخاب والترشـيح ولـم تعطـه أي أهمية، وكأنه أمر مسلم به ذلك الذي استقر عليه رأيها، ثـم راحت تحكي لهم عن ولدها إبراهيم الذي كـان يعمـل فـي إحدى شركات الحكومة، ويقومون بتفجير الجبل (بالدلاميت) وآخر النهار يأخذ معه في صندوق السيارة الدلاميت المتبقي من عهدة اليوم.. المباحث كانت تفتش السيارات للقبض على

الإرهابيين ومسكوا إبراهيم بالصوابع اللي في الصـندوق.. حكموا عليه ظلما بالسجن ١٥ سنة.. لولا أحمد بيه " هتهـت الدنيا وطلّعه براءة ".. وعلى ما أفرجوا عنه كانـت عنيـه انعدمت من العياط.. ا يخليه.. أحمد بيه..

يئس منها عندما اكتشف أنها حالة مستعصية على الفهـم والتفهيم والتفاهم.. فهمس لسناء بخفة دم:

- دي خلاص.. أحمد بيه لازق هنا (وأشار إلى مخـه) بغرا..

ردت سناء بهدوء:

- ولها حق طبعا..

سألها هامسا مستغلاً انشغال الآخرين في أحاديث جانبية:

- انت تعرفيها؟..
- لأ.. بس اعرف أحمد بيه..

اعتدل في مواجهتها ولسان حاله يقول:

" وإيه حكايتك انت كمان؟.. "

- تعرفيه إزاي؟..
- قريبي..

(سقط قلبه بين ضلوعه) وهي تكمل:

..... ابن خالة أمي..

هذه المرة لسان حاله يعلق:

- (يا نهار منيل بستين نيلة)

وراح يعطيها أذنه وهي تكمل كلامها:

- وعلى فكرة هو عارف بالمشـوار ده.. وقـال لـي روحي.. إنت حره في صوتك..(وكمـان عـارف.. وقال لك روحي.. طبعا ما هو راجـل ليبرالـي).. خالي أحمد بيه ما يحبش يغصب على حد (يا بنـت الإيه.. وإيه لزوم الكلام ده؟.. عاوزة تقولي إن أنـا باغصب عليكم..)..

التقط كلامها المقدس ألبرت عازر تـاجر بقالـة الجملـة الشهير، الذي تخلى عن ملابسه المتواضعة، التي يراه بهـا الناس في متجره الفسيح.. ويبدو الآن في بدلة فخيمة، وعلى رأسه فاروقية مدببة الركنين لامعة، بدا من أسفلها جزء مـن شعره الفضي الناعم.. لقد احتشد بهذا القدر الهائل من الأناقة وهو يتحرك لهذا اللقاء الهام احتراما للدعوة وصـاحبها.. إن ما يبدو من مظهره أنه جاء طاعة وحبا واحتراما..

وماذا عن جوهره؟..

راح يقول تعليقًا على حديث المدرسة سناء..

- أول مرة أعرف أن أحمد بيه خالك..
- مش خالي لازم..
- مش مهم.. معرفته نفسها تدعو إلى الفخر.. ما بـال قرابته؟..

ثم توجه بالحديث إلى إمام بشكل مهذب وهادئ:

- على فكرة يا سيد إمام.. وصلنا أن حضرتك كنـت على وشك التنازل أمام أحمد بك..

وتوقع الجميع أن يكمل الرجل سؤاله هكذا:

- لماذا تخليت عن هذه الفكرة؟..

ولكن ألبرت عازر الحصيف لم يكمل سؤاله، وتركه يكمل نفسه بنفسه أمام الناس.. وعندما لاذ بالصمت.. كان قد أعلن صمته أن الدور على إمام ليضع الإجابة علـى سـؤالٍ لـم يطرح.

قال إمام:

- لائحة الحزب تنص على إعطاء الفرصة لثلاثة لخوض معركة الرئاسة.. أو اثنين على الأقل.. لقد أردت في بـادئ

الأمر الحفاظ على الشكليات الديموقراطية.. وامتدت رغبتي إلى ما هو أبعد من الشكليات..

وتوقف إمام عن المزيد من التوضيح.. وكان من الواضح أنه يتحدث وهو سارح ومشغول، ولا يبدو أنه مستعد للإفاضة.. ومن المؤكد أنه كان يعيد حساباته، بعد تأكده أنه فقد الآن وللتو ثلاثة أصوات: المرأتين وواحدا من المسيحيين.. ومعنى هذا أنه أصبح خارج المنافسة، وهو الحريص على جمع الناس لتعزيزه، وأن أحمد منصور ينافس بقوة، رغم عدم حرصه على جمع الناس وبث الدعاية لنفسه بينهم..

تنحنح بحار إدارة الري عبد العزيز جابر، ويمم وجهه شطر إمام قائلاً:

- في قلبي كلمة.. لو حبستها ستؤلمني.. ولو قلتها ستؤلمك..

ناداه حلمي أبو عكاشة الفلاح الجالس في صمت منذ وصوله:

- طلّعها.. طلّعها.. وإلا تموت يا عبد العزيز..

التفت عبد العزيز إلى الفلاح قائلاً:

فيه حديث عن الرسول صلى ا عليه وسلم يقول:

(إنكم تحرصون على الإمارة.. وإنها حسرة وندامة يـوم القيامة، إلا من أخذها بحقها)

وأنا شايف يا أستاذ إمام إنك حريص على حاجة مش من حقك..

تصدت عطيات أبو دياب لحديث الرجال، وقاطعتهم عندما راق لها أن تقدم لهم عبد العزيز مرسي جابر كما تعرفه هي:

- عبد العزيز ا يبارك له من بيت عِلْـم.. جـده ا يرحمه الشيخ جابر كان أزهري وعالم كبيـر فـي المنطقة.. الكتب عندهم خزاين خزاين.. عبد العزيز هو اللي بيخطب الجمعة عندنا على طول..

وكأنما راق لعبد العزيز جابر هو الآخرِ أن يؤكد ما تقوله عطيات، وأنه ليس بحارا، قدر ما هو متبحر في العلم فقال:

كان الرسول صلى ا عليه وسلم يمنـع الإمـارة ممـن يحرص عليها، وكان يقول (إنّا لا نولّي من سألنا) حتى أنـه قال لأبي ذر الغفاري وكان قد طلبها (إنك ضعيف.. وإنهـا أمانة)

وكانت فرصة للمدرسة سناء عبد الموجود قريبـة أحمـد منصور أن تعزز خالها في غيابه..

- وبصراحة يا أستاذ إمام، مش معقـول النـاس دول يروحوا لك ويسيبوا أحمد بك.. وادي انت شـايف.. هي أمانة كبيرة.. ومتآخذنيش إنت ضعيف عليها..

أحس بدخان ساخن يتصاعد من وجهه.. وكان صـمته هو الاختيار الوحيد والأمثل.. فماذا يقول في مواجهـة تلـك الحملـة المؤدبـة التـي لسـعت جلـده بسـياط التأنيـب والاستخفاف؟.. كيف يواجه كل هذا العدد من المعارضين؟..

- " ليتني وافقت على الانسحاب..

ليتني وافقت على الانسحاب "

اعتدل سامح لطفي أبادير مدرس الرياضيات بالمـدارس الثانوية ووضع ساقًا على ساق.. وربت براحته خفيفًا علـى ركبته وهو يتهيأ لقولٍ من عنده فهو الوحيد الذي لم يتحـدث حتى الآن.. ربما آثر الصمت والاستماع حتى يتعرف علـى رأي الجماعة..

- الكلام اللي الأخ عبد العزيز قاله على لسان الرسول صلى ا عليه وسلم هو الكلام المثالي.. ولأنه مثالي

فمش ممكن يمشي الأيام دى.. أيـام زمـان كانـت المناصب محدودة والناس معدودة.. ومفيش حاجـة اسمها ترشيح وصناديق انتخاب ودعاية كـل واحـد فيها يعلن عن نفسه علشان الناس تعرفـه.. الـدنيا اتغيرت.. وعشان كده الرسـول قـال " أنـتم أدري بأمور دنياكم " والسيد إمام يشكر لأنه وضع نفسه في هذه المسئولية، ونتمنـى أن يكـون قصـده طبعـا مصلحتنا وتدبير مصالحنا مش يعمـل زي النـاس التانية يكون طالب أبهه وتشريف.. خصوصـا إنـه بينافس شخص عظيم له سمعته ووضعه عنـد كـل الناس وخادم الصغير قبل الكبير..

ثم توقف لحظات قبل أن يواصل الحديث.. فاسـتطاعت عطيات أبو دياب أن تنفذ إليهم خلال هذه اللحظات، بكلمات معدودة تتمشى مع آخر ما قاله الرجل الناعم الأنيق الـذي لا تعرفه..

- إلاّ خادم الصغير قبل الكبير.. ا يبارك له..

واستطرد الأستاذ سامح:

- من حق السيد إمام أن يرشح نفسه ويعرض خدماته، ومن حقنا أن نوافق عليه أو لا نوافق.. المهم يكـون عنده برنامج.. وطبعا احنا عارفين إن الحـزب لـه برنامجه.. فهو في جميع الأحوال مـرتبط ببرنـامج الحزب يكون حريص عليه ويضيف عليه من عنده..

والتفت إليه كأنما يقول له:

- " تحدث.. لقد فتحت لك المجال.."

تنحنح إمام ثم قال:

- أنا من أنصار الفعل وليس الكلام.. الحمد   أنا في الأسابيع الأخيرة، قدرت أعمل حاجات فيها فايدة كبيرة لأهل المنطقة.. وسلمتها لناس من أعضاء الحزب يشرفوا عليها.. أول حاجة جهزت مدرسة لمحو أمية البنات المتسربات مـن التعليم وفىْ نفس المكان جمعية تعاونية لبيع المواد الغذائيـة بأسعار الجملة.. وأسسنا دار نشر كبيـرة بيـديرها راجـل محترم من الأعضاء.. وعملنا جمعيـة لرعايـة الحـرفيين العاطلين وأُسرهم بيشرف عليها واحد من أبنـاء الحـزب.. الحاجات دي كلها عملتها قبل ماحد يعطيني صوته..

واجهه تاجر الجملة ألبرت عازر بسؤال مباغت:

- والحاجات دي كلها من مالك الخاص؟..

نكس إمام رأسه نحو الأرض قليلاً قبل أن يقول:

الحمد ..

صوب المقدس ألبرت نظره نحوه بشيء من التفحص:

- إنت زمان كنت راجل غني.. من كبار أعيان حلوان.. بس انت نقلت نفسك عندنا وسكنت بالإيجار لما الدنيا اتغيرت معاك والحاجات اللي انت بتتكلم عنها دي تتكلف كتير.. كتير..

ارتعد إمام خشية أن يكون هناك من يعرف مصدر تمويل مشروعاته المريبة..

- الناس أسرار يا مقدس.. هو لازم الغني يحط يافطة على بيته إنه غني..

ويبدو أن هذه العبارة لم تقنع حلمي أبو عكاشة؛ فأسرع بإطلاق هذه الحكمة..

- عمر الغِنَى ما كان سر.. وعمر الفقر ما كان سر.. الاتنين دول ريشة على راس أصحابهم.

رفع سامح لطفي أبادير راحته اليمنى إلى أعـلا مشـيرا لحلمي أبو عكاشة أن يتوقف وقد بدا بعض الضـيق علـى وجهه..

- لسنا جهة محاسبة.. من فضلكم: لنا أن نناقش قيمـة ما فعله الرجل.. ولا نناقش كيف فعله.. وإذا كان قد فعل ذلك فله الشكر.. وهذا يثبت أنه رجـل كفيـل بالتصدي للخدمة العامة.. والأمر أمـامكم والرجـل دعاكم في هذا المكان اللطيف، لتتعرفوا عليـه عـن قرب ويتعرف عليكم.. والكلمة الأخيـرة لكـم فـي صندوق الانتخاب..

وبلباقة الدبلوماسيين استطاع سامح لطفي أبـادير توجيـه دفة الحديث إلى حديث آخر حول هذا الفندق الجميـل الـذي يجلسون في رحابه آخذًا في مشاكسة عطيات أبو دياب، التي راحت تطلق دعاباتها، وتعليقاتها الفطرية البريئة.. وعنـدما انهمكت مع من حولها تسلل سامح معلنًا عـن رغبتـه فـي التريض خفيفًا حول الحمام، وما إن سار قليلاً حتى لحق بـه إمام.. وسارا معا متلاصقين في هدوء.. وفي الوقت الـذي

كان فيه إمام يبحث عن مدخل للحديث مع هذا الرجل الهادئ العميق الأنيق، حتى بادره سامح بسؤال:

- إمام؟..
- نعم..
- فين عزت كامل؟..
- إنت تعرفه؟..
- عزت ابن عم مراتي..

وكان إمام حصيفًا فرغم الجفاف الذي لحق بحلقـه فجـأة استطاع أن يدلي بهذه الكلمات في ليونة:

- ممكن أجاوبك لما اعرف المعلومات اللـي عنـدك عنه..

توقف سامح عن السير.. والتفت إليه مصوبا إليه نظـرة حادة:

- المعلومات اللي عندي مش عنه هـو.. المعلومـات عنك انت.. انت بتلعب لعبة غامضـة وخطيـرة.. ومش ممكن تكون بتلعبها لوحدك.. انت وراك جهة أمنية.. الفلوس المزورة من عندك والسـواق اللـي ركب معاه من عندك.. والسواق اللي مات في حادثة

عبد الكريم الدسوقي من عندك.. عزت قال لمراتـه كل حاجة وهو في السجن.. وطلب منهـا تبلغنـي.. ولحد دلوقت ما اتكلمش.. انت عارف إنه جبان.. أنا لميت القعدة دى عشان أكسب ثقتك..

- فعلاً.. وأشكرك.. بس انت عايز تعرف مني إيه؟..
- انت مين؟..
- أنا واحد عندي طموح أكون رئيس الحزب..
- بأي شكل؟..
- بأي شكل..
- وبأي وسيلة؟..
- وبأي وسيلة..
- مين اللي وراك؟..
- مش مهم تعرف..
- بس الناس دول مش حينتخبوك..
- لأ.. الناس دول حينتخبوني.. وانت اللي حتشجعهم.. وانت المسئول عنهم.. والتمن بسيط جدا.. إما عزت يطلع من السجن.. أو تدخل انت السجن معاه..

تراجع سامح لطفي أبادير إلى الخلف.. وحملـق فيـه.. ولمح منضدة قريبة خالية، وحولها بعض الكراسي.. فزحف بعض الخطوات القليلة إليها ثم جلس وهو مازال محملقًا فـي محدثه..

- دا انت شيطان بقى؟..

كان إمام قد جلس في مواجهته:

- وتحرك إمام نحو مدخل الفندق تقدر تقول كده..
- ومتحالف مع شياطين؟..
- وأكثر من الشياطين بشوية..
- وإيه التمن اللي حتدفعه؟..
- كل واحد خمسين ألف جنيه..
- فلوس مزورة..
- لأ.. شيك يصرفه من البنك يوم ما انجح..
- مش مقدم يعني؟..
- لأ.. مؤخر.. وتاريخ الشيك نفس يوم التصويت..
- انت محتاج ٦ أصوات عشان تكسب..
- احنا سبعة.. أنا محتاج ٦.. لو واحد غير رأيه مـش مهم..

- وده طبعا حيصرف شيكه..
- طبعا..
- هي سناء اللي حتغير رأيها عشان قريبها..
- جايز..
- الشيكات جاهزة..
- حادخل الفندق أكتبها.. إنت مهمتك تنده عليهم واحد واحد هنا.. وتقنعهم..
- ماشي روح اكتب الشيكات..

في الوقت الذي كان فيه سامح يشير بيده نحو المنضـدة البعيدة وكان أول من شاهده هو ألبرت فهمي عازر فاستجاب لإشارته بالحضور عنده.. فذهب إليه..

* * * *

(٨)

" لا تنس أنه شيك رشوة.."

لم يكن هو نفس القاضي الفَكِـه الـذي أشـرف علـى الاقتراع الأول.. إنه قاضٍ جديد.. قاضٍ آخـر.. وبصـحبته ثانٍ.. وكان يصحبهما عدد مِـن ضـباطٍ وأفـرادِ الشـرطة يجلسون خارج القاعة..

ها هو يفرغ الصندوق الصغير من أوراقه فوق المائدة المثلثة بوجه متجهم.. وكان هذا التجهم كافيا لبـث الصـمت والترقب، ومثول طـائر التـوجس مرفرفًـا فـوق رءوس الجميع..

وها هو التجهم الحقيقي يزحف رويدا رويدا على وجه المعلم إمام.. فالأصوات كلها تتجه إلـى أحمـد منصـور، ليحصد تسعة أصوات كاملة مقابل صوتين للمعلم إمام..

راح يصوب نظراته الحاقدة نحو الناخبين الستة واحدا واحدة.. خيل إليه أنهم جميعا يشـتركون فـي إيمـاءة مـا، يرسلونها إليه رمزا.. الإيماءة تقول: أنا الصوت الثاني الذي انضم إلى صوتك.. إذن فكلها إيماءات كاذبة.. تركهم يقبلون

نحو أحمد منصور ليمنحوه قبلات التهاني.. لم يجد في نفسه القدرة على فِعل ذلك.. قواه خائرة.. جذعه مكسور يسـري فيه ألم طارئ.. أمسك جنبيه بكلتا راحتيه.. إنهـا محاولـة لتخفيف الألم القادم توا.. سار خطوات قليلة حول نفسه.. ثم سار خطوات قليلة نحو الجمع المتفجر بالفرحة.. ثـم عـاد فابتعد عنهم، وراح يدور حول نفسه من جديد..

أحسست بخوفٍ عليه وكنت أرقبه عن قرب.. تحركـت نحوه.. شاهدني قادما إليه.. واجهني بابتسامة ذابلة.. تولاني الإشفاق عليه وأنا أرى ولأول مرة شكل ابتسامة الانكسـار والسقوط.. حتى السقوط له ابتسامته المعبرة..

قلت له قبل أن أصل إليه:

- الراجل ابن البلد اللي كله نظر.. مـش لازم يبـارك لرئيس حزبه قدام الناس كلها..

قال لي بصوت خفيض به إعياء:

- أنا عامل حسابي آخد له ورد، وأروح أبارك له فـي بيته.. عارف ليه؟..
- ليه؟..

- عشان يبقى بعيد عن الناس دي كلها.. النـاس دول خدعوني..

لاحظت أنه مشغول بمراقبة شخص واحد في كـل هـذا العدد من الناس.. ثم لاحظت أنه يفتش عنه بـين الـرءوس المزدحمة.. ثم لاحظت أنه تركني دون استئذان وأسرع نحو الباب.. صوبت بصري نحو هدفه الذي يسرع خلفه، وجدته يتجه صوب سامح لطفي أبادير..

كان سامح قد تخطى الباب.. راح إمام يهدئ من خطواته - المسرعة نحوه - حتى لا يلحظ القوم مطاردته لسـامح.. جمعهما فراغ الصالة الصغيرة المؤدية إلى السـلم.. أوقفـه بنداءٍ خفيض.. توقف سامح وعلى وجهه ابتسامة أخـرى.. ابتسامة من نوع آخر.. ابتسامته تجمع بين التشفي والشفقة.. أو بين خيبة الأمل والاستخفاف..

- معلهش يا إمام.. خيرها في غيرها..
- بالبساطة دي؟..
- وأنا في إيدي إيه؟..
- إيه اللي حصل..؟..

- سيبك من اللي حصل.. كلم البنك بسـرعة يوقـف صرف الشيكات..
- هما حيروحوا يصرفوا الشيكات كمان؟..
- ليه لأ..؟ إنت مش عندك صوت غير صوتك؟..
- والصوت ده بالصلاع البني.. صوت مين؟..
- كل واحد حيقول صوتي.. أنا شخصيا متأكـد إنـه صوتي.. وكنت طالع دلوقت أصرف الشيك.. (قالها بنوع من الاختبار وجس النبض)..

كشّر إمام عن أنيابه.. وكور قبضته في الهـواء كابحـا رغبته المستفزة أن يرسلها في وجهه.. لـم يـرمش جفـن لسامح، وظل على وقفته الواثقة، وهدوئه الواضح..

- لاحظ إنك حتعمل فضيحة لو أعصابك فلتت.. إهـدا شوية.. وتعالى نتكلم بره..

وسبقه إلى السلم الذي راح يهبطه برشـاقة، وراح إمـام يهبط خلفه بتثاقل لم يكن له ذنب فيه.

راح سامح يفهمه أنه ومن يخططون له لا يفهمون الشعب المصري.. فلا يوجد في الانتخابات من يشترى الأصـوات بشكل جماعي.. ولا يوجد من يعقد صـفقة مريبـة، وغيـر

شرعية مع ستة أفراد، وكلهم يعلمون أنه من الممكن لواحـد منهم أن يتسرب من السرب الآثم.." كان لابد أن تطرح سناء عبد الموجود من الصفقة، وتحرص ألاّ تعلم عنها شيئـًا.. على الأقل كنا سنضمن بذلك ألا يعلم خالها أحمـد منصـور بتحركاتك.. ولا يتدخل لإفساد خطتك "..

- طيب ليه ما عملتش كده..؟
- أنا بانفذ تعليماتك..
- تعليماتي؟.. أنا قايل لك إنك المسئول عن الناس دي كلها.. قول إنك كنت قاصد كده.. وعملـت معايـا اتفاق، وفيه قنبلة جواه تنسفه في أي وقـت.. كـان لازم أعمل حسابي وآخذ حذري من لؤم المسيحيين..

همس سامح لطفي أبادير الأنيق الرقيق الهـادئ النـاعم لنفسه " لسه فاكر يا إمام؟.. " أخيرا فهمتها؟.. واحد داخـل على بحر السياسة، وتفوته نقطة زي دي؟.. كان لازم تعرف يا عبقري إن كل ناخب من الستة راح يحجب صوته عنـك، معتمدا على احتمال أن الباقين سيمنحون أصواتهم لك، مقابل المال ومادام صوتًا واحدا مسموح له أن يفلت.. فماذا يمنـع أن يكون هذا الصوت هو صوت هذا الناخب؟.. يبـدو لـك

الآن أن هذا الاحتمال تكرر خمس مرات.. ونلت يا مغـرور تواطؤ خمسة أصوات رغم أنهم لم يتفقوا مع بعضهم البعض على التواطؤ.. بل اتفق كل واحد فيهم مع نفسه.. وبدلاً مـن أن تبحث إذا نجحت عن الصوت السالب.. أصبحت تبحـث بعد سقوطك عن الصـوت الموجـب.. لأن هـذا الصـوت الموجب أثار غيظك أكثر.. لأنه سيمنعك أن تلعنهم جميعا في وقت واحد.. لأنك ستلعن – ضمنًا – واحدا مـنهم أخلـص لك.. واحدا لا ذنب له.. واحدا نفـّذ الاتفاق)..

أفاق سامح على إمام يمد له راحته اليمنى:

- هات الشيك..

مد سامح يده في جيبه بسرعة وأخرج ثلاثة شيكات:

- شيكي.. وشيك سناء.. وشيك الشيخ عبـد العزيـز البحار..
- ازداد غيظ إمام وراح يفكر فـي الثلاثـة البـاقين.. التاجر.. والفلاح.. والفلاحة.. فواحد منهم – بالتأكيد - أعطاه صوته.. مطلوب منه أن يعرفه.. فالمشكلة ستقع معه هو وليس مع الآخرين.. إذ إنـه سـوف يتمسك بصرف الشيك لثقته أنه لم يخل باتفاقه.. وهو

لن يسمح لـه بذلك، إذ أن الاتفاق يقضى يقضي أن يكون نجاحه هو القاضي، بصرف الشـيكات لكـل الأصوات حتى الصوت المحجوب إذا حجب...

حاول سامح أن يتسلل مستأذنًا بصـوت خافـت تفاديـا لمواجهة عاصفة، يراها ترتسم على ملامح إمام فأوقفه إمـام بجذبة خفيفة..

- رايح فين؟.. أدخل هاتلي باقي الشيكات.

توقع سامح حدوث هرج إذا استدعى الناس هنـا فـي المدخل لتسليم الشيكات.. فاقترح على إمام أن ينتظـره فـي المقهى القريب من الدار.. وكأنما قد رأى إمام أن ذلك هـو المكان المناسب، فأومأ برأسه موافقـًا ثم تهادى هابطًا السلم، وفي قلبه بعض الرضا إذ وجد سببا ملزما له أن يبتعد عـن الدار بما فيها من حفاوة، تعلو أصواتها حول غريمه أحمـد منصور.. وقطع المدخل إلى الخارج قاصدا أن يضفي علـى خطواته بعض الثبات والرزانة عندما لمح أعدادا من النـاس تقف على مشارف الدار.. لقد جـاءوا لمتابعـة التصـويت وتلمس الأخبار.. لقد أومأ إلى بعضهم بالتحية مداريا خجلـه في ابتسامة لا معنى لها.. وتحرك على الرصيف في اتجـاه

المقهى القريب متخذًا أحد المقاعد في موقع يسمح له بمشاهدة الداخلين إلى الدار والخارجين منها.. وعندما ظهـر سـامح وبجواره حلمي أبو عكاشة، متجهين إليه أيقن أنه لـم ينـل سوى صوت حلمي هذا.. إذن فالفلاح هـو الوحيـد الـذي استجاب للاتفاق، ووفي بوعده (احتـار أن يلعنـه أم يحيـي إخلاصه!!)

جاس سامح بجواره.. وجلس حلمي أبـو عكاشـة فـي مواجهته.. مد سامح يده في جيبه، وأخرج شيكين..

- اتفضل.. (وسلمه الشيكين)..

ثم أشاح بوجهه ناحية أبو عكاشة..

- الراجل ده بـ..

لم يدعه إمام يكمل جملته.. فقال محتدا وبصوت عالٍ:

- الراجل ده يسلّم شيكه.. خللوا يومكم بعدى..

ويبدو أن سامحا كان قد توقع هذا الغضب، وعمل مقدما على وقف انفجاره فمهد لذلك مع أبي عكاشة وأفهمه وهمـا في الطريق أنه لا ينبغي تطبيق المثل القائل (موت وخـراب ديار) على وضع إمام الذي خسر ولا يحق لإنسان مطالبتـه بهدية– والهدية هنا هي مبلغ الخمسـين ألـف جنيهـا.. (إذا

وجدته غاضبا، فسلمه الشيك فورا، حتى لا تدخل أنت الآخر في فضيحة.. لا تنس أنه شيك رشوة)..

وما إن أطلق إمام كلمته الأخيرة، حتى مد عكاشة يده في جيبه وأخرج الشيك وسلمه لإمام، وأدار لـه ظهره منصرفًا وتبعه سامح دون أن يلقيا عليه التحية..

سار إمام على غير هدى.. وكان هاجس الرحيل مـن هذا البلد قد طغى على فكرة الانسحاب من الحـزب.. لقـد أحرق نفسه قبل أن يحرقه الأمريكان.. كيف اسـتجاب لهـم وسار في ركابهم، طمعـا فـي اعـتلاء السـحاب؟.. وراح يتساءل: وكيف سارت الأمور بهذا السوء حتى سـقط مـن عليائه المزعوم؟.. إنهم في حالة صمت.. ولعلهم في حالـة ذهول وقد سمعوا عبر ميكروفونهم المتناهي الصـغر كـل الأحداث.. يبدو أنهم يفكرون في مؤامرة جديـدة.. ولعلهـم يخترعون جولة جديدة.. " لا.. لا مؤامرة سأخوضـها.. ولا جولة سأقطعها معهم.. ليس لهم عندي إلا دفتر الشيكات بمـا معه من شيكات محررة ومردودة.. وليحققوا لي مطلبي فـي أن أهجع في بيتي مبتعدا عن هذا الهوان.. ما الـذي كنـت أقترب منه؟.. حافة الحكم أم حافة الهاوية..؟.. ما الذي كنت

أتقدم إليه مشارف الرئاسة، أم مشارف الموت؟.. هل لمسكين مثلك يا إمام تتسلم أقدامه رصيف الضياع أن يحلم بالكرسي المقدس.. كرسي الحكم؟.. "

وجاءه صوت من داخله:

وهل كان السادات وهو يعمل تباعا علـى سـيارة مـن سيارات النقل، يملؤها على كتفيه ويفرغها بالبضائع.. هـل كان في خياله أنه سيمتلك هذا البلد من أقصاه إلى أقصاه ذات يوم؟.. وهل كان ستالين وهتلر وصدام حسين سوى بـدايات مخجلة وهزيلة مع الطفولة المتشردة والضياع السـادر فـي عهد الصبا..؟..

تذكر أنه (لضم) ثلاثة من الرؤساء المجرمين فـي خـيط واحد ودون تفكير.. وتعجب.. هل هناك علاقة بين بـداياتهم الضائعة، ونهاياتهم التي أضاعوا فيها شعوبهم..؟..

أتراك يا إمام كنت ستكون واحدا مـن هـؤلاء؟.. وهـل كسبت البشرية الآن سقوط فكرة من أفكار الموت بسـقوطك اليوم؟.. هل يعتبر هذا اليوم هو اليوم الذي تدين له البشـرية الغافية بتاريخ سقوطك..؟.. اليوم الذي سجل نهاية لابتـداء كان من الأفضل ألا يتم؟.. وها هو لم يتم..

وا إنني لألمح في داخلي بذرة تتحرك في قلـق.. بـذرة تريد أن تنمو في أي اتجاه وكل اتجاه.. هـل أسـياد البيـت الأبيض تمكنوا من التعرف عليها.. وحللوهـا وعرفـوا أي شجرة ستكون؟.. هل راهنوا على شخصي عندما وضـعوا أيديهم على نوازعي التي لم أقابلها حتى الآن..؟.. لقد كنـت وإياهم على وشك الوفاق.. كانوا سيمارسون إغراقـي فـي الأوامر والتعليمات الحريرية.. وكنت أنا سأمارس الطاعة.. الطاعة الحديدية.. والآن: لقد تنافر الحرير والحديد.. ويجب أن أعود إلى موطني.. يجب أن أعود إلى قاعي المنخفض..

* * * *

(٩)

" إذا تغابى.. فانسفوه "

السفارة الامريكية

جاردن سيتي

القاهرة

السيد النائب.......

بعد التحية:

لا يمكننا أن ندعي أن رجلنا إمام إمام لم ينفذ التعليمـات حرفيا.. لقد فعل ما طلبناه وجمع الناخبين في جلسة واحدة.. وهو بالطبع لم يفهم مغزى ذلك بالنسبة لنا وبالأحرى لم يعلم إصرار قسم انثروبولوجيا الشعوب في إدارتكم على خـوض هذه التجربة.. تجربة تقديم رشوة جماعية لمجموعة مختلفـة النوازع والثقافات من المصريين.. المصريين الجدد..

يجب أن نعود إلى اتفاقنا السابق من أن المصـريين قـد طرأت بعض التغييرات الواضحة في تصرفاتهم وعـاداتهم

وتقاليدهم، على أثر الأزمة الاقتصادية التي ضربتهم، وأزمة الثقة التي لم تنفرج حتى الآن، فيما بينهم وبين نظام الحكـم بمختلف وزاراته المتعددة.. واتفقنا مـع مختلـف إداراتنـا المهتمة بالموضوع من أن نوع الجرائم وقسوتها تشير إلـى ذلك.. وتعدد حالات الانتحار تؤكد – أيضا – ذلك.. وكـان القصد من الإبحار في سيناريو إمام إمام هو التعرف علـى مدى تأثر الثوابت الأخلاقية، لدى الشعب المصري بما غرق فيه من كساد وفقر وظلم وأزمة ثقة.

لقد عدنا إلى ما كتبه بعض العلماء عن الشعب المصـري باحثين عن العيوب التي يتمتع بها هذا الشعب، ووجدنا أنهـا عيوب تنبع من مزايا.. أو مزايا تحولت بفعل ظروف هـذا الشعب إلى عيوب.. فهذا الشعب:

- يتمادى في الصبر أزيد عن الحد المألوف..
- يقبل أكثر مما يجوز قبوله..
- مجامل إلى حد الإفراط..
- يسكت عن الجهر بالحق طلبا للسلامة..
- قليل الثقة في قدرته على التغيير..
- يستسلم لغياب الإصلاح ويقتنع بما هو عليه..

- يفقد همته طالما اقتنع بما هو فيه..
- متسامح إلى درجة يبدو فيها هذا التسامح نوعا مـن الجبن..

ولقد تعرفنا على حقائق جديدة من هذا اللقـاء الجمـاعي للناخبين الستة:

- تمسك العامة والجهلاء بالقيم العليا.. ووجدنا ذلك في تمسك الفلاحة بالوفاء لأحمد منصور محامي ولـدها الذي أنقذه من السجن.. وكما وضعوا الشـيك فـي حافظتها سحبوه من حافظتها دون أن تعلم السيدة ما الذي كانت تحويه هذه الورقة.
- تمسك المدرسة بقيمة صلة الدم فقد قلبت المائدة على خطتنا، ورفضت استلام الشيك وفاء لقريبهـا أحمـد منصور، ومن المؤكد أنها سلمته الخيوط التي حولها إلى حبال، ولفها على عنق إمام..
- تمسك البحار الفقير بروح الدين ووازع الضمير وأن ما فعله علنًا من رفض استلام الشيك قاله علنًا فـي الاجتماع مستندا إلى أحاديث لرسولهم يحفظها عـن ظهر قلب، وكلها تدعو إلـى عـدم التكالـب علـى

المناصب.. ولم تكن هناك فجوة بين ما قاله وما فعله عندما رفض استلام الشيك..

- أما الخبث الذي يتحدثون عنه، والذي يلجأ إليه بعض الريفيين؛ فقد بدا ذلك واضحا، عندما راق للفلاح أبي عكاشة أن يمسك العصا من المنتصف، ويتكئ على الهجوم الذي شنّه البحار المتدين ضد إمـام دون أن يعلن عكاشة رأيه.. وقد خُدع عندما أعطى صـوته لإمام ظنا منه أن نصف الناخبين على الأقل سـيفعل ذلك وأنه لن ينكشف.. والغريب أنه عندما انكشف لم يجبن ولم يتوار وأعلن بشجاعة حقيقية موقفه وهـي شجاعة مبررة إذ ظن المسكين أن ثمنها هـو قيمـة الشيك الثمين الذي يرقد في حافظته..
- أما المسيحيان، فقد أكـدا فعـلاً مـا يؤخـذ علـى المسيحيين في مصر، من أنهـم يجيـدون الـدهاء والمناورة.. وهذا أمر طبيعي لأناس يعانون من قلـة عددهم قياسا بالمسلمين.. ودهاؤهم نوع من أنـواع التُقية وتجنب العنف وتفادى الصدام..

فالتاجر رغم جرأته في مهاجمة إمام احتفظ بالشيك حتـى يستمتع بقيمته فيما لو نجح إمام بواسطة الآخرين.. رغم أنه لم يسع لإنجاحه..

والسيد / سامح أبادير أدار لعبة إسقاط إمام بجدارة وانتقام غير محسوس خاصة عندما وضع يده على عدم جدارة إمام بما يسعى إليه.. فوق أنه لاحظ عدم اقتناع الآخرين بتـولي إمام هذا المنصب..

لقد وقف أبادير هذا في صف المجموع موحيا لإمام أنـه في صفه.. وظهرت عبقريته في تعمده إدخـال المدرسـة - قريبة أحمد منصور - في لعبة الرشوة، وهو يعلم أن هـذه السيدة ستكون مدخل أحمد منصور لعمل تآمر مضـاد فـي الخفاء.. وللأسف الشديد فقد شربها رجلنا الذي لم يكن عنـد حسن ظننا في هذه النقطة.. وظهر لنا أنه يمـارس غلطـة السياسي البارع.. الغلطة التي تجر معها كثيرا من الـويلات (تذكروا غلطة عبد الناصر عندما أغلـق المضـايق أمـام إسرائيل قبل حرب ٦٧.. لقد رفع درجة الحرب بنسبة ١٠٠ % وكان لهذا التسرع في هذا القرار الذريعة لإسرائيل بشن حرب دمرت جيوشه ودمرت مشروعه القومي)..

وأخيرا.. يبدو لنا أن رجلنا إمام إمام قد تـولاه اليـأس.. وفترت همته وخارت عزيمته.. ولـذا فقـد أحجمنـا عـن الاتصال به، انتظارا لما يصلنا منكم من توجيه..

مع وافر التحية،،،

السفير

....

واشنطون

وكالة المخابرات المركزية

C. I. A

السيد / السفير

تحياتي:

لم تأت الرياح بما تشتهي السفن كما يقولون.. ولعلك تذكر ما تحدثنا عنه في مراسلاتنا السابقة من وعورة الشخصـية المصرية.. ولعل هذا ما يجعلنا نؤيد إسرائيل فـي خشـيتها الدائمة من المصريين.. ورغم ما توصلنا إليـه مـن كسـر شوكة هؤلاء المصريين، واستئناسهم وإظهار هوانهم علـى أنفسهم وعلى مرأى من العرب، إلا أن قوتهم الكامنـة هـي الباب الذي يجب أن نعمل على إغلاقه بإصرار.. ولعل مـا لمحناه في مشروع القومية المصـرية الـذي يتبنـاه أحمـد منصور، جعلنا نعزف عن التعاون مع هـذا الرجـل علـى المستوى الشخصي للأسباب التي ذكرناها سابقًا، من أنه من الصعب إفساده، وصعوبة تمشيه مع مشـروعاتنا القادمـة.. المشروعات التي بدأ يلمحها بعض المثقفين من تقسيم نأملـه

في السودان تمهيدا للمزيد من إضعاف مصر.. ثم ما نصـبو في المستقبل البعيد إليه، من تفتيت مصر نفسها إلى دولتـين في الشمال والجنوب..

لا أنكر أننا كنا بحاجة إلى مثل هذا " الإمام " ويجب أن نحرص على معاودة الكرة معه، أو مع من يشبهه، إذ لـيس من الممكن أن يمضي مشروعنا في المنطقة دون أن تكـون القاهرة عجينة طيعة في أيدينا.. القاهرة هي المدخل الحقيقي لكل القضايا سلبا أو إيجابا..

الليبيون ينزفون آخر ما عندهم مـن ثغـاء وتخريـف، وعندما يهلل الشعب الليبي قريبا لتنصيب ابن القذافي سنكون قد أحكمنا قبضتنا على مصر من الغـرب.. ونتائجنـا فـي القريب العاجل سوف تكون ملموسة، عندما يهدأ الغبار فـي السودان، وتثمر خطتنا عن كسر ذلـك الامتـداد التـاريخي والجغرافي الذي يتشدقون به في القطرين..

ابحثوا لنا عن إمام آخر نجهزه من الآن حتى يصبح على مشارف الحكم.. يجب أن نجهزه، حتى تكفيه دفعة واحدة منا له إلى الأمام، توازيها دفعة أخرى لآخرين إلى الخلف حتـى يتمكن.. ونتمكن..

اتركوا أحمد منصور يشق طريقه بشرعية حزبه، وعفوية وطنيته.. هنا ستبدو الديموقراطية قد بدأت في شق مجراها، عندما يتنافس هو وآخرون على مقعد الرئاسة أمـام جمـال مبارك.. وحتى لو كانت النتائج معروفة من الآن، فإن أحـد وجوه الديموقراطية الغائبة عندهم، هو عدم ظهـور حـزب معارض يجتمع الناس حوله.. يمكننا من الآن دس رجلنا في هذا الحزب على أن يكون شابا، من الممكن أن يمهله عمـره لمعركة طويلة نعدها له.. عامل السن ليس في صالح أحمـد منصور.. حتى أغلب من حوله يعانون من ذلك أيضا.. لعلنا كأمريكيين، نحمل في صدورنا الآن ما يجب أن نخفيه حتـى عن أنفسنا من نقد، لأننا تخلينا عما حرصـنا عليـه طـوال تاريخنا من احتلال الأمم بالسياسة والدولار.. وكانت تجربة فيتنام من القسوة التي كان يجب أن تجعلنا نتحاشى تكرارهـا في العراق، ولم يعد سرا أمام العالم إصرار الرئيس بـوش على هذه الحملة التي ربما تكلفه فقد فترة الرئاسة الثانية التي يحلم بها.. ومادام الأمر كذلك؛ فليس لنا إلا نبذ هذه الحملات العسكرية الباهظة التكاليف واحتضان الأداء الأمريكي الأكثر أمانًا.. وذلك بالعودة إلى التآمر السياسي والسيطرة الفكريـة

والحصار الاقتصادي والإغراء المادي تلك هـي الأسـاليب التي لا تكلفنا الدماء والنعوش..

هذا هو طريقنا القادم.. الطريق الذي يجب أن نعـد لـه رجاله في صمت وتأن.. والعزاء أن تجربتنا الفاشلة مع إمام إمام لم تتسرب بعيدا عنا، ولا توجد إلا في صدر هذا الرجل، الذي بقدر ما كان ذا أهمية بالنسبة لنا فقد أصبح عكس ذلك.. وأنه بقدر ما كان يجب أن يكون لنا سيتحول رغما عنه وعنا إلى عبء علينا..

يجب أن تضعوه تحت المنظار.. أوقفوا الاتصـال بـه.. استمروا في تغذية مشروعاته الخيرية، وإسنادها إلى رجـال من الحكومة المصرية.. وإذا رأيتم أنه تخلّص مـن رعـدة الجسد المصاحبة لِذكر اسم المخابرات الأمريكية فاعلموا أنه في طريقه لفضح مخططاتنا وتشويه صـورتنا.. فـي هـذه الحالة سوف لا تجدون مفرا من أن تجعلـوه ينسـف نفسـه بنفسه، ويقدم للمجتمع جريمة قتل صاخبة، عنـدما تبلغونـه بالحقيقة المفجعة التي يعيشها في منزله.. حقيقة أن الرجـل الذي يعيش معه ومع زوجته الثانية، تحت سقف واحد لـيس شقيقًا لزوجته لأن هذا المساعد لجأ إلى هذه المؤامرة، عندما

عثر صدفة على سيدة وجدها تشترك معه في كـل أسـماء عائلته؛ فزوجها لإمام سرا ليحبك خطته الغريبة، التـي هنـأ فيها بمسكن وعشيقة.. (ضعوا هذه الحالة في دراستكم عـن وعورة الشخصية المصرية)..

فقط كل ما نوصي به هو ألا تنزعوا هذه الورقة من ملفه، واستخدامها ضده، إلا إذا تأكدتم أنه يمثـل ضـررا أكيـدا بمصالحنا وأنه انقلاب علينا سيان كان هذا الانقلاب من قبيـل الغباء أو من دواعي الوطنية..

ولكم تحياتي،،

C. I. A

نائب المدير

* * * *

(١٠)

" الحكومة المخدوعة "

لم تكن عنايات في شقتها عندما انطلقت عدة أعيرة نارية سمعها الجيران، واحتاروا في تفسير وتحديـد مصـدرها.. وعندما اقتحمت الشرطة الشقة التي تعلو شقتها على إثر بلاغ من مجهول ينبئ عن وجود قتلى داخل الشقة، تملكها الاستياء من هذه الفوضى التي تدور على السلم، والهرولة التي تسمع دبيبها فوق رأسها..

كانت قد أغلقت بابها وقد سرت في جسدها رعشة مـن الخوف وتسلل إلى صدرها بعض الانقباض.. وعندما طـال رنين الجرس على بابها راحت تبحث عن شالٍ تطرحه على رأسها وهي تهرول نحو الباب.. وجدت رجلاً كانت تعـرف شكله من سكان المنطقة، وقد تملكه الهلع والذعر..

- إمام.. إمام.. راجلك.. راجلك.. سايح فـي دمـه.. فوق.. في الشقة اللي فوق..

قَفَزتْ إلى أعلى ولم تأبه بانحسار الشال عـن شـعرها، وهي تصرخ بلا وعي..

شاهدته ممددا وعلى مقربة منه مساعده (فوزي) وزوجته (ملاك) وكلهم مضرجون بالدماء.. كاد رجـال الشـرطة أن يطردوها ضمن من يسوقونه أمامهم من بشر زحف خلفهـم، إلى أن وجدوها تركع على جثـة أحـد الـرجلين منتحبـة؛ فتركوها عندما عرفوا أنها زوجته.. وقبل أن يفكـروا فـي جذبها لإلقاء بعض الأسئلة عليها، كانت قد غرقت في إغماءة طويلة..

في غيبوبتها القسرية زحفت صور الماضـي نحوهـا غائمة..

لعلها إحدى مغامراتك النسائية يا إمام.. لم يكـن لـي أن أوافق على هذه الجيرة التي لم يجد مساعدك غيرها ليقتـرب - رغما عني - من حياتنا ومعه هذه الشابة التي فجرت في نفسي نار الغيرة.. كنت أعرف أن حياءك البادي في معاملتها أمامي، ليس إلا نوعا من التجمل والدهاء.. آثرت الصـمت خوفًا من الطلقة الثالثة، التي من الممكن أن تصوبها نحـوى في لحظة غضب وتلقيني في الشارع..

كم كنت رقيقًا وجبارا في آنٍ واحد.. أسلمتَ لـي قيـادة حياتك منذ صعودنا سلم الكفاح في جنوب أفريقيا.. أطلقـت

على لقب (الحكومة) أسوة بما يطلقه أولاد البلد على زوجاتهم في مصر..

كم حاولت كبح جماحك، وأنا أطالبك بـبعض الاعتـدال، وأنت تبالغ في توجيه عنفك إلـى الآخـرين.. حتـى أننـي أحسست بفقدك عندما رأيتك تتحول أمامي من كتلة حية مـن الأحاسيس إلى كمية هائلة من الشظايا.. كنت تسترجع كل ما تعلمته من الخواجات، وما أعجبك فيهم، وتقارنه بما وجـدت عليه مصر بعد الانفتاح، من ترد في الأخلاق وترهـل فـي الذمم..

لقد صرت تتفجر حتى نسفت نفسك وأعطيـتهم الخيـوط التي شنقوك بها.. وعندما رسونا على شاطئ الإفلاس تغيرت فيك أشياء كثيرة كان أوضح ما فيها أنك لم تعد تطيقنـي ولا تطيق توسلاتي إليك أن تقلع عن الخمر، حتى أن كراهيتـك امتدت إلى الدنيا كلها، بما فيها من بشر وأشياء وذكريـات، وكانت فكرة الهجرة إلى بعيد، هي المنقذ من الهلاك النفسـي الذي استبد بنا.. وكانت المياه والخضرة والناس الجدد فـي القناطر الخيرية، هم الوجه الجديد الذي واجهنا بابتسامة أمل، تدعو لاستمرار الحياة..

ما الذي كان يحدث معك.. ويحدث منـك فـي العـامين الأخيرين..؟.. لم تكن معي بقدر ما كنت أراك مع أشـياء لا أفهمها.. كنت تحدث نفسك وراء باب غرفتنا الـذي تغلقـه بإحكام خلفك.. خشيت عليك أن يكون بك مـس أو خبـل.. كنت مذهولاً في يقظتك.. وثرثارا في نومتك.. قالوا لـي إن زوجك أخذته السياسة.. تذكرت ما كنت تهذي به في ثوراتك وما تلعن به الحكّام من ألفاظ سوقية.. ثم تنهي ثورتك بأمنية شاردة " بس يمسكوني البلد دي سنة واحـدة.. وأنـا أخلّـي عاليها واطيها "..

هل هذه هي السياسة التي كنت مشغولاً عني بها؟.. وكيف يصل بك الحال أن تتورط في خيانة مساعدك حتـى تكـون نهايتك على يديه.. ولكن لماذا يقتل هذا الزوج المخـدوع؟.. هل قتلته أنت أم هو الذي قتل نفسه؟.. أم إني صرت المقتولة بينكما بلا رصاص أو سكين؟..

....

....

....

....

وعندما امتدت الأيدي لترفع جثث القتلى.. كان هناك خيط رفيع من الدماء يتدلى من فم إمام إمام.. وعندما رفعوا جسد زوجته عنايات الغائبة عن الوعي كانت هناك خيوط كثيـرة من التساؤلات تتدلى من وعيها الغائب وكان فمها المطبـق المشلول المعوج يشير إلى أنها لن تفتحه ذات يـوم لتسـأل الناس حولها عما حدث لزوجها..

* * * *

أرض الجولاف

١٥ / ٨ / ٢٠٠٤